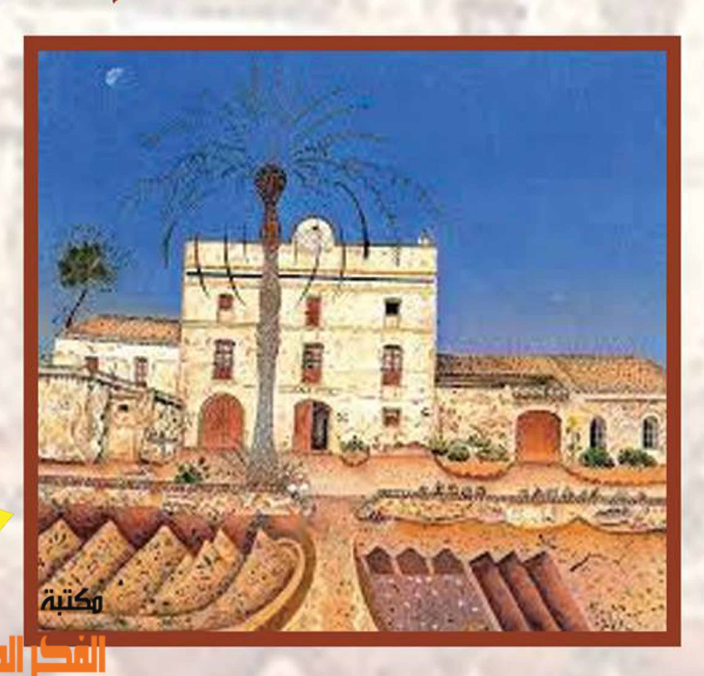
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

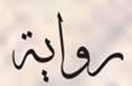


منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

شَهلا العُجيلي

سَماءٌ قريبة من بيتِنا





القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية 2016

الطبعة الثانية

رواية

سَماءٌ
قريبة من بيتِنا



طبع في لبنان



سَماءٌ قريبة من بيتِنا

رواية

شَهلا العُجيلي

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING





الطبعة الأولى: 1436 هـ - 2015 م

الطبعة الثانية: 1437 هـ - 2016 م

ردمك 978-614-02-1321-0



عمّان- خلدا- امتداد شارع الجاردنز
هاتف: 00962-79-5584993
البريد الإلكتروني: majaz.publishing@yahoo.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com



إهداء:

إلى بابا،

إلى إياد وديمة،

إلى مصلح دائمًا...

شهلا




مكتبة
الفكر الجديد

ليالي الأُنس




مكتبة
الفكر الجديد

كان يوم الإثنين 1947/4/28 يوماً ربيعيّاً مشرقاً من أيّام حلب. الشمس تحتجب وراء غيوم بيضاء هادئة، وتسمح بتمرير الدفء الذي دعا كثيراً من الناس إلى ترك متعلّقاتهم في ذلك العصر، والخروج للتريّض حول النهر، في الموقع الذي سيصير بعد سنوات حديقة عامّة من أشهر حدائق الشرق، تحاكي حدائق قصر (فرساي) الخلاّبة.

تقع الحديقة في حيّ العزيزيّة، الذي يحتلّ قلب المدينة، وتطلّ على طرفها الشماليّ، باتّجاه محطّة القطار، شرفةُ الفيلاّ الأنيقة ذات الحجر الورديّ الحلبيّ، التي تعود ملكيّتها إلى المحامي بهجت الحفّار.

ساعتان لا أكثر، تواطأت سماء نيسان مع المتنزّهين، بعدها أبرقت وأرعدت، وجاد المُزن بمائه، حين رنّ هاتف بهجت بيك رنيناً متواصلاً. دخلت مديحة خانم زوجته، بصينيّة عليها فنجانا القهوة المسائيّان، وكأس ماء، ومزهريّة صغيرة فيها زهرتا فُلّ ناصعتا البياض. كان زوجها قد أغلق للتوّ سمّاعة الهاتف، وغادرت الطمأنينة ملامحه. انتظرها حتّى ترتاح في جلستها، وتضع القهوة أمامه. أخذ رشفة من فنجانه، وفعلت مثله. ثمّ قال بصوته الرزين:



- جهّزي نفسك والأولاد، سنرحل إلى دمشق.

اضطربت مديحة خانم قليلاً، لكنّها حافظت على ثباتها، فقد أعدّت نفسها منذ أيّام لاستقبال مثل هذا الخبر، بل كانت جاهزة لحالات الطوارئ، منذ أن أوغل زوجها في درب السياسة.

العام الفائت كان عاماً صاخباً في حياة السوريّين، واستمرّ صخبُه سنوات تلت، حين انقسمت "الكتلة الوطنيّة" على نفسها، وانشقّ عدد من أفرادها، وكوّنوا "حزب الشعب"، وبقي الآخرون ضمن حزب يحمل اسم "الكتلة الوطنيّة" ذاته. ونهض "حزب الشعب" على أكتاف مجموعة من البورجوازيّين يملكون مصالح خاصّة في إعلان الوحدة الاقتصاديّة مع العراق، وعلى رأسهم ناظم القدسي، ورشدي كيخيا، الأمر الذي عارضه بهجت الحفّار بشدّة، وهو يعلم أنّه في موقفه هذا سيتعرّض إلى النبذ من قواعد الحزب قبل قياداته، والتي يتركّز ثقلها في حلب، مسقط رأسه، وربّما يتجاوز الأمر النبذ والمقاطعة إلى مواقف أشدّ عنفاً، فقرّر أن يغادر حلب، ليعيش وأسرته في دمشق، حتّى تستقرّ الحياة الحزبيّة في سورية من جديد.

منذ وصوله إلى دمشق، بدأ الأصدقاء الحلبيّون يتردّدون إلى منزل بهجت بيك، من موظّفين كبار في الحكومة، وسياسيّين، وأساتذة في الجامعة السوريّة، يبحثون عن طيف مدينتهم الذي مازال طازجاً في هذا المكان، ويلملمون تفاصيله من ثنايا الجلسات والأحاديث، التي كانت السياسة تطغى على معظمها،



ويليها مباشرة الحديث عن الطبخ وفنونه، إذ يُجمع الحلبيّـــون، كما يُجمع غيرهم، على أنّ المطبخ الحلبيّ لا يتفوّق عليه في اللذّة والإتقان والتنوّع، مطبخ في العالم على الإطلاق.

كان بهجت بيك، تحسّباً للقادمات من الأيّام، قد اشـــترى منزلاً واسعاً منفرداً عن بقيّة المنازل، في شارع شُقّ حديثاً، يربط بين "المهاجرين" و"الصالحيّة"، الحيّين الدمشقيّين العتيقين، ويقـــع هذا الشارع تحديداً في حيّ "أبو رمّانة"، على مقربة من ضـــريح الوليّ الصالح المجهول، والذي ظلّلته منذ أمد بعيد شجرة رمّـــان، فأكسبته الاسم الذي تمّ تبديله إلى شارع الجلاء، بمناسبة جـــلاء القوّات الفرنسيّة عن سورية، ولكن هي عادة الناس، إذ يحبّـــون استخدام الأسماء القديمة التي استقرّت في الذاكرة.

كان من حسن حظّ بهجت بيك أن تستحدث الحكومة دار الإذاعة اللاّسلكيّة في ذلك العام، وأن تفتتح معهد الموسيقى التابع لها، وأن تستقدم من حلب الشيخ عمر البطش، صديقه العزيـــز، ليدرّس في المعهد فنّ الموشّحات!

كان الشيخ عمر البطش يحفظ ما يزيد على ألف موشّـــح، وكان قد أتمّ ما عجز سيّد درويش عن صـــياغة خاناتـــه مـــن موشّحات ذاع صيتها فيما بعد، مثلما تلقّى عن أستاذه صـــالح الجذبة الحلبيّ فنّ رقص السماح، فنقله من التكايا إلى المســـارح الموسيقيّة، وصار يتردّد على منزل صاحبه بهجت بيك، يستعيدان مع مجموعة من الأصدقاء صدى جلساتهم الحلبيّة، التي تتجـــدّد



بكلّ ما يحمله لهم عبقريّ الفنّ الأصيل. يتصدّر عمر البطش المجلس محتضناً عوده الثمين، الذي أهداه إيّاه في شبابه، جمال باشا الصغير، حاكم سورية، يدوزن أوتاره، ويبدأ بالغناء.

كلّما ضمّت سهرات الخميس التي صارت تُعقد في منزل بهجت بيك، ضيوفاً جدداً، كان صاحب الدار يطلب إلى الشيخ عمر أن يُحدّثهم بحديث الواقعة الشهيرة التي وقعت بينه وبين محمّد عبد الوهاب، فيبدأ صاحب البدلة الإفرنجيّة، والطربوش التركيّ الأحمر، الحديث بصوته الرخيم، مشدّداً فيه على حرف الجيم تحديداً، ليقول:

في العام 1934 زارنا المطرب محمّد عبد الوهاب، وأقام حفلات غنائيّة في كلّ من حلب ودمشق. وفي حفلته الأولى بيننا، دخل القاعة، ففوجئ بها فارغة من الجمهور، بضعة عشر شخصاً لا غير، فغنّى على مضض، وهو المعتاد على الغناء أمام حشود. لكنّه في الحقيقة أبدع فيما غنّى، فتحلّقنا حوله، وقلنا له، وهو في حيرة من أمره، إنّه اجتاز الامتحان، وإنّه سيجد في حفلته الثانية، القاعة وقد غصّت بعشّاق الفنّ.

حفظها لنا عبد الوهاب، وحين دعوناه لقضاء سهرة طرب حلبيّة، لنُسمعه روائعنا، سألنا، وكان معي الشيخ علي الدرويش، بأن نسمعه موشّحاً من نغمة "السيكاه" الأصليّة الصافية!

بُهت الحضور لهذا الطلب، فليس ثمّة موشّح على نغمة "السيكاه" الأصليّة إلاّ وخالطته نغمة "الخُزام" كما يسمّيها



العرب، أو "الهُزام" كما يسمّيها الترك، فالسيكاه الصافية صعبة جدّاً ليتمّ توشيحها! لكنّني انبريت وقلت له: أبشر! غداً نسهر، وأُسمعك منها.

حينما انتهت السهرة، وبّخني الشيخ علي الدرويش بشدّة على تبجّحي:

- إنّك تعلم جيّداً أنّه لا يوجد موشّح سيكاه أصلي، فما الذي ورّطتنا فيه!؟
- أليس من المعيب أن يكون عبد الوهاب في حلب، ولا يَسمع العجب!

سهرت طيلة اللّيل حتّى أنجزت موشّحين، ألفتهما ولحنتهما بنفسي من مقام السيكاه الأصليّ بلا نغمة الهُزام، واستدعيت جماعتي من المنشدين، فحفظوا الموشّحين، ولمّا حانت السهرة، أدّوهما بشكل عظيم، فانبهر عبد الوهاب، لقد سُرّ سروراً كبيراً، كأنّما ملك علم اللّحن في تلك الليلة.

بعد ذلك، يبدأ الشيخ عمر البطش بدوزنة أوتاره، ويصدح بأحد الموشّحين:

رمى قلبي رشا أحور

يا لا لا لا لا يا ليل

بأهداب العيون

يا لا لا لا يا لا لا يا لا لا لي

العيون، العيون السود



يا ليل يا ليل آه يا لا لا لي
ومعسول اللّمى كوثر
ولكن ليس بالمورود...

في غمرة تلك السهرات البهيجة، والتي لا ينغّصها سوى همّ السياسة، كانت الطفلة ذات السنوات الخمس، تجلس مع أمّها وإخوتها في الغرفة الصغيرة، المجاورة للصالة الرئيسة، تستمع لذلك الغناء، وكثيراً ما تنسرب من مكانها، وتقترب من الباب، أو تدخل لترقب المشهد، أو ترقص في مكان قصيّ من غير أن يأبه لوجودها أحد.

تلك الفتاة الصغيرة، ستتعلّم فيما بعد العزف على العود، وستؤدّي مع رفيقاتها رقصة السماح على مسرح مدرسة (دوحة الآداب)، في حفلتها السنويّة، وسيعجب الحاضرون أيّما إعجاب، حينما تُنشد، ووراءها فرقة صغيرة من البنات الدمشقيّات، موشّح ابن زيدون "لم يكن هجري حبيبي عن قِلى"، الذي وضع لحنه صديق والدها، الشيخ عمر البطش. سيصفّقون لها كثيراً حينما يرتفع صوتها، الموقّع بإيقاع الطفولة:

يا فتيتَ المسك يا شمس الضحى
يا قضيب البان يا ريم الفلا
إن يكن لي أمل غير الرضى
منكَ، لا بُلّغتُ ذاك الأملا



تلك الفتاة الشقراء، ذات الشريط الــورديّ في شــعرها، والجوربين الأبيضين القصيرين، ستصبح فيما بعد السيّدة "شهيرة الحفّار"، التي كانت جنازتها هذا اليوم.

* * *

جلستُ في صالة الترانزيت، بانتظار أن أدخل البوّابة المحدّدة، فأنطلق نحو الطائرة، ورحتُ أرقب الموظّفين والمســافرين مــن حولي، خلف الزجاج، يروحون ويغدون في حركة لا تتوقّف. إنّ لمراقبة المسافرين، وقت صفاء المتأمّل، متعة خاصّة، إذ يكونــون أكثر عفويّة وبساطة، وهم خارج نطاق جاذبيّة العــوالم الــتي ينتمون إليها، أو في حالة مؤقّتة من الانعتاق. هنا يستعدّ معظــم الناس لبدء حكاية ما، فالمطارات ســلالم الحكايــات، ونحــن السوريّين ربّما لنا حكايتنا المختلفة معها، فبمجرّد مرورنا مــن الكوّة الأخيرة لأيّ موظّف جوازات، نكون قد استلمنا صــكّ ولادة جديدة، يعلن أنّنا لسنا مطلوبين لأيّة جهة أمنيّة وطنيّــة أو دوليّة، ذلك الشعور يعتري أيّ واحد منّا، حتّى لــو لم يتفــوّه بكلمة واحدة لها علاقة بالسياسة، طيلة حياته، إذ نتصوّر دائمــاً أنّنا سنقع في قبضة أمنيّة بسبب تشابه الأسماء، على أقلّ تقدير!

أعلن المضيف الأرضيّ عن فتح البوّابة، فذهبت لأصطفّ مع أربعة آخرين في المعبر المخصّص لركّاب الدرجة الأولى، متتبّعــة إيقاع خطوات رجوليّة هادئة تمشي أمامي. بعد أن تمّت عمليّــة



التأكّد من جوازات السفر، لاحظت وجهه، فوجدته مرهقاً ومستسلماً. كان في الخمسين ربّما، فاتح البشرة والشعر، ربع القامة، أميل إلى النحول، وتبدو أناقته عفويّةً وأصيلة، بجينز أزرق، وقميص أسود، وحذاء رياضيّ أسود بلا أنشوطة. وحينما استقرّ بي المطاف في مقعدي، وجدته قد سبقني إلى المقعد المجاور.

لست في مزاج يسمح لي بأن أتحمّس لصحبة أيّ شخص، كنت ممتلئة بكثير من الإنجاز والأوقات الحلوة التي قضيتها في تونس، حيث التقيت كلّ من أحبّ رفقتهم، ممّن حضروا معي مؤتمر "الشباب العربيّ والتنمية الثقافيّة"، الذي أقيم في مدينة "قابس" جنوب البلاد، على ساحل المتوسّط، قضينا سهرات مليئة بالضحك، الذي كنت بأمسّ الحاجة إليه، بعد أشهر من الشقاء، مرّت كأنّها أعوام، فهذا المؤتمر الأوّل الذي أشارك فيه بعد خروجي من سورية إثر الاضطرابات، فالحرب التي طفقت تدور هناك.

استقبلني جار الرحلة بوداعة، بل أكثر قليلاً، ربّما بحماسة من يعرف الآخر، ويريد أن يقول له شيئاً. مرّت دقائق الاستقرار، والتهيّؤ للإقلاع، وكلّ منّا في جزيرته، حتّى حانت لحظة التحليق، لحظة القلق الذي يعتري الجميع، مهما كانوا قد تمرّسوا في السفر، اللّحظة ذاتها التي تقرّب بين البشر. التفت إليّ، وتفرّس في وجهي مرّتين أو ثلاث، ثمّ قال:



- أمّي ماتت اليوم، وأنا ذاهب كي أدفنها!

كلّ ما استطعت أن أفعله هو أن أشدّ على يده طوال الرحلة تقريباً، علّ نسغ الحنان يسري عبرها، من قلبي إلى قلبه. كنت أريد أن أضمّه إلى صدري، لكن ليس كلّ ما نريده، نستطيع أن نفعله!

بعد أن أطلقتُ يده، عرّفني بنفسه:

- ناصر العامريّ، خبير دوليّ في المناخ والجفاف؟

اممم... ماذا أعرف أنا عن الأجواء والأنواء! إنّ كلّ ما أعرفه عن الجغرافيا لا يتجاوز ما قاله "إدوارد سعيد": "الجغرافيا عدوّنا الأوّل."!

ما أسعفني لدخول عالمه في تلك البرهة، هو أنّني قبل شهور حضرت مؤتمراً في الجمعيّة الأردنيّة للبحث العلميّ، توزّعت أعماله حول محاور عدّة: العلوم الصحيّة، والاقتصاد، والتعليم...

مدرّبو الحياة يقولون: عرّض نفسك لأكبر قدر من العشوائيّة. احضر مؤتمرات لا يحضرها أيّ شخص، واقرأ كتباً لا يقرؤها أيّ شخص، وتحدّث إلى أشخاص لا يتحدّث إليهم أحد، وثق في احتمالات الحظّ. لذا اخترت محور التغيّر المناخيّ، في حين مضى الناس إلى الاقتصاد والتعليم. كانت المحاضرة الأولى للبروفيسور الهندي مانا سيفا كومار، وبناء عليها قرّرت متابعة الأوراق كلّها، من العاشرة صباحاً حتّى الرابعة عصراً. أعجبت جدّاً بورقة الدكتور سيفا كومار عن الأخطاء الصغيرة التي



نرتكبها كلّ يوم بحقّ المناخ، من غير وعي أو مراقبة ذاتيّة، لتصير بالتراكم كوارث طبيعيّة. جلسنا معاً إلى مائدة الغذاء، وتحدّثنا، واستغرب حضوري في محور بعيد عن تخصّصي، وفي عصر اليوم التالي مررت به في الفندق، واصطحبته في جولة إلى قلب عمّان، وسط البلد، والمدرّج الروماني. تناولنا الكنافة عند محلّ "حبيبة"، وشربنا قهوتنا على شرفة "جفرا" وسط الحوانيت القديمة. حدّثني سيفا كومار عن أنّ مشكلات التغيّر المناخي تبدأ من عند تخصّصي، لا من عند تخصّصه هو، أي بالثقافة وليس بالجغرافيا العامّة، بتغيير عقليّة الناس في التعامل مع مواردهم، والتصدّي لمشكلاتهم، لا بإرسال رسائل سرّيّة إلى الغيوم والرياح والأمواج....

لعل ذلك اليوم الجغرافيّ كان تدريباً أعدّه لي القدر شخصيّاً، كي يؤهّلني للتأمّل في الخريطة الشخصيّة للدكتور ناصر العامريّ!

* * *

حطّت الطائرة التي جمعتنا في مطار الملكة علياء الدوليّ، وكنّا خلال رحلة الترانزيت لكلينا، من إسطنبول إلى عمّان، قد تبادلنا أحاديث، تراوح بين عامّة وشخصيّة. عرفت أنّ ناصر درس في جامعة "سانتا باربارا" في كاليفورنيا، وأنّه مطلّق من سيّدة أميركيّة، وله ثلاثة أبناء، ولدان يدرسان في الجامعة هناك، وبنت تعيش مع جدّتها التي توفّيت أمس في عمّان. جدّتها شاميّة،



قال ناصر، على عادة الفلسطينيّين والأردنيّين، الـــذين يلقّبـــون السوريّين بالشوام، وهي من مدينة حلب، من عائلــة الحفّـــار المعروفة هناك، وأنّه يعمل الآن في مركز إنماء المناطق الجافّـــة في دبيّ. سرحت عن هذه التفاصيل، ورحت أفكّر بالبنت، بنـــت ناصر التي تعيش مع جدّتها، ماذا سيحلّ بها بعد مـــوت الجـــدّة! حزنت لأجلها، ثمّ انتبهت، قبل أن يأخذني التعاطف، إلى سؤال ناصر:

- هل أنت منفصلة أيضاً؟

استغربت! فهل هذا ما يبدو عليّ، أم أنّها رغبـــة ابتدائيّـــة ساورت رفيق رحلتي! لقد كان هذا السؤال مقياس الرسم، إذا ما استعرت لغة الجغرافيّين. سؤال بحجم محدّد، لكنّه يفصـــح عـــن الحجم الحقيقيّ للمساحات التي نكون قد احتللناها في عقـــول الآخرين.

حاولت أن أكون واضحة وبسيطة، ومقتضـــبة في طـــرح نفسي، وأن أفتح الباب بيننا بالمقدار الذي تفترضـــه العلاقـــات الطبيعيّة بين بشر ناضجين، يقدّرون أنفسهم والآخرين بشـــكل صحيح، ويأملون بعلاقات أعمق من أن تكون عابرة:

- جُمان بدران، دكتورة في الأنثروبولوجيـــا الثقافيّـــة، سوريّة، مقيمة في عمّان، وأعمل حاليّاً مـــع مؤسّســـة "تضامن" الهولنديّة. لست منفصلة عن أحـــد، بـــل لم يسبق لي الزواج. لقد مررت بتجربة الفقد ذاتها قبـــل



خمس سنوات. مؤلمة جدًّا! لكن صدّقني دكتور ناصر، ستنتقل هذه الفجيعة التي تراها الآن أمام عينيك إلى الداخل، إلى القلب، مخلّفة نقطة سوداء حالكة، وعميقة، ولا يمكن لشيء أن يمحوها، وسيصير هذا السواد جزءاً لا يتجزّأ من شخصيّتك، ونظرتك، وحتّى طريقة مشيتك، وبالطبع يمكن لك أن تداريه عن الجميع، ولكنّه سيبقى علامة تشير إلى أنّك عشت، واختبرت، وتألّمت.

هنا أدركت نفسي قبل أن أتحوّل إلى واعظة. في الحقيقة، الذين يمرّون بتلك التجارب المؤلمة بوعي، مولعون بتعزية الآخرين، يحكون عنها من منطلق العطاء الإنسانيّ، والتشارك العاطفيّ، وبكثير من الفخر المُستغرب بنضجهم، وبثرائهم الأليم، وأكثر من ذلك بشجاعتهم في تجاوز الفجيعة. ارتحت لعباراتي الأخيرة التي أطلقتها على مسامعه، إذ كشفتْ عن أنّ تعبيري الجسديّ في احتضان يده وقتاً طويلاً، لم يكن اعتباطيّاً، هو نوع من التعاطف الذي يمتلك مسوّغاً قويّاً.

قبل أن يشقّ كلّ منّا طريقه عبر المسافرين، سأل ناصر عن رقم هاتفي، كان حزيناً وواعياً في الوقت ذاته! أدخل الأرقام في هاتفه وطلبني فوراً، فظهر رقمه على شاشتي، الرقم الذي لن أحتاج سواه في المقبل من أيّامي.





عشرة أيّام مرّت، كنت خلالها أعمل بهمّة عالية. أحاول أن أستعيد ذاتي التي غيّبتها الحرب في بلدي. أغرق بين المعلومات والإحصاءات، وقصص النساء المهجّرات والنازحات، الهاربات من القصف، واللواتي كنت قبل أشهر واحدة منهنّ، وما زالت أختاي جود وسلمى بين بقيّتهنّ، وكلّما قفزت أمامي تلك الفكرة، أستسلم إلى الكآبة من جديد! أنا هنا لا لأقدّم شيئاً لأحد، بل لأهرب من الحرب، إذ بدأ هناك في حلب حيث أعمل، استهداف الأكاديميّين. زميلي الدكتور محمّد، أستاذ التاريخ، وشريكي في المكتب ذاته في كليّة العلوم الإنسانيّة، أصيب برصاص قنّاص، وهو عائد من الجامعة إلى بيته في "بستان القصر". من بين تلك المتناقضات كلّها: الشعور بالحظّ لأنّني وجدت ملاذاً آمناً وعملاً مجزياً، والشعور بالانهزام، وعذاب الضمير لترك بابا وأختيّ داخل دائرة الخطر والمعاناة، يطلّ وجه ناصر، يحدّق بي بعينين عميقتين ووادعتين، فيغمرني شعور بالحبور، وأترك نفسي لابتسامة عريضة، أفتح لها الطريق، ولا أمنعها، علّها تجرف في طريقها ما أحمله من الأسى.

اتصل ناصر كما، توقّعت، وذلك بعد أن هدأت سَورة الفقد، وبقيت حلاوة العزاء الذي تركته في نفسه حينما كان وحيداً في ساعات مصابرته الأولى. اتصل يبحث عن شكل آخر من أشكال السلوى الذي أعرفه تماماً، إنّه الآن بحاجة إلى الكلام.

تواعدنا على اللّقاء مساء، في مقهى الـ "بلو فيج" في



عبدون. ما زالت علاقتي بالأمكنة هنا محدودة ومرتبكة. كان لي في حلب مكاني الخاصّ الذي أجلس فيه في مواعيد محدّدة، لي طاولتي المحجوزة، يعرفني العاملون جميعاً، يخصّونني وضيوفي باهتمامهم، ويعرفون ما أحبّ وما لا أحبّ، ومتى أريد أن أكتب، ومتى أريد أن ألتقي بالأصدقاء....

لا مطاعم الريتز، ولا مقاهي الشانزيليزيه أو مقاهي أرصفة براغ، تساوي الجلسة على تيرّاس أوتيل بارون. مبنى صغير في قلب مدينة حلب، وفي الشارع الذي سمّي منذ العام 1946 باسمه "شارع بارون"، تقديراً للدور الوطنيّ الذي لعبه الفندق في مرحلة الاستعمار الفرنسيّ، حيث كان الشارع ذاته يحمل اسم "غورو"، الجنرال الفرنسيّ الذي دخل دمشق، بعد معركة ميسلون، ورفس بقدمه الضريح قائلاً عبارته الشهيرة: "ها قد عدنا يا صلاح الدين!". يعود بناء أوتيل بارون إلى العام 1906، إذ قام على إحدى وثلاثين غرفة، وحمّامين، وبعدها رفع الأخوان "مظلوميان" طابقه الثالث، الذي حوى حمّاماً في كلّ غرفة من غرفه السبع عشرة.

إلى شرقه يقع حيّ العزيزيّة الشهير، معقل البورجوازيّة الكبيرة، المسيحيّة تحديداً، حيث تتناثر على الأرصفة مقاهٍ لمطاعم أنيقة: وانيس، والشلاّل، وقرطبة، وأمامها جزر من الشجيرات الخضراء والورود التي زرعت في مجرى نهر "قُوَيق" بعد أن تمّ ردمه حين تكاثرت فيه الحشرات، مهدّدة بانتشار وباء



الليشمانيا. في هذه المطاعم يلتقي فنّانون، وكتّاب، ورجال أعمال، ورجال دولة، يسهرون على موسيقى فرق أرمنيّة مغمورة، لكنّها موهوبة في خلق حالة من النوستالجيا لسنوات الأربعينيّات والخمسينيّات، حيث رقص الحلبيّون كثيراً على أنغام التانغو والفالسات الشهيرة....

إلى جنوب أوتيل بارون، تنتصب ساعة باب الفَرج، واحدة من معالم المدينة التاريخيّة، إذ يُقال لشهرتها: "فلان لا يعرف حلب إلاّ من باب الفرج"، وذلك على الرغم من أبواب المدينة الستة الأخرى المتبقّية. أمام الساعة ينتصب مبنى المكتبة الوطنيّة محجّاً لمحبّي القراءة والبحث والمسرح والفنون، وبين الأوتيل وساحة باب الفرج، شوارع ضيّقة متوازية، يطلق على المنطقة التي تمتدّ بينها اسم "بستان كلّ آب" أو "بستان كليب" بالإمالة التي تقتضيها اللهجة المحليّة، حيث ينتشر بائعو قطع تبديل السيّارات والآليّات الزراعيّة، مثلما تتناثر الفنادق الرخيصة التي تشترك فيها كلّ مجموعة من الغرف بحمّام واحد، وتحمل أسماء من مثل: فندق قناة السويس، وفندق الوحدة، وفندق سورية ولبنان، ومطاعم تصنع الكباب الأرمنيّ، وصينيّة الملك، وملاهٍ ليليّة أشهرها "المولان روج" والـ "الكريزي هورس"، تمرّ على أرصفتها ذوات الأحجبة والخُمُر، وموظّفات شركات الطيران، ويعجّ قاعها بعاملات روسيّات وأوكرانيّات، وأقلّ منهنّ بنات ليل محليّات.



إذا جلس المرء على تيرّاس الأوتيل، سيقابله على الرصيف الآخر، فرع اتّحاد الكتّاب العرب، الشقّة العتيقة، التي دارت فيها محاضرات وأمسيات أدبيّة طالما أنقذتنا من رتابة الأكاديميا. وفي الشارع المجاور تقف سينما الكندي، لتعرض على بوّابتها دعايات حارّة لأفلام قديمة وخاسرة، يتسمّر أمامها المراهقون، يقضمون سندويشات الفلافل، وعيونهم معلّقة بصور النساء العاريات التي تعدهم بالكثير، ولكنّهم في الغالب يتركونها، ويمضون لوجهتهم نحو البنايات القديمة المرصوصة إلى بعضها، أو نحو محلاّت الملابس والأحذية، التي تصطفّ في شارع القوّتلي، معلنة دائماً عن عروض وتنزيلات مغرية، لبضائع سوريّة الصنع، أو صينيّة متوسّطة الجودة، ورخيصة. لا تعدم مثل هذه السينما روّاداً لها، مهما كان نوع الفيلم الذي تعرضه، إذ غالباً ما تجد صبايا وشبّاناً، مراهقين أو على أعتاب النضج، وربّما جامعيّين، يئسوا من أن يجدوا مكاناً للقاء أو خلوة، فيدخلون الصالة، ويقبعون في الصفوف الخلفيّة يتبادلون الغرام، والجنس السريع، بعد أن يضيء لهم مسؤول الصالة الطريق بمصباحه الصغير، ثمّ يغضّ البصر عنهم، ليغرقوا في ظلمة آمنة، معرضين عن الفيلم الدائر، والذي دخلوا إليه مرّات ومرّات، ولم يفكّر أحد منهم بالطبع عن سبب تسمية السينما بـ "الكندي"، وعن سبب تسمية الشارع بـ "القوّتلي"، الشيء الذي يتكرّر في كلّ مدينة سوريّة تقريباً!



في مساءات الصيف، نجلس على الترّاس العريض الذي يشكّل مدخل الفندق، وتفصله عن الشارع بضع درجات من نفس حجر السور الواطئ، وخلفنا الباب الرئيس الذي يعلوه اسم الفندق، يشكّله ضوء نيون أزرق رفيع وأنيق، "Baron Hotel"، وننتقل في الشتاء إلى "اللوبي" الذي يجمع بين اللاّونج والبار، فنتبادل أحاديث الثقافة والسياسة والمجتمع، أمام الموقد الرخاميّ، المتناسق في أبّهته مع البلاط الشطرنجيّ بلونيه الأبيض والأسود. ومع أنّني لم أصعد ولا مرّة إلى غرف الفندق التي سكنها المشاهير، فاحتفظ المالكون بغرفهم، كما تركها أولئك، وسمّوها بأسمائهم، لكنّني أتوقّع كلّ مرّة أنّ أجاثا كريستي ستنزل من فوق في أيّة لحظة، لتجلس قبالتنا، وأنّ جمال عبد الناصر يقف الآن على الشرفة الواسعة ملوّحاً للجماهير، وأنّ قادة عسكريّين، أتراكاً، وإنكليزاً وفرنسيّين، يحوكون مؤامراتهم التي ما زالت متوارية في ملفّات الحربين العالميّتين، على الطاولة المستلقية خلفنا. نحن أيضاً، أصدقائي وأنا، كنّا نحوك مؤامراتنا الخاصّة، ونصنع أساطيرنا الشخصيّة، والمستلهمة من الطاقة المبثوثة من هذا المكان الذي يشبه كهفاً سحيقاً، جمّع وجوهاً كثيرة لأفراد، ما تزال زواياه تحتفظ بصدى أسرارهم، مثلما تحفظ بريق عيون أحبّة مضوا، وضحكات، ومشاريع حبّ لم تكتمل، ودموعاً صادقة، ترشح من ذلك الزمن النديّ في حلب.

في هذا المشرب ذاته، وفي شتاء العام 2000 قابلت سامي للمرّة الأولى عن قرب. كان جالساً مع جماعة من الروس، رجال



ونساء، يتناولون كؤوسهم، ويضحكون بصخب. لم يخطر في بالي أن ألتقي شابّاً من مدينتي "الرقّة" هنا! أعرفه بالشكل، إذ درسنا في المدرسة ذاتها، وكان أخوه في صفّي، وحين كنّا في السابع، كان هو في العاشر. يومذاك، كنت أتناول عشائي مع "نجوان"، صديقة سنوات الجامعة. اقترب منّي بثقة، وصافحني، وعرّفني بنفسه. لم أكن على صلة وثيقة بأبناء مدينتي الصغيرة، الذين يأتون إلى حلب لمتابعة دراستهم الجامعيّة. ينفتحون سريعاً في علاقاتهم، يتساندون، ويتواطؤون، لكنّهم يقتحمون الخصوصيّات، ويتحرّون عن بعضهم البعض، ويوهم كلّ منهم الآخر أنّ ما يحدث في حلب، يبقى في حلب، في حين أنّ الأسرار تسافر عجلى إلى الرقّة، تقطع ساعتين من الزمن شرقاً، قبل أن يكون أصحابها قد قفلوا عائدين في نهاية الأسبوع غالباً.

أعجبتني ثقة سامي، وكذلك عفويّته! قال إنّه يعرفني من أيّام المدرسة، تبادلنا نظرات عدّة، وابتسامات، ثمّ مضى مع صحبه.

كان سامي قد درس هندسة البرمجيّات في جامعة موسكو، ثمّ عاد ليعمل في محطّة توليد الطاقة الحراريّة الواقعة بين حلب والرقّة. حينما رأيته كنت أشعر بالبرد، وكان يرتدي جاكيت من الجلد الأسود الفاخر، يصل أسفل وركيه، بحزام عريض عند الخصر، وياقة محاطة بفرو رماديّ كثيف. شعرت بحاجتي لأغمر وجهي البارد عميقاً في هذا الدغل من الفراء. رأسه كبير مستطيل، وبشرته قمحيّة، وعيناه واسعتان، يعتريهما ذبول



بسبب الجفنين المشدودين إلى الأسفل، وأنفه علامته المميّزة، كبير وعريض، وكانت عمّتي تقول: الأنف الكبير دلالة العنفوان! في حين كان فمه مدوّراً وصغيراً، بشفتين عريضتين، ويبدو أصغر ممّا يقتضيه التناسب مع تراسيمه الأخرى.

في اليوم التالي قابلت سامي في المكان عينه، ومع الأشخاص ذاتهم، وبدا لي أنّهم نزلاء في الأوتيل. تبادلنا التحيّة، وجلسنا قليلاً، تحدّثنا عن أيّام الدراسة، وعن بعض الأصدقاء، وعن البلد ومعارف مشتركين فيها، وهكذا توالد الكلام، تماماً كدمى (الماتريوشكا) الروسيّة، حوارات كبيرة أفضت إلى حوارات أصغر، فأصغر، حتّى وصلنا إلى الأكثر خصوصيّة. كنّا سامي وأنا مناسبين جدّاً لنكون معاً، فغالباً حينما تكون شروط الأفراد الموضوعيّة متناسبة، يكون انجذابهم نحو بعضهم البعض أكثر منطقيّة وأسهل، وهكذا تقاربنا....

يتردّد عليّ في الجامعة، نتناول معاً قهوة مسائيّة في مقاهي حيّ الشهباء الهادئة، نحكي ثمّ نحكي. ثمّ صار يحرص على أن يقضي نهاية الأسبوع في حلب، نسهر عند باب القلعة، ونتعشّى في مطعم دار زمريّا في حيّ (الجدَيدَة)، حيث يقدّمون كرات اللحم المطبوخة بفاكهة الكرز، على نغمات القدود الحلبيّة، يعزفها عوّادون قد شربوا الفنّ مع حليب أمّهاتهم.

أدخل سامي بهجة إلى أيّامي التي تحدّدت بإطار البحث العلميّ في برنامج الماجستير، فتح كوّة صغيرة انسربت إليها



عواطف حارّة، متوهّجة، لكنّها قصيرة الأجل، مثل أسهم الألعاب الناريّة. كان طيّباً ولبقاً، لكنّه لم يكن ذكيًّا! اصطادني بقصيدة لبوشكين في زيارته الأولى لمكتبي في الجامعة، إذ احتضن يدي بين يديه، وأنشد بصوت هادئ تعتريه بحّة جميلة، وهو ينظر عميقاً في عينيّ:

"أيّها الحبّ

أصغِ لصراخي أيّها الحبّ

وأرسل رؤاك ثانية إليّ

وعندما ينبلج الصبح

لا توقظني

بل دعني أرقد رقدتي الأبديّة!".

اكتشفت فيما بعد، أنّها القصيدة ذاتها التي يتعلّمها الطلبة العرب جميعاً، في سنتهم التمهيديّة الأولى، التي يدرسون فيها اللّغة الروسيّة، قبل أن يتوزّعوا نحو تخصّصاتهم العلميّة. حينما رويت هذه التفاصيل لنجوان، صديقتي، قالت ببرود: طبعاً، من كنت تظنينه، مایاكوفسكي مثلاً! وخجلت وقتها من اندفاعي الساذج.

* * *

كان سامي ينتظر أن أناقش أطروحة الماجستير ليتقدّم لخطبتي. خلال السنتين اللتين كنّا فيهما معاً، كان قد استأجر استوديو قريباً من الجامعة، للقائنا، أقضي في حضنه ساعات



بدأت حماسيّة وشهيّة، وراحت تفقد ألقها سريعاً. امتصصته بسرعة، حفظته عن ظهر قلب، كلّ نكاته وردود أفعاله، وترّهاته كان يمكنني التنبّؤ بها. لم يكن لديه أيّة هواية! في الواقع، أوّل مرّة أعرف أنّ هناك شخصاً ليس لديه أيّة هواية. لم يقرأ أيّ كتاب غير مقرّراته الدراسيّة التي خدمه الحظّ في إنهائها. كان يطلب إليّ أن أحكي له عمّا يوجد في الصحف أو الكتب والمجلّات التي كانت دائماً بين يديّ، يسمع منّي المعلومات الأوّليّة، ويهزّ رأسه. لم يكن يأبه كثيراً لدراستي أو لعملي، وكانت تبدو له أشياء أقوم بها، لأنّني لم أتزوّج بعد. همّه انحصر في أن يكون لنا بيت صغير وسيّارة، وأن نكون معاً. لم أكن أفهم هذا النوع من الحبّ، لكنّني اكتشفت فيما بعد أنّه كان حبّاً حقيقيّاً وآمناً، بعيداً عن أيّة ادعاءات مقلقة.

الحبّ لا يشترط فيه الطموح والتشويق، ولا بذل جهود لإقناع الآخر بنفسك، يكفي أنّك تريد البقاء معه، وترغب في حمايته، وتكون له صخرة بالمقدار ذاته الذي تكون فيه شجرة وارفة. هذا ما واجهتني به بعد سنوات مارغريت برانت، واحدة من أهمّ الكاتبات النسويّات في العالم، اللّواتي عملن في الأعمال التطوّعيّة لتحسين أوضاع ضحايا الحروب من النساء في غواتيمالا ونيروبي. البروفيسورة برانت تزوّجت من رجل يكاد يكون أميّاً، يعمل في صيانة قوارب الصيد البخاريّة، وعاشت معه أربعين عاماً في بيت صغير على شاطئ الكاريبي. قالت لي: إنّها كانت تحبّه



بلا أيّة فلسفة أو شروحات، و لم تأبه يوماً بالفروقات الثقافيّة بينهما. قالت أيضاً: من الطبيعيّ ألاّ يشبه الناس بعضهم البعض، وليس من الضرورة أن يمتلكوا الشغف بالأشياء ذاتها، فإذا ما أحبّ المرء آخر، فسيحبّه كما هو بظروفه الراهنة والمستقبليّة. عاشت معه سعيدة جدّاً، لأنّه منحها الحبّ والأمان، وكان كريماً، و لم تكن تخشى في صحبته شيئاً على الإطلاق.

انسحبت من حياة سامي، لكن ليس ببساطة، فلم تكن لديّ أعذار يمكن تقديمها، كان مسوّغي الوحيد أنّني لم أكن سعيدة، وهذا ما يصعب تفصيله لإقناع الآخرين به، كنت أشعر أنّه يخنقني، وكان بإمكاني أن أتحسّس قضبان الحياة التي سأسجن بها معه قبل أن أدخلها. بعد ليال طويلة من الأرق، والبكاء المتواصل الذي يمليه عذاب الضمير، تجاه شخص كان نبيلاً معي حتّى اللّحظة الأخيرة، قرّرت أن أهرب منه. لم يصدّق طبعاً، و لم يستسلم، وأخذت هذه المرحلة أشهراً خمسة أوستّة، بين أخذ وردّ، وتوسّلات، وضغوطات، لكن في النهاية، تغلّبت الرغبة في الانعتاق لديّ على كلّ ما يمكن أن يكون. تركته مدمناً على الكحول، وتركني مريضة بعقدة ذنب أبديّة.

كان طارق الصديق الحميم لسامي، قضيا معاً طفولة سعيدة، جاران، وفي المدرسة ذاتها، بل في مقعد الدراسة نفسه، يقضيان بعد الظهر في نصب فخاخ للعصافير، أو في ملاحقة سيّارات نصف النقل، والتعلّق بها، والسير مسافات، قبل أن



يكتشفهما سائقها. طارق ولد ذكيّ، ويتمتّع بحسّ فكاهة عالٍ، كان واثقاً جدّاً بنفسه، ويحاول دائماً أن يتعلّم ماذا يقول، وكيف يمكن أن يقوله بأفضل طريقة، وهو ابن ريف مجاور، وكان والده معلّم الرياضيّات في مدرستنا، رجلاً مهيباً، وصعباً، وكان طارق يظهر للطلبة تواطؤه مع شقاواهم ضدّ قسوة أبيه. في يوم من أيّام الشتاء، ألقى طارق في مدفأة الصفّ المشتعلة، قطعة من الكاوتشوك، فعبقت غرفة الصفّ برائحتها الكريهة، بطريقة لم ينفع معها فتح الباب والنوافذ، وبدأ الطلاّب يسعلون، وبعض الفتيات مثّلن دور المختنقات، اللواتي سيغمى عليهنّ، وهكذا نجح طارق في تعطيل الحصّة، والحصص الدراسيّة كلّها لذلك اليوم. وبعد التحقيق، انقسمت أصوات الطلبة إلى من يتّهم طارق، ومن يتّهم سامي الذي كان معه. سامي سكت تماماً، وطارق استمات في الدفاع عن مستقبله، الذي يمكن لحصّة دراسيّة أن تدمّره، وبكى بكاء حارّاً، فصدّق الجميع دموعه، لأنّه طالب متفوّق، وطُرد سامي من المدرسة لثلاثة أيّام، وعاد مع أبيه الطبيب ليوقّع على تعهّد عدم الإساءة ثانية. وفي إحدى المرّات، قصقص طارق ورق الدفتر، وجمّعه ليصنع ما يشبه ذنباً طويلاً، ألصقه على مؤخّرة مدرّس اللّغة العربيّة البديل، حينما مرّ بمحاذاته، وهو يتجوّل بين مقاعد الطلبة، منفعلاً في قراءة قصيدة "ابن زيدون":

إنّي رأيتكِ بالزهراء مشتاقا

والأفق طلقٌ ووجه الأرض قد راقا



انفجر الطلاّب مقهقهين بطريقة أربكت الأستاذ، حتّى استدلّ أخيراً على الذنب المركّب على مؤخّرته، فاحمرّ بين خَجِلٍ ومغتاظ، ورمى الكتاب، وغادر غرفة الصفّ. طبعاً دارت الشبهات حول ذلك المقعد الذي يجلس فيه كلّ من طارق وسامي. سامي لن يشي بصاحبه، ولا يقبل أن يُقال عنه "ولد فسّاد"، وطارق برّأ نفسه بتلميحات مدروسة إلى غيره، فتمّ فصل سامي أسبوعاً من المدرسة، مع إحضار وليّ أمره.

عند التقدّم إلى الجامعة، تمكّن طارق بمعدّله المرتفع، من دخول كليّة هندسة البرمجيّات في جامعة دمشق. لم يحالف الحظّ سامي في الحصول على درجات عالية، لكنّه تمكّن بمال أبيه من دخول الفرع ذاته، في جامعة موسكو، حيث ذهب كثير من السوريّين، وبخاصّة أهل الرقّة، للدراسة هناك، قبل افتتاح الجامعات الخاصّة في البلاد.

عملا معاً في المحطّة الحراريّة، وكانت لديهما فرصتان متكافئتان ليكون كلّ منهما رئيس قسم الضخّ فيها. طارق خبّر الشرطة العسكريّة عن سامي الذي ما زال يؤجّل خدمة العلم، ولم تفلح الآن وساطات تأجيل التجنيد أو الرشاوي المتعارف عليها، لأنّ الاضطرابات اشتعلت في أكثر من مكان في سورية، وتجاوزت درعا إلى حمص ودير الزور، وتمّ تجنيد كلّ المؤجّلين، بل تمّ تأجيل تسريح من أزف تسريحهم من العسكريّين، حتّى إشعار آخر.



جاء فرز سامي في ريف حمص، في محطّة توليد الطاقة الكهربائيّة، وقُتل في مواجهة مسلّحة بين الجيشين النظاميّ والحرّ.

في سنوات الدراسة الجامعيّة، كان طارق عضواً عاملاً لامعاً في الفرقة الحزبيّة لكليّته، وغالباً ما كان يمثّلها في المناسبات الرسميّة، نقل تنظيمه بعد التخرّج إلى شعبة المدينة في الرقّة، وكان طموحه أن يدخل القيادة، فيصير أمين فرع الحزب في المحافظة، مردّداً أنّ أمانة الفرع هي القدر الجميل الذي يتطلّع إليه كلّ ريفيّ!

فيما بعد، صار يسافر كثيراً لحضور دورات تدريبيّة في التنمية والإعلام، وحقوق الإنسان، وظهرت عليه أمارات الثراء!

مع إعلان الثورة على النظام، وانتشار حمّى المظاهرات والانشقاقات، ظهر طارق على شاشة قناة "الجزيرة" الفضائيّة من إسطنبول، ناطقاً رسميّاً باسم تحالف الثورة، يندّد بديكتاتوريّة النظام، ويعلن تهافت الحزب، ويبشّر بانتصار الثورة.





محطّة بغداد النوتوراكي




مكتبة
الفكر الجديد

تعمّدت ألاّ أتكلّف في مظهري، فاكتفيت ببنطلون من الكتّان لونه بيج، وبلوز موسلين أبيض، وعقد قصير من المايوركا الملـــوّن بألوان الباستيل، كأنّني ذاهبة إلى لقاء مسائيّ مع صديقة قريبة.

أقبل ناصر. كان هذه المرّة أكثر هيبة، كان الدكتور ناصر بحقّ، لا رفيق السفر المرتبك والحزين. ارتدى بنطلوناً رماديّاً، مع قميص أبيض، وبليزر كحليّ، وقد ثبّت شعره بكريم، ومشّـــطه نحو الخلف، فبانت جبهته العريضة، وبدا شبيه جدّي لأمّي.

كنّا، ناصر وأنا، متناسقين تماماً في مظهرينـــا، بســـيطين، وأنيقين، وحقيقيّين، كما هي الحيـــاة في نظـــر علـــم الجمـــال البورجوازيّ المعاصر. ارتحنا على أرائك مقهى "بلو فيج" الجلديّة الوثيرة، نطلّ على فيلاّت ومنازل جميلة من حولنا، ومن بعيد نحو الشمال، يرفرف علم السفارة السوريّة بثقة، ليشيع في النفوس أنّ ما يحدث هناك في البلاد، هو أضغاث أحلام.

لا أعرف ما الذي دعاني لأشبّهه بجدّي، ربّما بسبب "البريل كريم" على شعره، إذ خطرت في بالي علبته الحمراء، التي بقيـــت في مكانها الأزليّ، حتّى بعد رحيله بسنوات، موضـــوعة علـــى "التواليت" في غرفة النوم الإيطاليّة، المزيّنـــة بلوحـــة الكـــوبلان الفريدة، التي تمثّل صورة لمجموعة من الجندولات المتهادية في مدينة



البندقيّة. تنفتح شبابيك تلك الغرفة على شارعين من شوارع حيّ محطّة بغداد النوتوراكيّ، الذي ما زلت أجهل معنى اللاّحقة الأخيرة فيه. تلك الشبابيك حاكت قصص هوى، وأحلاماً بالفنّ والسفر والنجاح، تحفّزها أصوات القطارات القادمة من محطّات كثيرة: إسطنبول، واللاّذقيّة، والقامشلي، وبودابست، والتي دائماً تشير إلى اتجاه الحياة.

كان حيّ محطّة بغداد من أجمل أحياء حلب الخمسينيّات، ثلاثة شوارع واسعة متوازية، يقطعها عرضيّاً الشارع الذي يفصلها عن الحديقة العامّة، التي يتوسّطها تمثال أبي فراس الحمدانيّ، وتنتشر في أرجائها نوافير المياه، وأشجار راسخة من صفصاف، وسرو، ودردار، وورود الجوريّ، والورد البلديّ بألوانه: الأحمر والأصفر والبنفسجيّ، ويتعالى الياسمين فوق الأسوار، بأبيضه، وأزرقه، وتمتدّ الرياحين على القضبان الحديديّة التي وضعت لتتسلّقها تلك الخضرة اللاّنهائيّة، على مساحة 17 هكتاراً. تصطفّ فيها مقاعد خشبيّة خضراء، وقد خصّص قسم لألعاب الأطفال، وآخر يمنع فيه الضجيج منعاً باتّاً، فيه أقفاص لطواويس، تفرش ذيولها للمتفرّجين بين الفينة والأخرى، وتمتنع أحياناً من شدّة الغيّ والدلال، في حين يمضي البجع في بحيرته المخصّصة غير آبه حتّى بالزرقة التي اعتاد أن يصبح ويمسي فيها، محاطاً بتماثيل لأجساد صارت أليفة بحكم الزمن، خلقتها أصابع نحّاتين سوريّين متنوّرين من مثل جاك وردة، ووحيد إستانبولي.



يسمق الصفصاف أمام عمارات محطّة بغداد، التي تصل إلى أدوار ستّة، وتدخل أغصانه من الشبابيك المفتوحة في الطابقين الأوّلين، تطلّ على الساكنين، وتتلصّص عليهم في غرف النوم، وتصافح فناجين قهوتهم التي تدور في الصباحات والمساءات، حيث تقيم عائلات مسيحيّة ومسلمة، وبعض العائلات الأرمنيّة، والتي تصنّف على أنّها بورجوازيّة حلب الكبيرة: آل الدلاّل، والصقّال، والكيّالي، والمارتيني، والصبّاغ، والمدرّس، والعقّاد، والطرابلسي، والعطّار، وأنطاكي، ومكربنة، وحلاّق، والحموي، ومرجانة، وقناعة، وسركيسيان، وإزميريان، وسواهم، وفي محيطها نحو الشرق، أحياء أكثر شعبيّة واكتظاظاً تسكنها البورجوازيّة الصغيرة، والبروليتاريا، كحيّ الشيخ طه، والسريان، والأشرفيّة، والشيخ مقصود، حيث يتجمّع الأكراد القادمون من مراكزهم القرويّة كعفرين واعزاز، وكذلك الأرمن والتركمان، وغيرهم من العرب القادمين من المنطقة الشرقيّة.

يقع بيت جدّي في الطابق الأوّل، وله شبابيك على الشارع، بلا "برندات"، إذ تبدأ البرندات في تصاميم تلك العمارات القديمة، اعتباراً من الطابق الثاني. في الصيف نفتح الشبابيك القريبة من الشارع، وننام على هبوب نسمات ليالي حلب العابقة بالجمال والبهجة والحياة. أقدام العابرين القلائل تهدي لي إيقاع النوم، وهمهماتهم تضيع بين يقظتي ومنامي، فأسمع أحياناً مفتتحات قصصهم، لأكملها في أحلامي الطويلة. أوّل مثل



أتذكّر أنّني سمعته في حياتي، كان لعجوز مرّت تحت الشبّاك. كانت تبكي وتقول: "قلبي على ولدي انفطر، وقلب ولدي على الحجر"، وكان حلمي كفيلاً تلك الليلة بإتمام قصّتها. تنفتح تلك الشبابيك باتجاه الغرب، حيث يقطن مدير السكك الحديديّة، في بيت ملاصق لمحطّة الركّاب. بيت كبير من طابق واحد، محاط بحديقة جميلة، فيها بركة ماء صغيرة، ومشجّرة بأشجار مثمرة، مشمش وخوخ ولوز، وكثير من ورد الجوري الأحمر والأصفر، وخلف السور الحجريّ الرماديّ، سور آخر من أشجار الصنوبر، وعلى الباب الرئيس من جهة اليمين، غرفة خشبيّة صغيرة للعسكريّ الذي يحرس البيت، برشّاش آليّ لا يفارق ذراعه.

كان باسل، ابن مدير السكك الحديديّة، يدرس في كليّة الهندسة المدنيّة، وكان واقعاً في غرام خالتي دالية، التي تدرس في كليّة الآداب في قسم اللّغة الإنكليزيّة. ظلّ يلحق بها كلّ صباح، إلى حيث تصعد بالباص من الموقف الذي أمام الحديقة العامّة إلى الجامعة، وهو يركب سيّارة الحكومة المرسيدس التي فرزها أبوه خصّيصاً لتنقّلاته. يوماً إثر آخر، صارت تستثقل مطر الشتاء، وتستعذب المرسيدس، فصار يمرّ بها أمام الحديقة ليوصلها إلى كليّتها، ثمّ يعيدها إلى موقف الباص ذاته.

دخل خالي إلى البيت عصراً وهو في حالة هيستيريّة، فقد أغلقت الطرقات في معظم شوارع حلب، وما تزال خالتي دالية



خارج البيت، ذهب إلى محيط الجامعة بحثاً عنها، وعـاد يائسـاً مذعوراً، إذ كان قبلها بأيّام قد تمّ اقتحام كليّة الآداب من قبـل الإخوان المسلمين، الذين دخلت عناصرهم إلى المدرّجات، بدعم من كوادرهم الطلاّبيّة. وصل البيت بصعوبة إذ كـان النـاس يشيّعون جثمان وزير الداخليّة عدنان دبّاغ، الـذي قضـى في ظروف غامضة.

مرّت الجنازة المهيبة من أمام الحديقة العامّة، وركض كـلّ من في البيت نحو نافذة غرفة الجلوس ليتابع الحشـود البعيـدة، وفلولها المتسرّبة من الفرجة في الشارع الرئيس، حيث مرّ النعش محمولاً على الأكتاف. كان وزير الداخليّة قد تزوّج سرّاً بالمطربة ميّادة الحنّاوي، التي ورثت عنه ثروة طائلة، ودخلت مع عائلته في مشاكل عميقة، لم تنته بمحاولة إطلاق النار عليها، كما أشـيع، من قبل مجهول.

لم تكن ميّادة الحنّاوي مطربة الجيل فحسب، بل "ديفا" كما يطلق على النساء اللّواتي يصرن ملهمات. وكان الشاعر الظريف أحمد الجندي، ابن مدينة السـلميّة يقـول: أُقبّـل الرائـي أي التلفزيون، كلّما طلعت ميّادة الحنّاوي، وحين كان أيهـم ابـن جيراننا، ولداً في الصفّ الأوّل الابتدائيّ، كان يفتعـل مشـكلة عويصة يغضب بها أباه، كي يعاقبه الأخير بحرمانه من التوصـيلة إلى المدرسة بالسيّارة، ليذهب ماشياً، فيقف أمام محـلّ الحلاّقـة ندى، التي ألصقت على بلور الباب من الداخل، بوستراً كـبيراً



لميّادة الحنّاوي، فيغرق في نظرتها البعيدة المليئة بالشجن، وفي ملامحها التي تجعل الحجر يذوب عشقاً. كان الولد يقف طويلاً، نصف ساعة ربّما، وهو يتأمّل في ذلك العنق الرخاميّ الأجيد، حتّى تخرج الحلاّقة ندى، فتطرده.

خالتي دالية كانت تعشق ميّادة الحنّاوي أيضاً، تعشق طلّتها، وأغانيها، وشجنها المتجاوز، وبلّور بشرتها الذي يشفّ عن روح جاهزة لتتحوّل إلى ملاك. كانت تعتقد أنّها تشبهها، وكلّنا اعتقدنا معها بذلك، لها قصّة الشعر نفسها، وهي تغيّر ألوانه كما تفعل ميّادة، وتقلّد ماكياجها، وطلاء أظافرها، وحينما تطلق ميّادة كاسيتاً جديداً، يكون عندها في اليوم التالي لصدوره.

مساء اتصلت دالية بالهاتف، وقالت إنّها استطاعت الوصول عبر طرق خلفيّة من الجامعة إلى بيت صديقتها في حيّ السليمانيّة، وإنّ أهل الأخيرة سيعيدونها إلى البيت، حينما يصير التنقّل آمناً. كانت خالتي تتكلّم من البيت المقابل تماماً لبيت أهلها، بيت مدير السكك الحديديّة، إذ لم تكن في ذلك اليوم قد توجّهت إلى الجامعة أصلاً، لقد قضت الوقت مع باسل في غرفته.

* * *

بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً، تهدأ الحركة في الشارع الغربيّ، شارع محطّة القطار الرئيس، الذي انفتح منذ أواخر الثمانينيّات على جسر تشرين، فتغرق المنطقة في سكون محبّب،



إلى أن يصل قطار الساعة الثانية ليلاً، والقادم من دمشق، ثمّ يخيّم السكون حتّى السادسة صباحاً، حيث يصل القطار القادم من اللاّذقيّة، وبين منتصف اللّيل ووصول قطار دمشق، يكون باسل قد أحضر للحارس على بابهم، زجاجة عرق "أندرين جويّد"، وكيلو كباب مشويّ، وتكون دالية قد تأكّدت من خلود الجميع إلى النوم، فأغلقت الباب بهدوء، وتسلّلت عبر الدرج بخطوات قليلة إلى يمين البناية، تقطع الشارع، فتدخل البيت، وتتجه مباشرة إلى غرفة باسل، التي لها باب جانبيّ ينفتح على الحديقة، من دون الاضطرار إلى الدخول من الباب الرئيس. لقد أحبّ باسل دالية من كلّ قلبه. كلّما رآها، كان يقبّل يديها بشغف، ويتنهّد عميقاً! وكانت دالية جميلة جدّاً، شقراء بعينين عسليّتين، وجسد نحيل أبيض. دائماً كانت ترتدي بنطلون جينز straight cut، من Lee، بخصر عالٍ، وقميص "كاريه" أزرق وأبيض وأحمر، ضيّق عند الصدر، وكانت تربطه بعقدة أماميّة أو جانبيّة عند الخصر، فيبدي نهود ثدييها، ورقّة وسطها، فتبدو كأنّها خارجة من مسلسل "الفيرجينيّ". أظافرها طويلة ومقلّمة، ولذيذة بطلائها الأحمر اللاّمع الذي يتماوج وهي تقلّب المراجع والقواميس على طاولة مكتبها الصغيرة، وتتناول شطائر "الباتيه" التي تعشقها، والتي كان باسل يحضرها لها كلّ مساء من محل "سومر" أو "سيروب"، فأنزل أنا الدرجات العشرين بخفّة، أتناول منه الكيس، فتطعمني من شطائرها اللّذيذة، التي تحتفظ بها يوم



الجمعة حتّى منتصف اللّيل، لنأكلها ونحن نتابع مسلسل "سفينة الحبّ".

في ليلة من ليالي الصيف تلك، دعاها باسل إلى حفل مسائيّ في القلعة، كان عرض باليه كسّارة البندق، لفرقة مسرح البولشوي الروسيّ، وقد حصل باسل على بطاقات دعوة مجّانيّة، تأتي لأبيه، كما تأتي لغالبيّة المسؤولين الكبار في الدولة. قالت دالية لجدّتي إنّ زملاءها في الجامعة سيكونون هناك، وأقنعتها بالسماح لها بالذهاب، فوافقت بشرط أن تصطحبني معها كمرافقة، و لم يكن أمام دالية خيار سوى الموافقة.

صعدنا إلى مدرّج القلعة، في مساء من مساءات صيف تمّوز الحلبيّ، المرهف، بهوائه الرزين، وسمائه المضاءة بنجوم واثقة، وقمر يعلن وضوحَه، مثل كلّ شيء في حلب: حجارتها، وطرقاتها، وصناعتها، ومواقف أهلها، وتجارتها، فليس ثمّة الكثير من الأسرار.

على نأمات الخطوات الراقصة، والموسيقى العبقريّة لتشايكوفسكي، والنسمات الحانية، نمتُ، وتركت دالية بفستانها الحريريّ الأحمر في حضن باسل، يأبى أن يحرّر ذراعها العارية من ذراعه، يقبّل عنقها بين الفينة والأخرى، ويدسّ أنفه بين خصلات شعرها الأشقر، المغسول بشامبو هامول برائحة التفّاح الفوّاحة. أيقظني صوت جلبة، وانسحاب باسل ودالية من المكان، وهي تجرّني من يدي. كان معنا في الصفّ ذاته،



المخصّص لضيوف مدير السكك الحديديّة، امرأة ثلاثينيّة، وبنت في حوالي السادسة من عمرها. المرأة فاتنة في الحقيقة! طويلة وضخمة، بعينين زرقاوين وشعر أشقر، وتنحسر فتحة تنورها الحريريّة السوداء عن فخذين في بياض محمرّ، وفي أصابعها تبرق خواتم الألماس الحرّ. بنتها تشبهها، معتنى بنظافتها وهندامها بشكل فائق. في تلك السهرة، اكتشف باسل أنّ تلك المرأة هي زوجة أبيه، وأنّ البنت الصغيرة أخته! كان في جلسته، يداعب الطفلة، فسألها عن اسمها، فكانت لهما الكنية ذاتها، واسم الأب ذاته، وكذلك عمله. لقد تزوّج مدير السكك الحديديّة من غادة، إحدى الموظّفات في مكتب الإدارة الرئيس، وأخفيا الزواج عن الناس، لاسيّما أنّها سنيّة، وهو علويّ.

بعد تلك الحفلة، تغيّرت تفاصيل كثيرة في بيت مدير السكك الحديديّة، إذ بدأ باسل بابتزاز أبيه مقابل صمته أمام العائلة عن ذلك الزواج، كما تغيّرت تفاصيل أخرى في بيت جدّي: عادت خالتي رجاء من السعوديّة، والتي كانت قد تزوّجت بأحد أبناء خالتها "سميّة"، التي سمّيناها أمّ الإخوان. رجاء تحجّبت، وعادت لتبشّر في بيت جدّي بالإسلام، على طريقتها. في نهاية ذلك الصيف، صار الحجاب ثيمة مستجدّة في بيت جدّي، إذ تحجّبت جدّتي، وكذلك خالتي دالية التي أزجت الوقت كلّه في بكاء حار، ندماً على أيّامها التي قضتها سافرة، مستسلمة لذراعي باسل.



باسل أيضاً تحجّب هو الآخر بطريقته، بل بطريقة دالية التي صارت تلقي عليه العظات، وهو غارق في حالة نفسيّة بائسة، فانخرط في الصلاة، لا يبارح جامع "التوحيد" القريب.

* * *

تغرب شمس حلب كلّ مساء من السماء التي تقع وراء بيت مدير السكك الحديديّة في محطّة بغداد، مصبوغة بحمرة حارقة، ويعرف سائقو التاكسي مواعيد وصول كلّ قطار، فيتزاحمون وقتها على رصيف المحطّة، ثمّ يهجرونه وقت انطلاق العربات الملوّنة بالرماديّ والأحمر، والمطبوع على جانبها ثلاثة حروف (خ ح س)، اختصاراً للخطوط الحديديّة السوريّة.

ومع بداية العام الجديد، غادر باسل وأهله ذلك البيت، خرجوا بحقائبهم، ودخلوا باب المحطّة المجاور لما كان بيتهم، وركبوا القطار المتّجه إلى اللاّذقيّة، ولم يعودوا أبداً.

لم تودّع دالية باسل ولا بكلمة. كانت قبل مغادرتهم بليلة قد أغلقت كلّ النوافذ المطلّة على الشارع الغربيّ، فغطّ جناح غرف النوم في بيت جدّي في ظلام دامس.

قالت دالية إنّ باسل كان مجنوناً، وإنّه لا يعرف من الحياة سوى السيّارات والسائقين والمسدّسات، مثل كلّ أولاد المسؤولين. مرّة انتظرها، وهي تنزل من باص النقل الداخليّ، فسألها: لماذا يرتدي كلّ الركّاب ملابس خضراء!؟ أليس ذلك



عجيباً! في الواقع كان يلصق آنذاك على زجاج باصات النقل العامّة لاصقاً شفّافاً باللّون الأخضر. ومرّة قال لها إنّه يشتهي أن يقتحم بسيّارته طابور الناس الذين يقفون أمام المؤسّسة الاستهلاكيّة، بانتظار الزيت والسمنة ومحارم الكلينكس، فيراهم يتطايرون في الهواء، حيث تصير تنانير السيّدات مظلاّت مقلوبة، وتسقط على رؤوسهنّ أحذية الرجال! ومرّة قال لها إنّهم فقراء، لأنّ سائقهم فقير، وخادمتهم فقيرة، وحارسهم فقير، ولديهم مرسيدس واحدة، وباقي سيّاراتهم من ماركة بيجو، في حين أنّ الذين يعملون عند المحافظ كلّهم أغنياء، لذلك فهو غنيّ، وسيّاراته كلّها مرسيدس!

قالت دالية إنّ باسل بعد أن عرف بزواج أبيه ليلة القلعة، أخذها معه، ودخلا قاطرة أثناء استراحتها، وقرّر أن يخطفها، فهدّد سائق القاطرة بمسدّس تبيّن أنّه فارغ، إن لم يسمح له بقيادة القاطرة حتّى محطّة جبرين على بعد خمس عشرة كيلو متراً نحو الجنوب الشرقيّ. خضع السائق لتهديده، بينما كانت دالية تبكي وتتوسّل إليه ليتوقّف.

في المرّات التي صار فيها باسل يصلّي، ذهب إلى الجامع، مشكوكاً بوضوئه، وقف في الصفّ الثاني. كان أمامه رجل يرتدي دشداشة بيضاء، ولأنّه مازال جديداً على إيقاع الركوع والسجود، دخل رأسه أثناء القيام في ثوب الرجل الذي أمامه، ونطح به مؤخّرته، ففزع الرجل وصاح، ولم يستطع باسل



إخراج رأسه من الثوب، قال إنّه حاول أن يشدّه، لكنّ المكان أظلم فجأة وضاق نفَسه. اضطرب المصلّون، ولحقوا به وهو يهرب من الجامع، وضربوه.

* * *

كان ناصر ودوداً وقريباً، وتحاشى كلّ منّا، كيلا يبدو طفوليّاً، أن يقول للآخر "كأنّي أعرفك من زمان"، رغم أنّها العبارة الأنسب التي تعبّر عن اللّحظة. بلا أيّ تحفّظ، قال إنّه مرهق، وإنّه رغم حزنه في الأيّام الماضية القليلة، كان يستحضر كلامي وابتسامتي ولمسة يدي، فيصنع بذلك "غيمة تظلّله من قسوة الوقت"، تعبيره الأخير كان جميلاً!

قادنا الحديث إلى حلب. صار يحكي، وأنا أحاول البحث عن تعبير آخر أكثر بلاغة من قولنا: "الدنيا صغيرة". قال إنّ بيت جدّه، أهل السيّدة شهيرة، هو تلك الفيلا الأنيقة ذات الحجر الورديّ، التي تطلّ على الطرف الشمالي للحديقة العامّة في حيّ العزيزيّة، باتجاه محطّة بغداد، وجدّه هو المحامي بهجت الحفّار....

- ماذا، ماذا...؟! الفيلاّ أمام "كان يا ما كان" بيّاع الكوكتيل! شعرت بدوار خفيف ومبهج، أعقبه وقت للصمت.

لو تعرف يا ناصر: أستطيع أن أخبرك بعدد قضبان إفريز الحديقة الصغيرة، بلون كراسي الشرفة، بأنواع النباتات في



الأصص الموزّعة على حوافّها العريضة... أخبرك عن شجرة الكينا أمام الباب الصغير على الشارع الخلفيّ، ذي الاتجاه الممنوع، الباب الذي كنت ألعب مع أولاد خالاتي أمامه.

ربّما تكون أمّك هي تلك السيّدة التي تضع على رأسها دائماً لفّافات الشعر الشوكيّة، وأحمر شفاه فاقع اللّون، وتخرج إلى الشرفة مرتدية الروب دي شامبر، لتطلب منّا أن نبتعد، أو أن نخفض أصواتنا قليلاً! أنا التي كنت أجلس على حافّة سور الفيلاّ، مسندة ظهري إلى قضبان الحديد، وقدماي مرتاحتان على نتوء كبير في جذع شجرة الكينا.

كان ناصر يقول، وأنا أعطيه المزيد من الأدلّة على أنّنا نتكلّم على المكان ذاته، ونضحك، نضحك غير مصدّقَين الصدفة التي ألّفت بيننا.

- هل تعرف بيت الكيّالي، إنّهم جيرانكم.
- تقصدين السيّدة رئيفة؟ إيه، إيه!
- رئيفة، هي نانا أم بشّار، أخت جدّتي. أمّا بيت جدّي فهو في العمارة الكبيرة في صدر الحارة، والتي تواجه الحديقة تماماً، عمارة جوزيف نصّور.
- لا، لا، لا أصدّق، تحتكم عبدو العجلاتي...
- تعرف عبدو أيضاً! مو معقول!
- كنّا ننفخ عنده إطارات درّاجاتنا قبل الخروج بها للتريّض في الحديقة.



- ماذا حلّ بها؟
- من؟
- السيّدة رئيفة!
- ماتت. أصيبت آخر أيّامها بجلطة دماغيّة، ثمّ ماتت.
- لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه! وابنها بشّار، ألم يكن يسكن وزوجته معها؟
- صحيح، تركوا البيت، وسكنوا في حلب الجديدة، بيتهم كان مستأجراً على القانون القديم.
- وبيتكم، بيت جدّك أقصد؟
- بيت جدّتي تمليك، وما تزال تعيش فيه. الحارة آمنة في هذه الظروف، لذا خالتي وعائلتها انتقلوا للإقامة معها الآن، فبيتهم في "الموكامبو"، منطقة ساخنة.

كانت السيّدة رئيفة كما يسمّيها ناصر، أو نانا أم بشّار، كما اعتدنا تسميتها، جارة قديمة لبيت الحفّار، وقد جاءت عروساً، حينما كانت مديحة خانم، جدّة ناصر، تسكن الفيلاّ. أنا أتذكّرها تماماً، كانت تداوم على شرب قهوة الصباح عند جدّتي، أختها. وأنا أحرص على الاستيقاظ باكراً أيّام الصيف التي نقضيها في بيت جدّي في حلب، كيلا أفوّت حديثها الحلو. كانت في أواخر الخمسينيّات، وكنت في العاشرة من عمري. تخرج من بيتها مرتدية "مانطو" صيفيّاً، يستر قامتها القصيرة، وكتفيها الضيّقين، ومؤخّرتها العظيمة، وتحته ما يزال روب النوم



"الفاليزير" السماوي أو الزهريّ عالقاً بجسدها، بياقة من الدانتيل تكشف عن ثديين صغيرين أعجفين، نالت منهما بنات خمس، وصبيّان.

ترشف قهوتها المسكوبة في فناجين جدّتي الصيني بنقشة روميو وجولييت، بكثير من المتعة، وتخبّرنا بما لم يخبّرنا به خالي عن الأحداث الدائرة في حماة، بين السلطة والإخوان، تقول:

جاؤوا لتفتيش بيت البيرقدار. صاحب البيت أخفى مسدّسه في المدفأة التي ما تزال منصوبة من أيّام الشتاء. دخل الضابط وعناصره، فقلبوا البيت فوقانيّ تحتانيّ، سألوه إن كان لديه سلاح، فأجاب بالنفي، لكنّ طفله الصغير ذا السنوات الأربع، والذي رأى أباه وهو يخفي السلاح، قال للضابط: عمّو، يوجد مسدّس هنا! مشيراً إلى المدفأة. اعتقل الأب فوراً، وسيغيب إلى الأبد. وتختم نانا أمّ بشّار كلامها، بتمتمة وتأوّه، لتقول: إيه، الله يفرجها على العباد! وبعد أن تفرغ جعبة حكاياها اليوميّة، تخرج من عند جدّتي إلى عند السيّدة شهيرة، أمّ ناصر، التي تكون في ذلك الوقت قد استيقظت، ووضعت قهوتها على النار، بانتظار رئيفة خانم.

كان لها ولدان: بشّار وفاتح. كان بشّار طبيباً عامّاً، بلا اختصاص، ونظراً لكونه بعثيّاً عتيداً، فقد تمّ تعيينه الطبيب المسؤول عن صحّة المطاعم في حلب، وهذا المركز مرموق جدّاً، ذلك أنّ حلب مدينة المطابخ التي تجمع الذوق التركيّ المتوسّطيّ



إلى العربيّ، لذا كان للدكتور بشّار عمل كثير، وسطوة، فهو المسؤول عن التراخيص، ومخالفات مواصفات النظافة والصحّة، والذي يطلب الجميع رضاه، بدءاً من بائع السوس والسحلب الجوّالين، مروراً بمحلاّت السندويش، وانتهاء بأفخم الفنادق. لذلك كانت نانا أم بشّار تقريباً لا تطبخ، إذ تأتي وجباتها كلّها من المطاعم بشكل دوريّ. تتوقّف أمام بيتها وسائل مواصلات مختلفة: درّاجات هوائيّة يحمل سائقوها صواني مغلّفة بالسولوفان، ودرّاجات ناريّة، تحمل في مؤخّرتها أطباقاً تختفي داخل أكياس ورقيّة، منضّدة بعضها فوق بعضها الآخر، وسيّارات تابعة لمطاعم معيّنة، ينزل منها طعام وشراب مختلف ألوانه. دائماً غداؤها مشاوي وكبّة نيّة، وعلى العشاء تجد عندها سندويش السجق والشاورما، أمّا فطورها فمامونيّة، وشعيبيّات بالقشطة والفستق، عدا عن التحليات، من هيطليّة وبوظة بالفواكه، ومهلبيّة بالمكسّرات، ولها غالباً طاولة محجوزة لسهرات نادي حلب، أو نادي الجلاء، أو سيروبيان، وطالما نال أقاربها أو ضيوفها تلك الحظوة.

أمّا فاتح، ابنها الثاني، فقد غادر بيتها صغيراً، لأنّه يرفض أكل الحرام الذي يأتي به أخوه من طعام ومال ونفوذ. قال لأمّه: "وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما...". لقد تأثّر فاتح منذ يفاعته بأبناء خالته "سميّة"، الذين احتلّوا مكانة رفيعة في تنظيم الإخوان المسلمين، وهم الذين



فتحوا عينيه على الموبقات التي يقترفها أخـوه، وظلّـوا وراءه بألسنتهم الذلقة، وسياساهم الحاذقة في الترغيب والترهيب، حتّى انضمّ إليهم، وصار فيما بعد عنصراً فاعلاً في جماعتهم.

انقطع فاتح عن دار أمّه وقتاً طويلاً، ولم تره إلى العام الذي سبق الأحداث العنيفة التي عصفت بحلب في العام 1980. كـان عليه في ذلك المساء الذي منع فيه التجوّل، وقد فتح حزيران بيده أبواب جهنّم، أن ينقل عشرة رشّاشات آليّه، وعشـر رمّانـات يدويّة موضوعة في صندوق خشبيّ معزول، من بيت أحد أعمدة التنظيم في حيّ "الهُلّك"، لمسافة خمسة وعشرين كيلو متر جنوباً، فعاد إلى البيت، أخذ مفتاح سيّارة اللاّندروفر المخصّصة للدكتور بشّار، والتي تحمل لوحة خضراء، تشير إلى ملكيّتها للدولة، ممّـا يعني أنّها لا تخضع للتفتيش، وضع فيها الصندوق، وأتمّ مهمّتـه بأمان. بعد ساعات كان قد تمّ اقتحام مدرسة المدفعيّة في حلب، وقتل حوالي مئة منتسب من الضبّاط العلويّين. بعدها غادر فاتح إلى تركيّا، ودرس الكيمياء في جامعة إسطنبول، وحصل علـى الدكتوراه في علومها، وكان قد تزوّج بابنة خالته (سميّة)، وصار صهراً لأولئك الذين دفعوا به إلى التنظيم، ثمّ غادر وعائلتـه إلى السعوديّة، وهناك اكتشف سرّ التحنيط، كان يعمل على ذلـك منذ زمن طويل. كان قد حضّر خلطة كيميائيّة خاصّة، وحملـها إلى بيته كيلا يسرقها أحد من مختبر الجامعة حيث يعمل. صبّها في علبة سائل تنظيف البلاط، وتركها قليلاً على طاولة المطـبخ، في



تلك الأثناء كانت الخادمة تنظّف الأرض، فصبّت كميّة من السائل الذي ظنّته للتنظيف في سطل المسح، وفجأة تيبّست يدها. وقبل أن يذيع صيته المتعلّق بهذا الإنجاز، كان الشيخ عمّار، الجسر الذي يعبره المبعدون، والمهمومون، والمحكومون بأحكام صعبة قد تصل حدّ الإعدام، قد سوّى أمره مع السلطات، لتعفو عنه، وتستفيد من عبقريّته في خدمة الوطن، بعد أن دفع المبلغ الذي يتّسق مع وزن همته.

كان لفاتح ولدان، التقيت بهما بعد سنوات في بيت جدّي، بعد أن صار من المسموح دخول العائلة وخروجها إلى البلاد. جاء الولدان ليدرسا في جامعة حلب، بعد أن نالا شهادة البكالوريا السعوديّة، شكلهما غريب، شعرهما طويل وغير مهذّب، وجهاهما طافحان بحبوب الشباب التي التهب الكثير منها، وتركت بلا علاج، يرتديان بنطلونات جينز، يصل خصرها إلى المعدة، وترتفع أطرافها إلى ما فوق الكعبين، كي تبقى طاهرة للصلاة، على حدّ قول جدّتي. كان حضورهما بعيداً عن حياة الناس في الشارع في تلك المرحلة. جدّتي كان تصرّ على دعوهما في المناسبات لتناول الطعام، في رمضان، وفي العيد، فهما في النهاية حفيدا أختها، وغريبان أيضاً. حينما يحضران إلى دارها، كنت أختبئ في إحدى الغرف، أو أغادر المنزل، لأنّهما، كما تقول، لا يحبّان رؤية غير المحجّبات، ولا يجالسان النساء، وكان ذلك من دواعي سروري.



في كانون الأوّل من العام 2009، بثّت قناة الـ CNN شريطاً مصوّراً يظهر معسكراً لتدريب عناصر للقاعدة في اليمن، الكاميرا التي دارت كان من الواضح أنّها أعطيت أمر التبعيد (زووم آوت)، بحيث لم أتمكّن من رؤية الحفر التي تركها حبّ الشباب على وجه ذلك الذي يقف في مكان من الصحراء، خلف صخرة يصيح من ورائها بأمر إطلاق النار من الكلاشنكوفات، إنّه الولد الأصغر لفاتح، كان هو فعلاً، لا يمكن أن أخطأه، فقد كان المتمّم لما نقصني من عقد تجاه العالم، فكلّما تعثّرت به بالصدفة في الطريق أو في الجامعة، أو حتّى عند أحد أقارب جدّتي، يرمقني بنظرات اتهام قاسية، تجعلني مضطرّة دائماً لإثبات حسن نيّتي تجاه الله، والدين، والعائلة، والأنوثة....

ماتت نانا أمّ بشّار، ولا نعرف هي مع من، أو ضدّ من، مع فاتح، أم مع بشّار؟! كانت تبكي بسبب الاثنين، وتدعو للاثنين، وتطلب لهما السداد والتوفيق، والنصر على الأعداء. في سنوات دراستي الجامعيّة التي قضيتها عند جدّتي في حلب، كانت تجد على مكتبي كتباً كثيرة من المراجع الضخمة، فتسألني عمّا بها، فأنبري لأقرأ لها صفحة من الإمتاع والمؤانسة، بما فيها من عبارات جنسيّة وكلمات محظورة، فتصاب بحالة ذهول، ثمّ تضحك ملء قلبها، وتصيح:

- يي يي، ورجيني ورجيني، هل هذا مكتوب فعلاً؟! هل هذا ما تدرسونه؟ هذا أدب أم قلّة أدب!



ثمّ تأتي في كلّ مرّة لتسألني أن أفتح لها الصفحة التاسعة والخمسين من طبعة المجمع العلميّ بدمشق، من كتاب "قطب السرور في أوصاف الخمور"، لتقرأ فيها المكتوب، بأمّ عينها، وتنتشي باكتشافاتها الجديدة. تأتي أحياناً وهي تحمل همّ العالم في صدرها، لفراق ولديها بشّار الذي دخل السجن في قضيّة فساد ماليّ، وفاتح الذي غاب مرّة ثانية في السعوديّة، وتقول سمعيني موّالاً عراقيّاً، أفتح آلة التسجيل ليصدح ناظم الغزالي بروميّة أبي فراس الحمدانيّ:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة... أيا جارتا لوتشعرين بحالي...

فتميل برأسها، وتترنّح، وتجهش بالبكاء، ويهتزّ جسدها كلّه.

قبل وفاتها بأيّام، استيقظت جدّتي من نومها غاضبة، لا تكلّم أحداً، ولم تحمل لي فنجان القهوة إلى السرير كما تفعل كلّ صباح. سألتها عمّا بها، فلم تردّ، ألححت بالسؤال، فبكت وقالت إنّها حلمت بجدّي الذي كان قد توفّي قبل ذلك بعشر سنوات، قد تركها وتزوّج بأختها أمّ بشّار، وأنّها مغتاظة جدّاً، وتشعر بغيرة شديدة. وحينما جاءت نانا أم بشّار لشرب القهوة، كانت جدّتي ما تخلّصت بعد من غضبتها، وشرر الغيظ يتطاير من عينيها. في الليلة ذاتها، أصيبت نانا أم بشّار بجلطة دماغيّة، وماتت بعدها بأيّام. بكت جدّتي كثيراً، وكذلك فعلت أنا، وقالت لي: الحمد لله أنّ جدّك كان قد تزوّج بها، وأخذها معه، وتركني.





حينما تركت حلب، كانت نجوان قد أنجبت ولدها الثالث، بعد زواجها بمهندس صناعات غذائيّة، لـــه شـــراكة في معمـــل كونسروة يقع على طريق "كفر حمرة"، المؤدّي إلى مدينة اعزاز على الحدود مع تركيّا. في الشهر الأوّل مـــن 2012، وبعـــد أن اشتدّت وطأة هجوم الجماعات المسلّحة علـــى ريـــف حلـــب الشمالي، تمّ السطو على معمل زوجها، وتفكيكـــه، ونقلـــه إلى تركيّا، ليباع هناك خردة، أو ليتمّ تركيبه من قبل ما بات يطلـــق عليه قراصنة المعامل، الذين فككوا العشرات منها، ونقلوهـــا إلى ديار العثمانيّين. بعض وسائل الإعلام تشيع أنّ رجـــال أعمـــال حلبيّين قاموا بمشاركة تلك الجماعات، طالبين منـــها تفكيـــك معاملهم، لإعادة افتتاحها هناك، لكنّ زوج نجوان لم يكن منهم. حتّى العام 2014 كان قد فقد مدّخراته كلّها، وبدأ يبيع علـــى عربة أمام البيت، الحمّص والفول النابت، الذي كانت نجـــوان تعدّه له في مطبخهم. كنت دائماً على حذر من معرفة موقـــف نجوان السياسيّ تجاه ما يحدث، فمواقفها دائماً غـــير متوقّعـــة. ترافقنا منذ سنتنا الجامعيّة الأولى، كانت قد قدمت قبلها بـــأربع سنوات من الإمارات، ودرست مرحلتها الثانويّة في حلـــب، ثمّ التحقت بالجامعة. هي ابنة عائلة تعود بأصولها إلى الريـــف. في أحداث الثمانينيّات، أي حينما كانت في السابعة من عمرهـــا، اعتقل أبوها بتهمة الانتماء إلى الجماعة المحظورة. ما تزال تتذكّر مشهد اقتحام مدنيّين لبيتهم بالمسدّسات. اقتادوه عند الفجر، بلا



مقاومة، أمام زوجته وأمّه وأبيه، وإخوهما جميعاً. ولم يعرف أحد عنه شيئاً بعد ذلك. خمس سنوات مرّت، وسّطوا فيها كلّ من يعرفونه ومن لا يعرفونه للتدخّل، دفعوا مالاً كثيراً، وأعطت النساء الذهب الذي تملكه، ليتأكّدوا إذا ما كان حيّاً أو ميّتاً فحسب. وجاءهم خبر بأنه قد تمّت تصفيته، أخبرهم بذلك سجين كان قد التقاه في سجن تدمر. بعدها تزوّجت أمّ نجوان بعمّها الأعزب، الذي كان يعيش معهم في بيتهم في منطقة بستان القصر، كي لا تتشتّت أسرة أخيه بأطفالها الثلاثة، والزوجة الصبيّة الجميلة، التي لم تبلغ الثلاثين من العمر.

في مساء من مساءات أيلول من العام 1995، طرق باب البيت على الأسرة التي كانت قد فقدت الجدّة والجدّة، وإذ بالمعتقل يعود من السجن بعد خمس عشرة سنة، يبحث في بيت أبيه عن زوجته وأولاده. كانت أيّاماً قاسية، توزّعت فيها مشاعر كلّ منهم، بألم وحشيّ لا قبل للبشر به، بما فيهم الطفلان اللّذان أنجبتهما أمّ نجوان من عمّها. اختار الجميع البقاء مع العمّ، وسافروا إلى الإمارات، تاركين أباهم وحيداً في البيت الذي تحوّل إلى مدرسة لتحفيظ القرآن. استطاعت نجوان تخطّي الحواجز التي انتصبت في وجهها ببسالة، كانت طيّبة ومجتهدة ومحبّة للبحث، وتابعت دراستها حتّى نالت الماجستير، ولم يقف حجابها عائقاً في وجه اختلاطها بزملاء الجامعة، وأساتذتها، ورحلاتها وحفلاتها، مثلما لم يقف ماضيها في وجه حاضرها. قالت لي مرّة: حين



عجزتُ عن ترتيب ذاكرتي، تركتها، مثلما نيأس من ترتيب غرفة قذرة، تعمّها الفوضى، والكركبة، وحقائب السفر، فلا نعرف من أين نبدأ، فنخرج منها، نغلق الباب وراءنا بقوّة، ونمضي!

* * *

أعادني ناصر إلى مناطق محبّبة في ذاكرتي، كنت قد هجرتها، ولم أظنّ أنّني سأستعملها يوماً. أعادني إلى وقت كنت أتعجّل فيه المستقبل، وحينما وصلت إليه، عدت إلى الماضي، وناصر هو المحرّك.

كان في ذلك البيت، بيت الحفّار، شباب وسيمون، بشورتات بيضاء، وقمصان ملوّنة، ولا بدّ من أنّه كان واحداً منهم. كنت أحبّ بيتهم، أحبّ أضواءه الصفراء المنبعثة من ثريّات الكريستال المدلاّة من السقوف العالية. أحبّ الصور العتيقة المصفوفة بعناية على الجدار المكشوف على الشارع، وأكثر ما أحبّ شجرة الكينا الكبيرة، بأغصانها المتسلّقة نحو نوافذ الطابق الثاني، لتخفي أهل البيت عن عيون الفضوليّين، والتي كنت أتفيّأ ظلّها الظليل في نهارات تمّوز القائظة، قافلة من مشوار طويل من سوق العزيزيّة أو التلل، فأتناول كأس تمر هندي من عند "كان يا ما كان"، وأقف تحتها أستمتع بطعمه الحامض المحلوّ.

كبرت السيّدة شهيرة في دمشق، وتخرّجت في كلّية الآداب، قسم اللّغة العربيّة، وتزوّجت بالسيّد أدهم العامري، ابن صديق



والدها، والذي كان اقتصاديّاً هامّاً في فلسطين في سنوات الانتداب. جاؤوا من حيفا إلى عمّان، وكان من الذين ساهموا في تأسيس البنك العربيّ، ورسموا سياساته الاقتصاديّة، وقد تابع أدهم، والد ناصر، عمل والده في مجموعة البنك، بعد أن تخرّج من البوليتكنيك في باريس. توفّي في الخمسينيّات من عمره، إثر أزمة قلبيّة، وبعد وفاته صارت شهيرة تتردّد كثيراً على حلب، بعد أن اشترت حصّة إخوتها في فيلاّ أبيها، وكان ناصر يرافقها في إجازاته المدرسيّة في الكليّة العلميّة الإسلاميّة في عمّان.

كانت آخر مرّة زار ناصر فيها حلب قبل أحداث 1982 العنيفة، التي اندلعت بين سلطة البعث وتيّار الإخوان المسلمين، الذي كان يجد حلب حاضنته الكبرى، باعتبارها معقل السنّة. بعدها سافر ناصر إلى أميركا، ولحقت به أمّه هناك، وعادت بعد زواجه لتقضي بقيّة حياتها في عمّان.

امتدّ حديثنا لساعات، أحيينا فيها روح الماضي، ورائحة الياسمين، والعسليّة، والزيزفون، والرطوبة العابقة ببخار مطابخ بيوت محطّة بغداد العتيقة. إنّ ذاكرة مشتركة، لا تعني بالضرورة مشاعر مشتركة، لكنّ ناصر يشاركني ممتلكات في غاية الأهمّيّة، يشاركني في حلب، ذاكرتي الثانية، ونصف هويّتي.



قصر البنات




مكتبة
الفكر الجديد

في صباح 28 آب من العام 1963، تدفّقت جموع غفيرة نحو متنزّه ناشيونال مول في العاصمة واشنطن، وتجمّعت أمام نصب لنكولن التذكاريّ. لقد جاء مناصرو الحقوق المدنيّة في أميركا، ليستمعوا إلى ذلك الشاب الوسيم، الأسود، والذي تشعّ من عينيه مكابدات الأنبياء. كان مارتن لوثر كينغ، ببدلته السموكينغ، وقميصه ناصع البياض، يلقي خطاباً على مسامع مئتين وخمسين ألف شخص، من الرجال والنساء والأطفال، ليغيّر ببلاغة ساحرة تاريخ أعظم دولة في العالم الحديث:

I have a dream

لديّ حلم...

في يوم ما أنّ هذه الأمّة ستنهض،

لتعيش المعنى الحقيقيّ لعقيدتها.

نحن نعدّ هذه الحقائق بدهيّة،

أنّ كلّ الناس خلقوا سواسية.

في ذلك الصباح المشرق، وعلى المنصّة الرخاميّة، التي صارت منبراً للحريّة، كانت ثلاثة مايكرفونات كافية لإسماع العالم بأسره، ولعشرات السنوات، صوت الشجاعة في عناقها للطوباويّة، والذي رددته في ذلك المكان، أشجار الجميز والكرز،



ورآه العالم في دموع الرجال والنساء، المترقرقة في مياه البحيرة مقابل قبّة الكونغرس:

I have a dream

لديّ حلم...

في يوم ما، على تلال جورجيا الحمراء

أبناء العبيد السابقين، وأبناء المستعبدين السابقين

سيكونون قادرين على الجلوس معاً على مائدة الأخوّة.

كان يقف بين هذه الجماهير المحتشدة، شاب عربيّ سوريّ، أسمر، بشعر أسود، وعينين سوداوين واسعتين، ممتلئتين بالحياة، وبجسد رياضيّ مشرئب، وبكثير من الزهو كان يستمع إلى الخطاب، مدركاً أنّه يعيش لحظة تاريخيّة فاصلة. لقد كان سهيل بدران، الذي سيصير أبي، طالباً في جامعة بوسطن، الجامعة ذاتها التي درس فيها مارتن لوثر كينغ. كان قد بدأ للتوّ يعدّ العدّة لدخول كليّة الهندسة المعماريّة، بعد أن أنهى سنته التحضيريّة بتفوّق.

I have a dream

لديّ حلم...

في يوم ما، كلّ وادٍ سيصبح مرتفعاً

كلّ تلّ وجبل سينخفض

كلّ الأماكن الوعرة ستنبسط

والأماكن الملتوية ستستقيم



ومجد الله سيظهر

وسيراه جميع البشر معاً.

كان جدّي لوالدي إقطاعيّاً كبيراً في منطقة وادي الفرات، امتلك أراضيَ شاسعة، عمل فيها عشرات الفلاّحين، وعاشوا حولها مع أسرهم. وسّع جدّي أعماله من بيع المحاصيل الوفيرة، نحو تجارة المستلزمات الزراعيّة، من حبوب وأدوات وآليّات، وازدهر ملك الله بين يديه. الإقطاعيّ الذي كانه جدّي لا يمتّ بصلة إلى دوقات روسيا القيصريّة أو إلى مالكي العبيد في الجنوب الأميركيّ، ولا يشبه حتّى إقطاعيّي حلب أو اللاذقيّة، الذين كانوا يضربون فلاّحيهم بالسياط، ويشغّلونهم بلقمتهم ومأواهم، ويفضّون بكارات بناتهم، ويديّنونهم بالربا، أو يغرّمونهم ذلك الدين، بما يمكن أن يمتلكوا من أراضيهم.

الحاج علي بدران إقطاعيّ بعرف المنطقة، لا وفاقاً لكتب النظريّة الاشتراكيّة. لم يرث الأرض عن آبائه الذين كانوا معلّمين وقضاة عشائر. كان مترجماً عن الفارسيّة والتركيّة في قيود الدولة العثمانيّة، واستطاع بذلك أن يدّخر المال الذي اشترى به، على عادة الناس، قطعاً من الأراضي على جانبي الفرات، والتي كانت مبذولة لشساعتها، ولقلّة الناس، وقصر وعيهم عن تملّك ما يفيض عن حاجتهم.

أمّا ثراء العائلة فجاء من طرف جدّتي، التي ورثت أراضي أبيها وليراته الذهبيّة، وحثّت زوجها على التملّك، وكان هو ذا



عقليّة مغامرة، لا سيّما أنّ مغامراته الأولى كانت بمالها هي، وكانت ناجحة في معظمها.

خاض الحاج عليّ بين عامي 1915 و1965 خضمّ مستجدّات كثيرة، فقد بنى أوّل طاحونة حبوب في المنطقة، وذلك لسدّ حاجة الناس من الدقيق والجريش، ثمّ حوّلها إلى طاحونة آليّة. ولمّا كثر الناس، وزادت رغبتهم في الاستقرار في الرقّة وما حولها، بنى مفخرة، أي فرناً لشواء الفخّار، الذي يتحوّل إلى طوب للبناء.

كان العالم في ذلك الوقت يتمخّض عن خرائط سياسيّة جديدة، شملت حربين عالميّتين، وكانت سورية في عين العاصفة، التي أسفرت عن تجمّعٍ لمن قاوموا العثمانيّين وطالبوا بالاستقلال، وبعدها قارعوا الاستعمار الفرنسيّ. أغلب أولئك المنخرطين في سلك السياسة كانوا من العائلات الإقطاعيّة، وقد استلموا الحكم الذي عُرف بحكم الطبقة الأرستقراطيّة، فظلّ بسبب طبقيّته يشكّل مأخذاً على تاريخ النضال في سوريّة، ومنهم الحاج علي بدران الذي كان ممثّلاً للكتلة الوطنيّة في منطقة الرقّة وما حولها. قبل ذلك المخاض السياسيّ العنيف، كان رحم جدّتي قد تمخّض عن عمّي يوسف في العام 1920، والذي ولد بعد معركة ميسلون، التي استشهد فيها يوسف العظمة، وزير الحربيّة السوريّة في حكومة فيصل الأوّل، فسمّي باسمه، وكان له منه نصيب، فقد صار بعد ما يزيد على أربعين سنة، وزيراً في حكومة الانفصال، التي أعقبت حكومة الوحدة بين سورية ومصر.



بعد عمّي يوسف، لم تنجب جدّتي سوى عمّتي ليلى، فتزوّج جدّي بامرأتين، وأنجبتا منه خمسة ذكور وأربعة إناث، وحرّمته جدّتي على نفسها.

في العام 1936 دكّت المدافع الفرنسيّة الرقّة بحنق ليس له مثيل، فانتقلت العائلة لتقضي أيّاماً عشرة في ملجأ، هو في الأصل مستودع للسمن والزيت والفواكه المجفّفة على طريق دير الزور، وهناك وقع جدّي على جدّتي، بعد أكثر من عشر سنوات من القطيعة، فحملت بأبي.

تخرّج عمّي يوسف في معهد الطبّ في دمشق، مع نهاية الحرب العالميّة الثانية، وعمل بقيّة أعمامي غير الأشقّاء في أراضي أبيهم الممتدّة. كانت جدّتي تجلس في غرفتها المطلّة على حديقتها الزاهية بشجر الرمّان والسفرجل. أمامها دِلال القهوة المرّة في منقل نحاسيّ، تدير بيدها الموشومة بسنابل زرقاء، إبرة راديو كيمبردج الإنكليزيّ في علبته الخشبيّة، في انتظار سماع نشرة الأخبار، التي سيعلن فيها أنّ بكرها الدكتور يوسف بدران، وزير الصحّة، قد تمكّن من إيصال أوّل دفعة من لقاح شلل الأطفال إلى سوريّة، وأنّ حصّة المنطقة الشرقيّة، ستكفي لتلقيح عشرة آلاف طفل. كان ذلك هو اللّقاح الذي أعلنه العالم الأميركيّ جوناس سالك، وقدّمه للعالم في العام 1955، مؤلّفاً من جرعة من فيروس شلل الأطفال غير النشط، يتمّ إعطاؤها عن طريق الحقن العضليّ. في تلك النشرة، سمعت جدّتي المذيع المصريّ "حسن أبو



العلا" من القسم العربيّ في هيئة الإذاعة البريطانيّة يقول: إنّ أميركا ستكون سيّدة العالم، وستكون أوربة جارية تسعى عند قدميها. وقتها أصرّت جدّتي على ان يدرس سهيل في أميركا، أميركا فحسب.

سافر سهيل بدران، بابا، إلى بوسطن بقدمي فيل، وجناحي نسر، وقلب عصفور! إذ كان له إرث ممتدّ وعتيد، وحمل رغبة عارمة في النجاح والإنجاز، وعواطف عنيفة وحارقة. ماما التي قرأت مذكّراته خلسة، قالت: إنّه بلدوزر من الحبّ والرغبة، وإنّه كلّما صادف حسناء كان يقول: لقد عثرت على حبيبتي!

أنهى دراسته حاصلاً على شهادتي ماجستير، إحداهما في ترميم المدن الأثريّة من جامعة بوسطن، والثانية في التخطيط العمرانيّ من جامعة كاليفورنيا. عمل بعد ذلك في مشاريع وادي تنسي في الجنوب، وشاهد أميركا تدخل لحظة بلحظة عالم الجبروت، بإنشاء حوالي ثلاثين سدًّا، غيّرت وجه المكان، مولّدة أعظم طاقة كهرومائيّة في العالم تقدّر بستين مليار كيلو واط سنويّاً. التحوّل الأكبر الذي استقطب اهتمام المهندس سهيل بدران تمثّل بالمشاريع التنمويّة اللاّحقة، التي أنشئت لخدمة المشروع الرئيس، فأسفرت عن حياة جديدة في أماكن كانت تعاني التهميش، وصارت مستقرًّا لبشر لهم مساكن ومدارس ومشافٍ وحدائق وأندية ومنتجعات سياحيّة ومراكز ثقافيّة، ممّا شجّع رؤوس الأموال المغامرة على التنافس من أجل النماء. لقد



اختبر المهندس سهيل أحلام شباب في العشرين، وهم يتحدّون إمكانيّات المستحيل، فقرّر في لحظة إشراق وجوديّ، كما يسمّيها دائماً، أو في لحظة خذلان تاريخيّ، كما تصرّ أختي سلمى على تسميتها، أن يعود من هذا العالم المتعاظم وراء البحار، إلى الرقّة، مدينته البدائيّة، التائهة بين البادية والريف، والتي تحمل إمكانيّات القيامة كلّها. بابا يقول إنّ الأسرار تقبع دائماً في الأشياء المتناهية في الصغر، والتي تولد منها الأشياء الكبيرة، وإنّ الشكل المكتمل كالدائرة، هو شكل ميّت، ليس فيه مكان لسرّ محتمل!

كان وقتها قد قرأ مذكّرات "والدو إمرسن"، ذلك الذي بخياله الجامح، وبرؤياه المتنسّكة، كتب المدوّنة الروحيّة للحلم الأميركيّ. كان إمرسن قد ذهب في القرن التاسع عشر إلى أوربا، ليعيش مجد العالم القديم، لكنّه وجدها تحتضر، بعد اكتمالها فكراً وعلماً وفلسفة، وقرّر أنّ القدرة كامنة في اللّحظة الصفريّة التي تعيشها بلاده "أميركا"، فعاد إليها مسرعاً، ومبشّراً بالعالم الحرّ. وكذلك كانت أميركا بالنسبة لسهيل بدران، عالماً وجد مساره نحو النهاية، في حين أنّ اللحظة الصفريّة التي تعيشها بلاده سورية، هي الحلم الذي عليه أن يؤمن به ليكون، وستكون الرقّة ووادي الفرات، مدن الآفاق الجديدة، كما كانت مدن وادي تنسي. كانت سورية تنبني في ذلك الوقت في نطاق حركة ترويكا السبعينيّات، وعلى المواقف السياسيّة والأهواء التي قامت



على محاربة العائلات الإقطاعيّة، والتي ينعتها "البعث" بالرجعيّة، ومنها عائلة بدران، ألاّ تكون عائقاً أمام البناء، كما يجب أن تُضاء الهوامش بقناديل المحبّة.

* * *

انخرط المهندس سهيل في العمل في مشاريع الفراتين الأوسط والأدنى، حيث كان يتمّ في بلدة الطبقة على بعد أربعين كم غرباً، بناء سدّ الفرات، الحلم الذي سيضيء أبعد قرية في سورية بنور الكهرباء، وما سيتبعه من تنمية، وستكون المدارس والمشافي والحدائق، ودور سينما في الهواء الطلق، ونواد رياضيّة، وستستصلح آلاف الهكتارات الميّتة في أراضي الجزيرة السوريّة. كان سهيل يقفز فوق العوائق والبيروقراطيّات والمحسوبيّات، والإدارات التي كانت تعيّن في دمشق العاصمة، وتعمل غالباً عن بعد، بولاية مسؤولين من البعثيّين، بعيدين عن طبيعة الناس والمكان، ويتحكّمون فيه بملايين الدولارات. والأهمّ من ذلك كلّه أنّ المهندس سهيل، كان يحفظ تلك الأراضي، بالشبر، عن ظهر قلب، يعرف تربتها وماءها، مثلما يعرف فرحها وغضبها، فكثير منها كان ممّا سلبته الثورة من مال جدّي ببدعة "التأميم".

كان التأميم أشبه بطلقة قاتلة أصابت معظم الملاّكين، الذين تمّ تفكيك إقطاعيّاتهم، ومنحها للدولة التي ستوزّعها على الفلاّحين تحت الشعار الذي تغنينا به طويلاً في المدرسة: "الأرض



لمن يحرثها"، وأمّا في البيت فكانت عمّتي ليلى تصبّ جام شتائمها على الذي وضعه، فقلبَ حياتها، أخذ مال أبيها، وساواها ببضعة فلاّحين كانوا يحملون السمن والعسل لفطورها، ويحرقون الناموس المحوّم في السماء، قبل أن يوقظها من غفوتها على سرير النحاس المنصوب على شرفة البيت الصيفيّ وسط الحقول المطلّة على الفرات.

في العام 1963 مات جدّي بالتأميم، أصيب بنوبة قلبيّة، حينما رأى أحلامه وأفكاره وعرقه صار ملكاً للآخرين، بشرعيّة كلمات كان قد قالها قبل ذلك جمال عبد الناصر، الذي أراد أن يكون فارساً على ظهور بضعة مئات من أصحاب الأملاك، وحذا نظام الثورة في سورية حذوه: أن نأخذ من الذين يفكّرون ويعملون، لنمنح الذين كانوا، كما يصفهم الخال إبراهيم، ناظر الأرض، يقعون على النساء بين الحقول، في مواسم الحصاد، ثمّ يستحمّون في مياه النهر!

كان العاملون في تلك المشاريع من مهندسين ومديرين وحتّى عمّال، ينظرون إلى المهندس سهيل على أنّه إقطاعيّ، وربيب ثقافة رأسماليّة درس في أهمّ مراكزها، مع إيمانهم أنّها الفضيلة المتخذة شكل تهمة، في حين كانت الخبرات جلّها قد قدمت من الدول الاشتراكيّة. ما أن حلّت الثمانينيّات حتّى كانوا يقفون بأبنائهم طوابير أمام كوّة صغيرة لبناء أبيض ضخم في حيّ الروضة في دمشق، يرفرف فوقه علم أميركا، ومعهم



رسائل توصية أو ضمان تعريفيّ من المهندس سهيل بدران، يضمن مقابلات ناجحة لأبنائهم مع القنصل الأميركيّ من أجل منحهم الفيزا إلى هناك.

أوّل بناء عمل المهندس سهيل على ترميمه بعد عودته من أميركا، كان القصر الذي ولدت فيه، وعشت طفولتي وشبابي، والذي يعود إلى أكثر من مئة وخمسين عاماً. ورثه جدّي عن أبيه، ثمّ قايض به أبي إخوته، بالتخلّي عن بعض إرثه مقابل أن يتخلّوا له عن البيت. قام بابا بعمليّة ترميم بيتنا مثلما يفعل مع كلّ ما يحتاج إلى ترميم، يحتفظ بهويّة الأشياء، ويبني حولها بانسجام لا يجرح العين ولا الروح! ماما ساعدته كثيراً، منحته رؤيتها المدينيّة المختلفة، والمبنيّة على قراءات عميقة في الفلسفة والفنون واللّغة الفرنسيّة. كان أبي قد تعرّف إلى أمّي عن طريق خالها الذي درس معه في بوسطن، والذي دعاه إلى حفلة عشاء بمناسبة زواجه في نادي السعد في حلب، وهناك التقى بماما وأحبّها. كانت ماما متزوّجة قبله من قبطان من قباطنة أعالي البحار، وسليل إحدى عائلات حلب البورجوازيّة الكبيرة، لكنّها انفصلت عنه بعد أقلّ من سنة من الزواج، إذ كان يصرّ على اصطحابها في رحلاته البحريّة، وكانت هي تعاني من دوار البحر الذي عذبها خلال الأشهر التي رافقته فيها، كان يحبّها لدرجة أنّه لا يستطيع مفارقتها لليلة واحدة، وهي تراه أنانيّاً ولم يتفهّم معاناتها، فتركته، وتزوّجت بابا بعد لقائهما بأيّام قليلة.



عارضت جدّتي الزواج، بسبب زواج أمّي السابق، لكنّ عمّتي ليلى، التي كانت في خدمة جدتي في أيّامها الأخيرة، كانت شديدة التأثير عليها، وقالت إنّ هذا ما يحدث في أرفع العائلات في العالم، وإنّ جاكلين كيندي كانت متزوّجة من جون كيندي، قبل أوناسيس! لقد كانت عمّتي ليلى مدمنة على قراءة مجلاّت "الموعد" و"الشبكة"، و"روز اليوسف" في حين توافرها، تتلقّط منها أخبار المشاهير.

صار في بيتنا جناحان، الجناح الشرقيّ أثريّ، مبنيّ من الطوب العتيق، المرمّم، وكأنّ بنّاءً من القرن الثامن عشر نفض يديه من إتمامه بالأمس، سقوفه معقودة بالقباب والمقرنصات، على الطراز العبّاسيّ، وفيه مكتب وصالونا استقبال، وغرفة طعام واسعة، تنفتح على حديقة داخليّة مزروعة بأشجار الليمون والكبّاد والورود، حول بركة سباحة بطول سبعة أمتار، وعرض ثلاثة، وعمق متدرّج من متر ونصف إلى مترين ونصف، بأرضيّة من الغرانيت الأزرق. والجناح الآخر الغربيّ، حديث فيه غرف النوم، الموزّعة على طابقين، يربطهما درج داخليّ صغير، ينتهي بعليّة، ويؤدّي من الأسفل إلى باب البيت الرئيس الذي ينفتح على حديقة خارجيّة، بسيطة، مزروعة بالياسمين والعسليّة، وشتلات الريحان والورد الأحمر، فيها كراسٍ مقشّشة، تحوّلت مقاعدها مع الزمن إلى حبال بلاستيكيّة ملوّنة، فصار كرسيّ أزرق، وآخر أحمر، وثالث أخضر...



كلّ المقتنيات في بيتنا ثمينة، ومنتقاة بعناية، ولها ذكرى. الصالونات من طراز لوي كانز، وغرف الجلوس من طراز هارودز، وكلّها بتنفيذ صانع الأثاث الحلبيّ "ليون مسابكي"، ثريّات الصالونات من الكريستال الخالص، جاء بها بابا من النمسا، وثريّات الغرف الأخرى من البرونز، وثلاثة كانت قناديل زيت قديمة، وجدها ماما مرميّة في قبو البيت العتيق، تعود إلى أيّام جدّ أبي، وحوّلتها في حلب في محلّات الحموي للأنتيكات، لتصير ثريّات كهربائيّة. السجّاد كلّه عجميّ طبعاً، فنحن عائلة لا تقتنع لا بالصينيّ ولا بالألمانيّ مهما بلغت عراقته! ورث بابا سجّاده عن جدّي، الذي ورثه بدوره عن أبيه وجدّه، وهكذا... سجّادتان اثنتا عشريّتان، وثلاثة ستّاويّات، وخمس من القطع الكاشانيّة الصغيرة. الـ (فازات)، والكؤوس، ومنافض الفضّة أو الكريستال الأبيض والملوّن، مرتّبة بعناية على الكونسولات والطاولات وفي الفيترينات، جاء بها والدايَ من أسفارهما المتعدّدة إلى بولونيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا. اللّوحات على الجدران أيضاً كلّها أوريجينال، معلّقة بحميميّة بادية، وتعود لتشكيليّين سوريين وعرب، معظمهم من الأصدقاء، الذين يحبّ بابا اقتناء لوحاتهم من المعارض التي كانوا يقيمونها في دمشق وحلب وبيروت: لؤي كيّالي، وفاتح المدرّس، وسعد يكن، ووحيد مغاربة، وشريف محرّم، وتمام الأكحل، وابن الرقّة فوّاز يونس. أمّا القطعة الأعزّ التي تزيّن الصالون الكبير في الجناح



العتيق، فهي خزانة الكتلة الوطنيّة، خزانة من خشب الجوز بارتفاع متر ونصف، وعرض متر، وعمق نصف متر، في أسفلها درفتان متجاورتان، وفي أعلاها ستّة أدراج، ثلاثة في كلّ جهة، كان جدّي يضع فيها الوثائق السياسيّة المتعلّقة بشؤون الكتلة الوطنيّة، حينما كان ممثّلها في المنطقة، ويعدّها أبي شاهد عيان على تاريخ أسرته السياسيّ. حينما عاد من أميركا، وجدها قطعة مهملة، تضع فيهاعمّتي ليلى جرائد قديمة، وفوط تنظيف الغبار، فطلب إلى السيّد ليون مسابكي تجديدها، فدهنها بلون الخشب الداكن، أعاد رسم زخارفها بقلم الذهب، ووضع لأدراجها مقابض برونزيّة جديدة، وألبس سطحها بقطعة من الرخام الأبيض الثمين، تتخلّلها عروق رماديّة وسوداء، اصطفّت عليها ثلاث منافض صغيرة من الكريستال الأزرق، وأقفال نحاسيّة عتيقة بأشكال حيوانات: سلحفاة، وضبّ، وأفعى، اشتراها بابا من سوق مسقط القديم في عُمان، تتوسّط تلك الفرادة التي ظلّت تدهش كلّ من يراها، علبة مخمليّة حمراء، تحتوي على بيزو من الذهب الخالص ذي العيار 24، وقد نقش عليه اسم المهندس سهيل بدران، كذكرى لفوزه بالجائزة الأولى لمنظّمة المدن العربيّة، عن ترميمه لسور الرقّة الأثريّ، في العام 1984.

العمل المنزليّ الوحيد الذي نكاد نبرع به أنا وأختيّ، هو تلميع التحف، وتنظيف السجّاد، رغم أنّ بيتنا لم يعدم الخدم يوماً، وكنت أعي مرحلة خادماتنا رحيمة الكرديّة التي قُتلت،



وجميلة النوريّة التي كانت تقول إنّ أخاها تبرّع بكليته للمطربة سميرة توفيق، ثمّ صباح العلويّة التي تزوّجت بضابط في الجيش.

كانت ماما تقول إنّ تلميع الأنتيكات هو شغلنا لا شغل الخدم، يجب أن نتأمّل في عظمة الروح التي صنعتها، ويجب أن نحمّلها بصماتنا. قليل من الماء على الكريستال، ثمّ نمسحه بفوطة جافّة، أمّا الفضّة والنحاسيّات، فتمسح بقماشة من القطن مبلّلة بمستحضر خاصّ يأتي من بيروت، ولوحات الزيت ينفض عنها الغبار بمنفضة الريش، كي نحفظ ثبات ألوانها.

منظر البيت من الخارج لاينمّ على الفخامة التي تقبع في الداخل، وذلك وفاقاً لرؤية أبي المعماريّة، التي أرادت له أن يكون منسجماً مع بيوت الأقارب والجيران البسيطة في الحارة، في حين يبدو بيت عمّي الوزير، والذي يبعد مسافة خمسة بيوت عن بيتنا، أشبه بقلعة مهيبة، يعرض المارّة عن المشي أمام بوّابتها، فينزلون عن الرصيف، وينتقلون إلى الجهة المقابلة. لكنّ البيت الأكثر ألفة كان بيت عمّي فيصل، أصغر أعمامي، وابن هاجر ضرّة جدّتي. بيت يفيض بحياة مبهجة صنعتها زوجته الإيطاليّة وأبناؤه الذكور الثلاثة. درس عمّي فيصل الفنّ التشكيليّ في روما. كان لديه نزعة مروق واضحة منذ صغره، بعد موت أمّه تربّى في حجور الخادمات، وفي السابعة عشرة من عمره وجدته جدّتي في قبو المنزل، معتلياً خادمتها رحيمة، التي اعترفت بأنّها لم تكن المرّة الأولى، وبناء على ذلك تمّ تسفيره إلى روما، وجاء أهل رحيمة من عفرين لاستعادتها، ومن ثمّ



قتلوها. قال أبي إنّ دماء الإقطاع استيقظت في عروقه، فاعترضت جدّتي قائلة: بل هي الدماء الخسيسة التي ورثها عن أمّه في إشارة إلى ضرّتها الراحلة. ذكّرتها عمّتي ليلى بأنّهم كانوا قد وجدوا عمّي يوسف في طفولته وقد عرّى إحدى الخادمات، وأضجعها على مصطبة، وراح يحدّد أعضاءها بقلم الفحم، مؤكّداً أنّه سيجري لها عمليّة جراحيّة، فأجابت جدّتي بحدّة، إنّه وقتها لم يكن قد تجاوز العاشرة، وكان قد صمّم على أن يصير طبيباً، وأنّ ما فعله كان لأغراض علميّة بحتة.

تزوّج عمّي فيصل بالإيطاليّة ناتاليا، كانت مثله لديها ميول هيبيّة، سكنت الرقّة لسنوات قليلة، قضت جلّ أيّامها تركض في الحارة، وراء صبيانها المفعمين بالشقاوة، تقذفهم بما يقع تحت يدها من أحذية أو أغراض منزليّة، وهي تصيح بعربيّة مكسّرة: "بدران سرسري". وكانت العمّة "سويداء"، إحدى العوانس الشهيرات في الحارة، والتي تسكن في بيت مجاور، تستيقظ على صوت صياحها، فتخرج بثوب قصير ترتديه نساء الرقّة غالباً تحت الثوب الخارجيّ الطويل، بلا حمّالة صدر، ثدياها يتقافزان أمامها مثل نذيرين لمعركة أكيدة، وهي تحاول تثبيت عصابة الرأس التي تروغ من بين أصابعها، وتصيح: الحقوا هذه المرأة المجنونة، ستقتل صبيتها! يهرب الصبية الثلاثة إلى عند العمّة سويداء، ويحتمون بدارها الأشبه بجحر، فتردّ نتاليا: "سويداء سرسري كمان"!





كانت العمّة سويداء شديدة البياض، قصيرة، وسمينة، وبمؤخّرة ضخمة، يعجز لباسها التقليديّ الواسع عن إخفائها، وبضفيرتين صغيرتين في شعرها البنيّ. كانت تخرج كلّ صباح لتكنس الرصيف أمام دارها، فيرتسم الشقّ الخلفيّ بين إليتيها بوضوح، نتيجة دخول قماش الثوب فيه، ممّا يجعلها محطّ أنظار الصغار قبل الكبار من مقيمين وعابرين، تبيّن فيما بعد أنّها لا تستطيع ارتداء السراويل الداخليّة، لأنّها تحزّ لحمها، فقرّرت أن تتخلّى عنها، وأعلنت ذلك أمام الجميع. ماما كانت تستهجن هذا التصرّف بشدّة، تقول إنّه غير لائق، وإن العمّة سويداء تعيش في جاهليّة مفرطة، وأقول لها إنّها تصلّي وتصوم وتقرأ القرآن. عمّي فيصل يقول إنّها نموذج في الثوريّة، بل نسخة متقدّمة من جماعة الـ "سان كيلوت" sans-culottes، التي ظهرت في باريس إبّان الثورة الفرنسيّة، وتضمّ نساء كادحات، ثائرات على التقاليد الأرستقراطيّة، التي تتضمّن ارتداء البنطلونات القصيرة المعدّة لركوب الخيل، وتعدّ هذه الجماعة أحد أصول الحركة النسويّة في العالم.

وضوح العمّة سويداء واستبدادها الثوريّ كان يبعث في نفسي إعجاباً وفرحاً، فأجلس على عتبة بيت الجيران وأتأمّل حركتها الدائبة التي لا يعيقها جسدها الثقيل، فكانت تصرخ بي قائلة: جوجو، لا تجلسي على العتبة، فالجان يتناكحون على العتبات، وأنت تزعجينهم. كانت الوحيدة في العالم التي



تناديني جوجو، لأنّ أسماء الدلع ممنوعة في بيتنا، وكنت أنتفض جرّاء قولها، أغيّر مكاني وأنا أفكّر: لماذا يترك الجان كلّ هذا المكان الفسيح، ليفعلوا فعلتهم عند العتبات!

سافر عمّي فيصل بعائلته ليعلّم الفنّ في جامعة بغداد، حصل على عرض مغرٍ عن طريق أصدقائه الذين تعرّف إليهم في أثناء دراسته في روما، في حين كانت فرص غير البعثيّين ضعيفة في تحصيل عمل في جامعتي دمشق أو حلب، وعلى الرغم من أنّه ظلّ يحارب التملّك، والإقطاع والرجعيّة، متأثّراً بخلطة غريبة من الوجوديّة والماركسيّة، كان يعيش من ريع ما تبقّى من أرض تركها له أبوه. كانت آخر مرّة رأيناه فيها حين ودّعنا العام 1983، بعد اعتقاله لمدّة سنة نتيجة علاقاته بعراقيّين بعد قطع العلاقات برمّتها بين البلدين، إذ غادر إلى روما، ومنها إلى بغداد، وحصل هناك على الدكتوراه، ولم يترك العراق على الرغم من الحروب التي دارت كلّها، كما أنّه لم يعد قادراً على العودة بعد اتّهامه بالانتماء لجناح البعث العراقيّ، وظلّ يحنّ إلى وطنه إلى أن مات هناك قبيل دخول الأميركان بأشهر.

في العام 2005 سافرت من الدار البيضاء إلى ميلانو لحضور مؤتمر عن أساطير نساء المتوسّط، على متن الخطوط الجويّة الإيطاليّة، فأعلن مضيف الرحلة عن ترحيب الكابتن قيس بدران بالمسافرين، تأكّدت من الاسم بلغات أربع، كان قائد الطائرة قيس ابن عمّي فيصل، طلبت لقاءه، فجاء إليّ حوالي منتصف



الرحلة في مقعدي، تعانقنا طويلاً! كـــان في غايـــة الوســـامة والعنفوان، يشبه أبـــي كثيراً، وله نظرة البدرانيّين الحارقة. وقعت في حبّه، وتمنّيت لو أبقى معه إلى الأبد! في ميلانـــو عـــرّفني إلى زوجته الإيطاليّة، قال إنّهم انتقلوا جميعاً إلى إيطاليا بعد الاحتلال الأميركيّ للعراق، وأنّ نتاليا أمّه ماتت قبل سنة، أصيبت بتماس كهربائيّ، وهي تزيّن شجرة الميلاد.



سليل كرملهايم




مكتبة
الفكر الجديد

عاد ناصر إلى دبيّ، وتركني مع كثير من الفرح، أغيب في عملي، وحينما أغلق ملفّاتي عند المساء، يكون قد لمع في عقلي مثل فكرة عبقريّة. لم نتواصل عبر أيّة وسيلة، لا عبر الهاتف، ولا الإيميل، ولا عبر أيّ ماسنجر. سلّمنا مسألة تواصلنا إلى يد الوقت. أنا اكتفيت بالألفة التي صنعها، وهو اكتفى بالعزاء الأنثويّ كما أشار. الأخبار الموجعة التي تأتي من البلاد هي التي تخرجني من الغبطة التي صنعها، فأعود لأدخل في دوّامة القلق الكئيب. أتصل بأهلي في الرقّة لأطمئن، وحين تنقطع الاتصالات ألجأ إلى صفحتي في الفيسبوك، حيث أسأل عنهم أصدقائي الذين يكلّمون أهاليهم عبر الأقمار الصناعيّة المتمثّلة بهواتف "الثريّا"، والتي صار لها مراكز مأجورة في المدينة، يذهب الناس إليها، فيكلّمون أحبّتهم، أو يتلقّون منهم اتصالات، ليطمئنّوا عن أوضاعهم. كنت أعطيهم هاتف بيتنا الأرضيّ، فينقلون لي رسائل أبي أو إحدى أختيّ، المطمْئِنة غالباً. لقد صارت حياتنا صعبة حقّاً!

السرير الواسع الذي أستلقي عليه في الاستوديو الأنيق المستأجر من أجلي في منطقة الرابية غرب عمّان، يلتصق بالجدار الذي تشغله نافذة عريضة، أرى منها بوضوح السماء، والحديقة



الصغيرة التي تشغل المساحة المقابلة للشارع، والمزروعة بأشجار حرجيّة حولها أسلاك شائكة. النافذة الأخرى المقابلة، تطلّ على أحد فروع البنك العربيّ، ومقهى الماوردي، ومجمّع تجاريّ، لذا لا أقربها إلاّ لماماً، نظراً للضجيج الذي تبعثه. هناك غرفة داخليّة واحدة لها باب، وفيها سرير، وملحق بها حمّام، في حين تنفتح المساحة المتبقية من المكان على بعضها لتشكّل صالة واحدة واسعة، مقسّمة بالأثاث إلى منطقة نوم، ومنطقة جلوس بكنبتين صغيرتين، وكرسي كبير "بيرجير"، ومكتب صغير بطاولة وكرسيّ وخزانة ملفّات، ومطبخ أميركيّ، وحمّام. البيت مزيّن بلوحات صغيرة مصوّرة عن لوحات أصليّة، وبـ "فازين" بورود صناعيّة، أوّل شيء فعلته حين دخولي المنزل، هو أنّني رميت بها جميعاً، وضعت اللّوحات الصغيرة التي اصطحبتها معي، والمرسومة بأيدي فنّانين حقيقيّين، كان كلّما توافر لي فائض مال أقتني لوحة زيت أو إكريليك، بتوقيع اسم مرهف يشقّ طريقه في عالم التشكيل، وثمّة بعض الهدايا من أصدقائي التشكيليين الذين عرفتهم في المناطق القصيّة التي سافرت إليها أبحث عن تجلّيات السمات الأنثروبولوجيّة للشعوب في فنونهم.

لم يتسنّ لي أن أحمل كلّ ما رغبت في حمله، بسبب خروجي السريع، اكتفيت بصورة للعائلة، وقنديل الزيت العتيق، وصورة تجمعني بنيكولاي تشاوشيسكو، الرئيس الرومانيّ الأسبق الذي تمّ إعدامه مع زوجته إلينا رمياً بالرصاص في العام 1989.



يعود قنديل الزيت العتيق حسب مخمّني الآثار إلى الحقبة العبّاسيّة، لقد وجدناه مع مجموعة من اللّقى حينما حفرنا بركة السباحة الملحقة بأرض قصرنا، وكانت مجموعة من الدمى الخزفيّة الصغيرة، وكؤوساً، ومزهريّات، وأطباقاً لتقديم الطعام، ما زال بعضها يحتفظ بتمام شكله، وجدنا أيضاً جرناً كبيراً من المرمر الأبيض، المنحوت بأغصان زيتون تزيّن قاعدته، ورجّح بابا أنّه جرن المعموديّة، ويعود إلى العهد البيزنطيّ، وأنّ المكان يعود لعائلة مسيحيّة كانت تسكن بيتنا في قديم الزمان. أشاع بعض أقربائنا أنّنا عثرنا على ذهب، وبقيت جود تراقب أعمال الحفر، وتنتظر كلّ ليلة أن تصبح على كنزها المتخيّل، لكنّ ذلك لم يحصل أبداً. في الحقيقة لو حفر أيٌّ من أهل هذا المكان تحت بيته لوجد مثلما وجدنا وأكثر، لقد اختلطت طبقات الأرض بفعل حركات الزمن، من زلازل وانهيارات، واشتبكت مخلّفات البشر التي انتمت إلى مراحل متباينة. الكنز الذي عثرنا عليه أخذته لجنة التقصّي إلى متحف المدينة، احتفظنا بقنديل الزيت الذي يشبه فانوس علاء الدين السحريّ، وإحدى آنيتي الزهر. رجوناهم أن يتركوا لنا جرن المعموديّة، لنحوّله إلى حوض للسمك. لكنّ ذلك كان مخالفاً للقانون بحسب قول بابا.

كنت بارعة في جمع المساعدات الماليّة، ولديّ عدد كبير من دفاتر الإيصالات: فئة الخمس ليرات، فئة العشر، فئة الخمس والعشرين، أعطي المتبرّع إيصالاً مقطوعاً من دفتر، وأحتفظ



بكعب الورقة كدليل لإحصاء نسبة الدخل. وكانت مناسبات التبرّع في سورية كثيرة: تبرّعوا للانتفاضة الفلسطينيّة، تبرّعوا للسودان، تبرّعوا لجنوب لبنان... في الطريق، وفي السوق، وفي النقابات، وفي الدوائر الرسميّة. نذهب بتصريح من المدرسة لنجمع التبرّعات، ولم أكن أوفّر أحداً، أمّي وأبي، وأعمامي، والجيران، ومصروفي. صارت التبرّعات شغلي الشاغل، جمعت مبالغ كبيرة، مرّة جمعت ألفي ليرة، ونتيجة لجهودي العظيمة رشّحتني المدرسة للسفر إلى دمشق، كي أشارك في استقبال نيكولاي تشاوشيسكو، القادم إلى القطر في زيارة رسميّة. حينما وصلت مع زميلتي مايا ابنة المسؤول الكبير التي رشّحت أيضاً للمشاركة، إلى مكان الاحتفال، سمعت مدير المسرح يطلب من مساعده أن يأتي له بفتاة حلوة كي تقدّم الورد لنيكولاي تشاوشيسكو، طار عقلي، وأسرعت نحوه، وقلت له أنا سأقدّم الورد! نظر إليّ وأنا لمّا أتجاوز العاشرة، بتنورة كحليّة قصيرة، وقميص أبيض، وجوربين مزيّنين بشرائط حريريّة، وحذاء جديد، وقد عقدت شعري على هيئة كعكة تتوسّط رأسي. قال لي: تقدّمين له البوكيه، ولا تقتربين كثيراً منه، إلاّ إذا بادرك بقبلة. مايا أسقط في يدها، كانت ترميني بنظرات متوعّدة، فليس من حقّ أحد أن ينال أيّة حظوة بوجود بنت مسؤول كبير في الدولة، لا سيّما شرف تقديم الورد للرفيق نيكولاي تشاوشيسكو. حاول المشرف الذي يرافقنا أن يتدخّل لتبديل الأدوار، لكنّ مدير



المسرح كان حازماً في قراراته. باقة الورد كانت كبيرة وفوّاحة، زهورها بيضاء وحمراء، تحتضنها أوراق خضراء عريضة ويانعـــة، ما يزال لونها يضيء الصورة رغم مرور السنوات. وصل الضيف الكبير إلى مسرح نادي الضبّاط، وقبل أن يرتاح في مقعده كنت قد صرت أمامه، أرفع جسدي الصغير لأقترب من قامته الفارعة. انحنى بشعره الأبيض وسنواته القريبة من السبعين، مازلت أذكـــر بقع النمش الكثيرة على يده التي وضعها فوق يدي متناولاً منّي الورد، شعرت كأنّه جدّي، فتجاهلت كلام مـــدير المســـرح، اقتربت كثيراً كثيراً، ففاحت من جلد رقبته رائحـــة منعشـــة، وتبادلنا قبلتين قويّتين.

دعتني مايا لزيارتهم، بعد مرور أربع سنوات علـــى لقـــائي التاريخيّ بتشاوشيسكو، شغّلت جهاز الفيديو، وأرتني المحاكمـــة التي كان محظوراً آنذاك تداولها. تشاوشيسكو وزوجتـــه إلينـــا يواجهان لجنة تحقيق من قياديي الثورة، الرجل الذي له رائحـــة الثلج الطازج حين يعانق أشجار الزان الباسقة، والذي قبّلني بحنوّ بالغ سيمنعني من تصديق ما نسب إليه من تهم غريبة، يجلس الآن وزوجته البائسة مشعّثين، مثل أبوين فقيرين ودّعا ولدهما الوحيد إلى القبر، يدافعان عن لحظاتهما الباقية بشراسة، ويصرّان على أن يموتا، إن كان لا بدّ من ذلك، معاً. إلى لحظة انتهاء المحاكمـــة لم يكونا مصدّقين ما يحصل لهما، وأنّهما حقّاً طاغيتان، أنا أيضاً لا أصدّق كلّما تذكّرت النمش على يده البيضاء. كانـــت إلينـــا



تصرخ وتقول: لا تلمسوني، لماذا تربطوني، لقد كنت أمّكم، أنا أمّكم! كان صوتها ملعلعاً كأنّه صوت الحقّ، وكان نيكولاي أكثر تماسكاً. بكيت من كلّ جوارحي، والحارس الذي ساقهما إلى حتفهما كان يبكي أيضاً. نسمع بعد ذلك صوت الرصاص، ثمّ تسلّط الكاميرا على جثّته الهامدة، يأتي طبيب الثورة، يغمض عينيه، ويعلن موت الرئيس.

مات والد مايا في دمشق بعد سنوات من تحوّل عمله إليها. ذهبت لتعزيتها، جلسنا في صالون واسع مهيب، في الـ "فيلاّ" التي تحتل تلّة رابية في إحدى ضواحي العاصمة. تأمّلت بنظرة الأثاث الباذخ، وأنا أضع حقيبة يدي على طاولة بجوار مقعدي. كانت قاعدة الطاولة عبارة عن جرن المعموديّة البيزنطيّ الذي وجدناه في دارنا، يشكّل سطحها لوح من الزجاج، مقصوص بشكل دائرة، مشطوفة الأطراف، وعليه صورة الفقيد في إطار ذهبيّ، ربط بشريط أسود، وإلى جوارها فنجان القهوة المرّة التي سأشربها لراحة نفسه.

* * *

حينما يحطّ اللّيل على منطقة الرابية تتحوّل الحديقة أمام سريري إلى مرتع للريح، أسمع أصواتاً تشبه النعيق، وهرير قطط، وتتحوّل الأشجار إلى أشباح متعانقة، فأنطوي على نفسي في السرير، وأهرب بعينيّ إلى السماء فأراها أكثر ألفة، أحملق فيها أكثر فأكثر، فأجدها قريبة، ونجومها مثل قطع حلوى غزل



البنات، وأستطيع أن أتناولها بمجرّد أن أرفع يدي، تشبه السماء فوق بيتنا!

منذ أن عرفت ناصر لم أعد أتلهّى بمناظر نافذتي بانتظار النوم كما كنت أفعل كلّ ليلة. صرت أفكّر فيه، آخذه ليتجوّل في عقلي بلا رقيب، أحوّله إلى فكرة، أو أجسّده فيتّخذ شكل غار آوي إليه، أو وسادة، وربّما يصير ولداً صغيراً مدلّلاً! أعرف أنّها أخيلة، لكنّها متأتّية من العقل، والعقل لا يولّد الخيال من فراغ، بل من مواد خام منحني ناصر في هذه اللّقاءات القصيرة أنقاها وأفخرها، فأسترجع لقاءاتنا، وكلامه، وملامحه، وأتخيّل اللّقاء القادم الذي أنتظره على مهل، وأصحو في الصباح سعيدة!

بعد أقلّ من شهر اتصل ناصر، قال إنّ طائرته حطّت للتوّ، وإنّه يحبّ أن نتعشّى معاً إن لم يكن لديّ ارتباطات. ضغطت على زر إنهاء المكالمة، وعضضت على شفتي بقوّة من المفاجأة السعيدة. ليس ضروريّاً أن نتفوّه بالحكمة، أو أن نحيط أنفسنا بالحذر المحيّر، لنكون مؤثّرين، اتصال صغير من المطار يكفي، لأنّه يعني أنّنا نخاطر بأشياء كثيرة من أجل أن نكون صادقين مع مشاعرنا، وأنّنا أقوياء لنتحمّل نتيجة صدقنا.

وجدته عند الثامنة والنصف ينتظرني في لوبي الإنتركونتيننتال. عانقني مثل أب استعاد طفلته الضائعة، وانتقلنا معاً إلى طاولة العشاء في "برج الحمام"، الذي سنرسو عليه مكاناً للقاءاتنا المستقبليّة، ثمّ غرقنا في الحديث...



- أنقذتَني...

قلت له أنقذتني، متعبة.. جدّاً!

- أعرف. الأخبار سيّئة، الرقّة خربانة! كيف الأهل؟

- وضعهم صعب، القصف قريب، وعناصر الفصائل الأخرى توغّلوا بين المدنيّين، لكن إلى الآن أفضل من غيرهم.

- ألن يخرجوا؟!

- بابا يصرّ على البقاء.

رفع حاجبيه، وهمّ أن يقول شيئاً، ثمّ صمت، وتابعت:

- حينما كنّا صغاراً، كانوا يقولون إنّ ثمّة حرباً في البلاد البعيدة، وموتاً، وتنكيلاً، وتهجيراً، ومرضاً، وتدميراً، وفقراً، وذلاًّ، وكنت أعتقد تماماً أنّ تلك البلاد البعيدة، ستبقى بعيدة، ولم يخطر لي في يوم أنّها ستكون بلادي!

- لا أعرف الرقّة، لم أزرها مطلقاً، مرّة ذهبنا في رحلة إلى قلعة جعبر، لكن لم نصل المدينة. قالوا كلّها مناطق أثريّة، وإنّ الفرات فيها جميل!

- تماماً، حضارات بنت فيها فوق بعضها البعض، منذ الألف العاشر قبل الميلاد، وبقي من آثارها القائمة ما يعود إلى الحقبة الرومانيّة، والإسلاميّة الأمويّة، والعبّاسيّة، والسلجوقيّة، حتّى في أثناء حكم العثمانيّين واحتلال الفرنسيّين كان لها حضور فاعل، ثمّ لم يعد أحد يتذكّرها، الحكومة بذاتها نسيتها، ولم تولها اهتماماً إلاّ



حين يتمّ التفكير في مكان لمسؤول ما تزال جيوبه فارغة، وبحاجة لأن تملأ. وها هي الحكومة الآن حينما أرادت أن تتخفف من حملها، تخلّت عنها، وسلّمتها، كما تسلّم عظمة إلى كلب، لجماعات متطرّفة، صارت أرضاً لمعاركها ونزواتها المريضة. تجمّعوا فيها جميعاً: الجيش الحرّ، وجبهة النصرة، والدولة الإسلاميّة، في الواقع أنا أرفض أن أميّز بينهم، كلّهم بالنسبة إليّ يساوون الخراب، وأشرسهم ما يسمّى بـ isis، القاعدة تبرّأت منهم لوحشيّتهم، ويريد العالم من الرقّة أن تحتملهم!

- قد يكون لدى الدولة استراتيجيّة مرسومة لتنهي وجودهم.
- أيّ حلّ سيكون على أكتافنا نحن فقط، سواء أقرّرت أن تجمعهم في محرقة واحدة، فتقتل المدنيين، أهليّ ومواطنيّ، أم أن تتخلّى عن المحافظة تماماً لتكون إقليماً يشكّل رقعة واحدة مع الموصل، وينفتح على تركيّا الراعية لهذا المخطّط.

تعالت ضحكات مقهقهة من طاولة قريبة، فالتفتّ. مجموعة من الرجال، خمسة، وسيّدتان، انتبهت إلى أنّني أعرف أحدهم:

- ذلك الرجل أكاديميّ من جامعة دمشق، تحوّل مؤخّراً إلى معارض شرس للنظام. السوريّون في كلّ مكان. الرجل الذي إلى جانبه أيضاً صار نجماً لبرامج تلفزيونيّة



سياسيّة، صرعوا رؤوسنا بالديمقراطيّة، ودولة المساواة، والحريّة قبل ذلك، أنا لم أحفظ أسماء أحزابهم وتيّاراهم، كلّه مثل بعض، خربوا بيوت الناس، وانتشروا في البلاد، هاهم يقهقهون في الإنتركونتننتال، والناس تموت كلّ لحظة بسببهم، أنا هنا بسببهم أيضاً.

تغيّر مزاجي بوجودهم إلى جانبنا، وشعرت أنّ الهواء صار ثقيلاً.

ألقى ناصر عليهم نظرة متفحّصة:

- أيّ فصيل هو الأفضل؟
- كلّهم أسوأ من بعض، ضحايا صاروا جلاّدين، أو منتفعين بعضهم كان من صلب النظام وارتزق منه سنوات، ثمّ انقلب عليه، وبعضهم مرهَن للخارج، وهناك الفقير، والجاهل، والمغيّب...
- تبالغين يا جمان، لا يخلو الأمر من الوطنيّين، والشجعان، والنبلاء!
- مراهقون، نظرهم قصير، غامروا بحياة الملايين.
- لماذا لا نقول: أحرار ناؤوا بالعبوديّة!

شعرت أنّ حرارة تخرج من أذنيّ، لم أكن أحبّ أن أدخل معه في مثل هذه النقاشات، ولا سيّما اليوم، فأخذت نفساً عميقاً وأنا أمسح على جفنيّ السفليّين بأطراف أصابعي، تلك الحركة التي تمتصّ أيّ استفزاز يمارس عليّ:



- منذ متى كان البورجوازيّون يشجّعون الثورات!

ضحك وهو يرفع رأسه إلى الخلف، فانشدّت عروق رقبته، وبانت عن بياضها المحمرّ:

- نسيتِ أنّني لاجئ! اللاجئون لا يخضعون للتقسيمات الطبقيّة التي تخصّ المجتمعات المستقرّة، هم بذاهم طبقة، اللاجئ ثائر بطبعه إلى أن يثبت العكس. أنتِ مع من إذن؟

- أنا مع بيتنا طبعاً!

هزّ رأسه وهو ينظر في عينيّ بقوّة، كان قد فهمني تماماً.

ثقلاء الطاولة المجاورة لملموا أغراضهم ورحلوا، فعاد الهواء حولنا لطيفاً، واستعدت شعوري الإيجابيّ بوجودنا معاً.

التاريخ المشترك بين طرفين يبدأ بالحوار، لا قبل ذلك إطلاقاً، مهما حدث من تجاذبات، ومتابعات، وردود أفعال أحاديّة الجانب أو مشتركة. بحواراتنا أنا وناصر، بدأنا نصنع لنا تاريخاً صغيراً خاصّاً نربّيه في قلب هذا الحزن المحيق بالعالم من حولنا، نبني بيتاً من الكلام: في القبو تلك الذكريات الموغلة في العتاقة عن أشياء أحببناها، وفي الطابق الأرضيّ كان كلّ شيء ناصعاً وآمناً، ندخل ونخرج من حواراتنا، وكأنّنا نتجوّل في غرف أليفة، وهناك في قمّة خيالنا عليّة مفتوحة على سماء ما.

- لماذا نكون نحن حطباً لمعارك الآخرين؟!

- من نحن؟



- نحن، الرقّة. ربّما هي الطيبة، والفقر، والتجهيل، والتهميش، والفساد والإفساد، ذلك كلّه ولّد هذا العنف، وفتح سكّة للهروب إلى منقذين لم يُختبروا بعد. لماذا ينسحب الجيش، ومظاهر الدولة كلّها من مكان قاوم التهميش بأن وجد آليّاته الممتعة للعيش؟ انفتح على بعضه في علاقات عائليّة، فيها بساطة ووداد، ولبّى رغبته في حبّ الحياة بالسهر، والطرب، والطعام، والخمر، والشعر. الرقيّون يصبّحون على بعضهم بالعتابا والموليّا، وينامون على سيرة أبي ليلى المهلهل، كيف سيتحوّلون إلى مجتمع طالبانيّ! النساء لن يحتملن ذلك، لن يحرّرهنّ أحد، لأنّهنّ حرّات بالفطرة، حرّات بلا إديولوجيا ولا نظريّات، يمشين بطلاقة سهام عقدت صداقة أبديّة مع الريح، يرتدين اللّباس بعيداً عن قواعد التراث أو المعاصرة، يذهبن لتسوّق البطاطا بالطريقة ذاتها التي يقصدن بها سوق الصاغة، ويهرعن إلى وظائفهنّ المتواضعة بالمظهر ذاته الذي يمكن أن يقابلن فيه رئيس الجمهوريّة. المشهد ذاته الذي يقف أمامه عشرات الغرباء مشدوهين، هو الذي يشكّل العاديّ اليوميّ في الشارع، ذلك أن تجد امرأة انحدرت من قريتها القريبة، نحو أكثر الشوارع اكتظاظاً، وقد ارتدت اللّباس العربيّ التقليديّ، ووضعت على رأسها قدر اللّبن



الكبير، تمسكه بيد، وتمسك سيكارها باليد الأخـــرى، تأخذ نفساً، وتنفثه، وهي تغذّ السير نحـــو تجارها، لا تفكّر في أن تجلس أوتقف، وليس لديها دليـــل تتبـــع إرشاداته في مسائل قد تشكّل قضايا محوريّة لآخـــرين يضيّعون حياتهم في شكليّات مفرطة، وإذا ما مـــررتَ أمام عيادات الأطبّاء في شارع القوّتلي أو شارع تـــل أبيض، فمن الطبيعيّ أن ترى نساء قد دلقن أثـــداءهنّ وألقمنها لأطفالهنّ الجياع بلا أيّ تحفّظ، لا أحد ينظـــر إلى تلك الأثداء البيضاء سوى الغرباء! قد يجد أهل المدن أنّ في ذلك ردّة جاهليّة، لكنّها في الحقيقة شكل مـــن أشكال الحريّة، شكل متخلّص من سطوة المتعاليـــات، هذا ما تقوله الأنثروبولوجيا.

- متعاليات... ماذا تعني؟
- كلّ ما هو من خارج النسق، أيّ المجتمع، ويتّخذ شكلاً سلطويّاً.
- هه!
- كيف سيخضعن للعرف الجديد، ويلبســـن النقـــاب، ويخرجن بمحرم، ويقام عليهنّ الحدّ، تلك كلّها أشـــياء ليست في علمهنّ ولا عرفهنّ!
- نحن نعيش في علبة كبريت، متى اشتعل العـــود الأوّل، احترقت الأعواد كلّها. لقد احترقت بغداد والقـــاهرة



وطرابلس، وها هي دمشق، وقبلها القدس. الأيقونات كلّها سقطت!

قاطعته بحدّة:

- لا يهمّني. بيتي ليس في دمشق أو القدس.

فوجئ ناصر بنبرتي العنيفة، وتجمّد وجهه، وقد شعر أنّه أخطأ التقدير. أنا أيضاً وجمت لأنّني كنت حقيقيّة أكثر ممّا تحتمل اللّياقة، فغيّرت طبقة صوتي، وتعابير وجهي التي صارت أقرب إلى الاعتذار:

- يحزنني جدّاً أن يحدث ذلك، لكنّ أيقونتي هي الرقّة.

يبدو أنّ صراحتي حينها، أسقطت كلّ الرياءات الموروثة، فقال ناصر:

- أمّا أنا، فلا مدينة لي لتعلو أو تسقط، أو ليحارب أحد من أجلها. حتّى أنا لا يخطر لي أن أذكرها، ليس في حديثي فحسب، بل في عقلي أيضاً. لا أعرف كيف يكون للمرء مدينة ينتمي إليها ويحنّ، مثلما انتمى إليها أبوه وجدّه، وجدّ جدّه، فأصولي من مكان، ومسقط رأسي في مكان، وحياتي توزّعت بين أماكن أخرى مختلفة. قدري هو قدر فلسطينيّ نموذجيّ. تعود عائلتنا في أصولها إلى مرج ابن عامر، وقد سكن معظم أفرادها بجوار ميناء حيفا، حيث تركوا زراعتهم في السهول الشرقيّة، بسبب خلاف مع أحد الوكلاء الإقطاعيّين



الذي سجّل أراضيهم باسم عائلة أخرى، فانتقل معظمهم إلى العمل بتجارة الحبوب. جدّي الأكبر، أوّل فرد في العائلة له صورة واضحة المعالم، تعلّم في الأزهر، ودخل أبناؤه فيما بعد سلك التدريس، في المرحلة التي صار يتنافس فيها الفلسطينيّون على تعليم أبنائهم، ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتقل جدّ أبي إلى الإقامة في كرملهايم، وكان من القلائل الذين سمح لهم بالسكن في ذلك الحيّ الألماني الجديد الذي بني على سفح جبل الكرمل، حيث استقدم العثمانيّون أصدقاءهم الألمان إلى حيفا، فقاموا بتشكيل كانتون يعمل على تطوير المكان، وصار جدّ والدي مدرّساً للّغة العربيّة والتاريخ في المدرسة الألمانيّة التي أنشئت هناك. أمّا جدّي الذي تعلّم في المدرسة الألمانيّة ذاتها، ثمّ ذهب في بعثة لمدّة سنة إلى فرانكفورت، فقد صار فيما بعد مديراً لفرع البنك الفلسطيني - الإنجليزي في حيفا.

ثبّت ناصر جذعه إلى ظهر الكرسيّ، وراحت أصابع يديه الاثنتين تتحرّكُ على شاشة الموبايل بحرفيّة، ثمّ أراني صورة محفوظة بالأبيض والأسود، جرت عليها تحسينات تقنيّة واضحة، لرجلين يرتديان بدلتين إفرنجيّين بربطتي عنق، يتصافحان وقد أمسكا علبة مخمليّة صغيرة داكنة، تتمدّد في قلبها عملة ورقيّة، كتب أعلاها (Palestine Currency Board)، وتعني مجلس فلسطين للنقد:



- جدّي والسيرس. س. دافيس، يمسكان بأوّل جنيه فلسطيني صدر في العام 1927، عن المجلس الذي كان تابعاً لوزارة المستعمرات البريطانيّة.

تأمّلت الصورة، حاولت البحث عن ملامح ناصر في وجه جدّه، كان لهما الجبين العريض ذاته، وربّما ورث عنه قامته المربوعة.

- حينما تمّ اقتراح حلّ الأزمة الفلسطينيّة من قبل الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولتين مع إدارة دوليّة في القدس في العام 1947، كان نصيب حيفا أن تكون من حصّة إسرائيل، وهكذا غادرنا...

قالها، وأشاح بنظرته نحو البعيد، أبعد من الطاولات التي في الخلف. لا يمكنني الالتفات لأعرف فيما كان يحدّق، لكنّ الضوء كان يرتدّ من عينيه المترقرقتين بماء شفيف، فتنعكس فيهما صورة شجيرة الدفلى التي ورائي مهتزّة، وكأنّها مرسومة بريشة رينوار.

أبي كان يحدّثني عن جولاته طفلاً في شرق المدينة، مكانه المحبّب، حيث تقع محطّة القطار، المكان الذي ربطه بعلامة فارقة في حياته فيما بعد، وهي زواجه من أمّي في دمشق، وربطني أنا من بعده بحلب، ذلك أنّ سكّة حيفا جزء من الخطّ الحديديّ الحجازيّ، الذي يصلها بدرعا، وقد أنشئ في العام 1908، وتمّ إيقاف العمل على استكماله عام النكبة، حيث نسفته الهاغاناه لمنع وصول الإمدادات السوريّة إلى فلسطين. صار المكان الآن متحفاً



للقطارات، فيه قاطرتان من ذلك الزمان فحسب. سافر أبــــي في صغره مرّات عديدة مع والديه في ذلك القطار الساحر. كان ينتظر صافرة الانطلاق بشغف، يعد بعدها الدقائق مترقّباً وصول وجبــة الطعام الفاخرة، والتي تقوم بتزويدها مجموعة فنادق واغونز ليــتس (wagons- lits)، المعروفة باسم شركة قطـــار الشـــرق الســـريع، والمكوّنة غالباً من وجبة لحم الضأن المطبوخ بالنبيذ الأبــيض، مــع السبانخ المقلّى، والتي يختارها جدّي، في حين يقوم أبـــي الصــغير بطلب صدر دجاج مع صوص البروفنسال بالليمون والثوم والحبق. تأتي الوجبات ساخنة، مع سلطة خضراء طازجة، أوراق الخسّ فيها مقطوفة للتوّ من المزارع المجاورة، مع تشكيلة من الأجبان، وطبــق صغير من الفاكهة المنوّعة حسب الموسم، وقهوة للكبارمع اللوكير، وعصير برتقال للصغار. كلّ ذلك يدخل المقطورة علـــى عربـــات للخدمة، بأغطية من الستانلس، وفوط بيضاء، وصحون خــزف، تحمل جميعها صورة الأسدين الذهبيّن المتقابلين على خلفيّة زرقاء، والذي يمثّل شعار تلك الشركة البلجيكيّة العريقة، التي احتكــرت خدمة الإطعام المتنقّل طيلة الحرب العالميّة الأولى. ما زلـــت كلّمــا ركبت قطاراً أتخيّل أبـــي طفلاً صغيراً يجلس قبالتي، ويطلب وجبته المفضّلة، لذلك أحببت محطّة بغداد، وزمن حلب كلّه على بعضـــه، وكنت كلّما صفّر القطار هناك قرب بيـــت جـــدّكِ، أخـــرج إلى الشرفة، وأحاول أن أقبض على ملامح الجالسين خلـــف النوافـــذ الزجاجيّة العريضة، لكنّه يمضي سريعاً، وطبعاً لن يصل حيفا.



لم أرد أن أزعج الجمال المرتّب في الصورة التي رسمها ناصر، لم أقل له إنّ الرحلة في هذا القطار إلى المحافظات تشبه فصلاً من الجحيم، وإنّهم لا يقدّمون أيّة وجبة، وإنّ عربة المطعم فارغة غالباً، لكنّهم لا يمانعون في أن تحضر معك الطعام الذي تشاء. لم يدرك زمن "الترين ست"، في سورية، ذلك القطار السريع ذي المقاعد الوثيرة، الذي فرح به السوريّون بضع سنوات، ثمّ اندلعت الاضطرابات، وتمّ عطب السكّك، وتفجيرها في بعض المناطق، وراح الكثيرون ضحيّة هذه الأعمال الإرهابيّة، وتوقّفت القطارات في كلّ مكان.

جاءني خاطر في تلك الجلسة أنّه كان عليّ أن أدرس الجغرافيا، لقد اكتشفت معه أنّني أحبّها حقّاً، وأنّها ربّما كانت شغفي المغيّب الذي لم ينتبه أحد إليه، حتّى أنا، وربّما لهذا السبب تخصّصت في مجال قريب من الجغرافيا البشريّة تحديداً، وهو الأنثروبولوجيا الثقافيّة. لو قام ناصر بتدريسي هذه المادّة في سنواتي المدرسيّة المبكّرة، لكنت أعددت معه خرائط بديلة لهذا العالم الرديء، ولو أنّ بابا اشترى لي تلك الكرة الأرضيّة التي رأيتها في واجهة مكتبة في شارع جان دارك في منطقة الحمراء ببيروت، لكنت ذهبت باتجاه الجغرافيا بلا شكّ، ولكتبنا أبحاثنا معاً، أنا وناصر، حول الفخاخ السياسيّة التي تصنعها التضاريس مثلاً: كنت في الرابعة من عمري، ووقفت أشير إلى تلك الكرة وراء الزجاج، وقد غطّى الأزرق اللاّمع المخطّط بخطوط الذهب



حلّ مساحتها، وأصرخ: الدنيا، الدنيا، أريد الدنيا... يسحبني بابا من يدي، ويقول: سنشتري "الدنيا" من الشام، من الشام!

تابع ناصر:

- حاولت مرّة أن أزور فلسطين، فأذهب إلى حيفا والقدس ويافا، وحين عزمت فعلاً، لامني من حولي، وقالوا كيف يقبل مثلي أن يذهب إلى إسرائيل؟! أن يستجديهم على المعابر والحدود، وفي السفارات، لزيارة بلده. وإنّ ذلك لو تمّ فستكون وصمة عار، وسأكون في خانة المطبّعين مع العدو، ولا سيّما إذا ختم، جواز سفري بختم إسرائيليّ. في الحقيقة هذا الكلام لا يقنعني، فأنا ذاهب إلى فلسطين، وطني، لكنّ النتيجة أنّني عدلت عن الأمر، ويبدو أنّ اعتيادي على ألاّ أكون هناك، جعل من رغبتي في الذهاب غير كافية. جمان! ربّما هي المرّة الأولى التي أصرّح فيها بأنّ مدينتي هي المكان الذي أعيش فيه بكرامة، وأنال أماناً غير مشروط، وأحصل على أحسن تعليم، وعلى المعاش الذي يليق بجهدي في عملي، وبذل وقتي. بالنسبة إليّ، ومنذ زمن طويل هذا هو الوطن. قد تجدينني براغماتيّاً، أو غير منتم، أو بلا أصل كما نقول عادة، وقد يجدني متطرّفٌ وطنيّ، خائناً، لكنّني صادق، وما أقوله ينبني على تجربتي الطويلة، مضى أكثر من ستين سنة على خروج جدّي



وأبـــي الطفل من حيفا في العـــام 1948، لجـــؤوا إلى بيروت، ومنها انتقلوا إلى عمّان!

تابعت بدوري الرحيل، غادرت عمّان إلى بيروت حينمـــا كنت في السابعة عشرة مـــن عمـــري، والتحقـــت بالجامعـــة الأميركيّة، درست العلوم الجيولوجيّة، إذ لم يكن فيهـــا قســـم للجغرافيا، ومنها إلى "كاليفورنيا"، حيث تابعـــت تحصـــيلي في الجغرافيا الطبيعيّة، وحصلت على الدكتوراه من "سانتا بربـــارا"، والتقيت بالمرأة التي تزوّجت بها، وكوّنت عائلة وأبناء. لم أعرف خسوفاً حقيقيّاً في حياتي إلاّ لحظة انفصالي عن "كورين"، المرأة التي حوّلت علاقتي بالنساء إلى تأمّل. كانت عالمـــة ســـلاحف بحريّة، وقد أسّست جمعيّة وطنيّة تهتمّ بالحفـــاظ علـــى تلـــك السلالات المهدّدة بالانقراض، هادئة، وعميقة، ومعطاء.

كان ناصر يحكي، وأنا أحاول أن أرسم صورة لزوجتـــه، تخيّلتها امرأة جميلة، بشعر أشقر، ترتدي فستاناً قطنيّـــاً أبـــيض، وتجلس على الشاطئ، وفي حجرها سلحفاة. في الحقيقة انتـــابتني غيرة تجاهها! أنا لا أعرف شيئاً عن الســـلاحف ســـوى قصّـــة السلحفاة التي سبقت الأرنب.

– أنجبنا أبناءنا الثلاثة، وربّيناهم، وعشنا السُنّة الـــتي درج عليها التكوين الأسريّ في العالم. كنت ســـعيداً بـــأنّ حياتنا مستقرّة، وأنّنا استطعنا أن نوفّر لأبنائنا وضـــعاً ماديّاً مريحاً، وكثيراً من المتعة والفرح. بعـــد دخـــول



الولدين الجامعة بدأت كورين تنسحب شيئاً فشيئاً من دائرتنا. لم أهتمّ كثيراً، هي تقلّبات النســاء، لا ســيّما حين يقتربن من منتصف العمر، لكنّ تغيّرها بدأ يقلقني حينما صارت بعيدة عن اهتماماتها اليوميّة، وبعيدة عن سيرورة أيّام الأولاد، لاسيّما سارة التي كانــت رغــم سنواتها الاثنتي عشرة، رفيقة لنا. دخلت كورين في طور اكتئاب، وكان اقترابــي منها يدخلها في نوبات غضب غير مسوّغة ولا مستحقّة. لم تسمح لي أن أقف معها، كما تباعدنا جسديّاً إلى أقصى مدى. كانت كــورين حسب عشرتي الطويلة لها، أقوى من أن تملك شيئاً لا يمكنها التصريح به. لكنّها جبنت هذه المــرّة. ســافرنا وقتها لنقضي عطلة الميلاد في بيت والدتها في "ويســت فرجينيا"، كان ذلك في المساء، وكانت تجلس إلى الموقد سارحة في الطريق الحرجيّ الطويل الممتدّ أمام النافذة، والمغطّى بثلوج لم تتوقّف منذ أيّام. نادتني، وطلبت إليّ أن أجلس قبالتها، وبادرتني بلهجة لم أعرفها منها مــن قبل، كانت حازمة، وهادئة، وبدت قد أعدّت نفسها جيّداً، قبل أن تقول: انظر يا ناصر إلى هذا الثلج! كم نفرح به، وننتظره بشوق من عام إلى عام، لكنّه ما أن يطيل المكوث حتّى نملّه، فهو لا يغيّر من مزاجــه، لا يفاجئنا، لقد عرفنا حركاتــه في المبــدأ، والمنتصــف،



والمنتهى. أقصاه عاصفة، تقعدنا أيّاماً في المنزل، ثمّ تهدأ وتغادرنا. الثلج جميل، لكنّنا نحنّ إلى الربيع، أجسادنا تطلب الدفء الذي سيحرق عطن الرطوبة. أنا قضيت أيّامي غارقة في عالم مخلوقات عجيبة، ألاحقها من شاطئ إلى شاطئ لأحميها من الانقراض، وذابت عيناي بين حروف المراجع لأتمكّن من الإحاطة بعالمها، وكلّما وصلت إلى حقيقة امتدّت أمامي حقائق أخرى قصيّة، ونسيت أنّ الطبيعة، مهما فعلت، أقوى منّي، لها وحدها أن تبقي على السلاحف أو أن تبيدها، رغبتي لن تقف أمامها ولا علمي. الحفاظ على مجموعة من السلاحف لا تعني نجاة جنس حيّ مهدّد بالزوال، ثمّ ماذا يهمّ العالم إن كانت تبيض أو لا تبيض، تعيش أو تموت. أبيع شغفي ووقتي لصيّادين يرمون شباكهم للسمك، فتعلق بينها سلاحفي وتنفق، أو إلى طفل على الشاطئ الآخر، يأخذها معه إلى البيت، فتموت بلا بحر، أو لعمّال البواخر وقد عجزوا عن السيطرة على بقع نفط تنسرب من بضاعتهم، في حين أنّ السلاحف لا تكترث لأحد، تترك بيضها على جزر غريبة، وترحل عنه بعيداً، وعلى المواليد الجدد أن يتحمّلوا مسؤوليّة الحياة، أن يخرجوا من قلب الرمل بقوّة أطرافهم الممكنة، ويسبحوا باتّجاه الماء، لا أحد يدلّهم على الطريق،



وحدهم سيعرفونه. وأنت يا ناصر، قضيت عمرك تراقب حركة الرياح، وتنتظر الغيوم، وتتساءل إذا ما كانت حبلى أم عاقر، لكنّك رغم تكنولوجيا المعرفة التي تخصّصت فيها، لا تستطيع أن تحمّلها أو تستولدها، ولا أن تأتي بها من الغرب إن أقبلت من الشرق. تراقب فحسب، وتدوّن ملاحظاتك، وتقيس عليها. أقصى ما تستطيعه هو إنذارنا من عاصفة محتملة، فنتكدّس في المطارات، أو تملي علينا أن نرشّد في صناعة الفطائر، إذ لا قمح كاف لهذه السنة، أو أن تملأ دلاءك الحمراء المصفوفة في الكراج بماء المطر، لنستخدمه في يوميّاتنا، فتكون فاتورة الماء أقلّ قليلاً هذا الموسم! تقول إنّك تحمي الناس من المرض والموت والشحّ، وتنسى أنّ ما تفعله في سنوات ينسفه أحدهم في يوم، في حريق، في تجربة كيميائيّة، في انشطار ذريّ....

كلّ ما نفعله لا معنى له! لم تستطع يوماً إيقاف هزّة أرضيّة، لم تجنّبنا موجة صقيع قضت على المواسم، ولم تحمِ غابة من حريق، ولم أسألك يوماً عن تناقضاتك؟! كيف تتقبّل ظاهرة وترفض أخرى! تقبل انحباس المطر شتاء كاملاً، ولا تتقبّل عاصفة ثلج في الصيف! إمّا أن تقبل التحوّلات كلّها، وإمّا أن ترفضها، لهذا هو إيماننا بسقوط الحتميّة. لذلك مثلما قبلت منّي محبّتي وتعاوني وجهودي من أجلك، ومن أجل العائلة، أرجو أن تتقبّل



رغبتي في الرحيل بلا قلاقل، سأقول لك إنّني تعبت من كونك تراقب، أنت مراقب جيّد، لكن فاتك أن تراقب جسدي وهو يفقد الماء، وروحي التي ذبلت، وتريد مصدر ضوء يوقظها، ويشدّها لتتسلّق باتجاهه. هل رأيت مدًّا وراءه مدّ، وراءه مدّ!

- آنذاك لم أفهم ممّ تشتكِي كورين التي أحببتها من كلّ قلبي، وكنت لها أفضل زوج كما اعتقدت. قلت لها: راقبتكِ تزدادين نضجاً وجمالاً ونجاحاً، راقبت أولادنا يكبرون ويثبتون ولاءهم للحياة، راقبت تضامننا كلّ يوم، كلّ إخفاق وكلّ إنجاز.

كانت تضيق ذرعاً كلّما ذكّرتها باستقرار حياتنا، ولم يكن لديّ ما أقوله أو أدافع به عن نفسي، وكيف أدافع عن نفسي وأنا لم أرتكب أيّ خطأ، لكنّني أدركت وقتها أنّنا مختلفان، وأنّ فروقنا ماثلة في العقل، عقل مغامر يقبل أن ينسف كلّ شيء في سبيل رغبة، وعقل بنائيّ يؤمن بالمثال، ولا يمكننا الوصول إلى تسوية، فالعقل لا يقبل التسويات، ما أراه نموذجيّاً تراه كورين شاذًّا، وهكذا...

لقد انطبعت زوجتي بطباع السلاحف/استوقفتني كلمة زوجتي/صارت تقيس حياة البشر على حياة تلك الكائنات القبيحة. هل تأمّلت في وجه سلحفاة يوماً يا جمان؟

- لأ.

- مثل وجه بشريّ عتيق حرمته الطبيعة من سماحتها.



كورين تقول إنّ حياة السلاحف تلخّص حياة المخلوقات كلّها، تترك أولادها لقوّة الحياة، وتقتل بشجاعة قناديل البحر، ومن يستحقّ منها الاستمرار سيستمرّ. رحلتها الوحيدة التي تقوم بها خارج عالمها الحقيقيّ، البحر، هي من أجل أن تضع بيوضها المئة والخمسين أو المئتين، على جزيرة آمنة، تحفر في الرمل الدافئ، وتطمر، وترجع مرّة أخرى إلى البحر. هذه الرحلة التي لا تتجاوز أمتاراً قليلة على اليابسة، محفوفة بالمخاطر، إذ يترصّدها كلّ من حولها: النسر، والضبّ، والسلطعون، كلّ يريد قتلها، وهي لا تريد سوى العودة إلى الماء، حتّى أولادها لن تراهم أبداً، ولو صادفتهم في منطقة من المحيط لن تعرفهم. وحده تحدّي السرعة هو الذي سيجعلها تصل إلى الماء، والسلاحف بطيئة، فهي تحمل بيتها الأخضر، ذاكرتها، ولا تستطيع أن تلقي به أبداً لتجري بشكل أسرع، بيتها هو الذي يقتلها، نصف كيلو متر في الساعة على اليابسة فحسب، والماء قريب جدّاً وبعيد جدّاً! حتّى حملها بأولادنا قاسته كورين على عالم السلاحف، إن ارتفعت حرارة البيئة الحاضنة كانت الفقسة إناثاً، وإن انخفضت، فالفقسة ذكور. رتّبت لحملين ذكوريّين في جوّ بارد، وحملت بالبنت في جوّ حار، وأصابت التجربة في كلّ مرّة!

فكّرت: كيف يمكن له أن يكون مع امرأة، ويرتّبان لحمل مدروس، ولقاءات جسديّة حميمة، وحسدت تلك المرأة التي لا أعرفها... لكنّها زوجته طبعاً، كيف لي أن أكون بهذه السذاجة!



تابع ناصر:

- أرقتُ لليال بعد هذا الحديث الذي بدا ديباجة النهاية، وتلبّستني فكرة (الآخر)، التي صارت تستفزّني. فهل عرفت كورين شمساً أخرى ضوؤها أقوى من ضوئي الذي همت مع الاعتياد، فامتدّت ساق حبّتها نحو الضياء الجديد، وأنبتت أوراقاً صار لها حياتها البعيدة عن نسغي! كانت هذه الفكرة وحدها تفقدني أعصابي، وتقذفني في مهاوي الغيرة والغضب والإرهاق. ثمّ الأولاد، ماذا سيحلّ بهم بعد أن عاشوا حياتهم في ظلّ هذا الوئام؟! لا أعرف مع من ذهبت كورين، وربّما لم تذهب مع أحد، ولم يكن هناك أحد، لكنّها واثقة من أنّها لاتريد أن نكون معاً، أو إذا قسوت على نفسي أكثر، سأقول: إنّها لم تعد تريدني، حتّى حينما اقترحتُ أن تأتي سارة للعيش معي، لم تمانع أبداً. هي الآن تقيم في جزيرة من جزر جالاباغوس في المحيط الهادي، حيث تعيش أكبر السلاحف الخضراء في العالم.

كان منعطفاً قاسياً، بل أشبه بهاوية، خفت من أن أكون وحيداً، وخفت على الأولاد، لكنّ أولادنا أقوى ممّا نتصوّر. اجتازوا المنعطف بسلام، وكان من السذاجة ألاّ أقتدي بهم. قرّرت أن أترك القارّة كلّها، انتقلت إلى مركز الدراسات الجغرافيّة في دبي، ودبيّ الآن مدينتي.



- أوف... كلّ هذا؟! أنت رجل كبير!

ضحك ضحكة عالية استطاعت أن تشقّ طريقها من بين ذكرياته الحزينة. ضحكته عذبة ورزينة، لا يأبه فيها لتجاعيد قليلة حول فمه، أو لحشوات الخزف الداكنة في أضراسه، وأنا كنت أعني ما أقول، ففي هذه اللّحظة انتبهت إلى أنّ ناصر ليس شابّاً، إنّه كهل، ذاق طعم العائلة، الزوجة، والأولاد الذين صاروا في الجامعة، واستنفد ربّما عواطفه، وشفي من كثير من شهوات الحياة التي ما زلت أتوق إليها. ردّ على عبارتي:

- لكنّ البراكين القديمة إذا ما ثارت، تترك وراءها مياهاً دافئة تشفي من الأمراض، وتربة خصبة تُنبت أجود المحاصيل!

ضحكت أنا هذه المرّة....

قدّم لي وردة حمراء، تناولها من المزهريّة الزجاجيّة أمامنا، وأشار بعينه إلى العازفة، فأقبلت تتهادى بثوب من الساتان سماويّ اللّون، تحتضن كمنجتها المرصّعة بالكريستال، وراحت تحنو على أوتارها المرتجفة. بموسيقى فريد الأطرش: (ليه الدنيا جميلة وحلوة.. وانت معايا، وانت معايا...)!

هذا الذي كنت أظنّه يحدث في الروايات والأفلام، حدث معي تماماً.

- تسمع موسيقى عربيّة!
- طبعاً، إنّه إرث شهيرة خانم، نسيت أنّ ماما عازفة عود قديرة!



فيما بعد، عرفت مدى شغف ناصر بالموسيقى العربيّة، كان يدندن بين الفينة والأخرى، أغانيَ كلاسيكيّة حتّى أنا لا أعرف كلماها، يعرف نوع المقام، وأسماء المغنّين والملحّنين. مرّة كنّا نتمشّى وسط البلد، دخلنا سوق البخاريّة، كان هناك محلّ لبيع الأعواد الشرقيّة، وكان فيه شاب قد جلس يدوزن عوده. قال ناصر: تعالي، تعالي...

جلسنا جنباً إلى جنب على كرسيّي خيزران أمام المحلّ الضيّق، نادى ولداً يحمل صندوق تلميع للأحذية، خلع حذاءه، ليلمّعه له، بينما أسلم نفسه لنغمات العود، كنت في غاية التعب، احتضنني بذراعه، وغفوت....

صنع صاحب المحلّ لنا شاياً، وبدأ الشاب يعزف، بناء على رغبة ناصر، أغنية "البيض الأماره.. كانوا ظلموني.. والسمر العذارى.. يا ريت ينصفوني..". قال إنّها لعبد الغني السيّد، مطرب رائع لم ينل حظّه من الانتشار. اشترى عوداً مصدّفاً، ونقد العازف فوق ذلك خمسين ديناراً. قلت له إنّه مبلغ كبير، فقال إنّها أغنية ماما المفضّلة، أغنية طفولتي!

* * *

جغرافيّة ناصر موجعة، لكنّها مثيرة، ومتشكّكة، ومصحوبة بالحنين والأسرار، يحكي عن بلاد مررت بحروف أسمائها مطبوعة على صفحات الورق في كتاب التاريخ، أو كتاب الاجتماعيّات،



أو التربية القوميّة، ولم يخطر لي أنني يمكن أن ألتقي بأحد قد سكنها يوماً أو عايش حكايات أهلها. مناهجنا لم تهتمّ سوى بالظواهر الحتميّة، بالحمضيّات على السواحل المتوسّطيّة، وبالخضار الباكوريّة في غور الأردن، وبالزيتون على المدرّجات الجبليّة، وبالقطن المصريّ، ويؤكّد لنا المدرّسون كلّ سنة أنّ نهر الفرات ينبع من جبال طوروس، وينبع النيل من بحيرة فكتوريا.

وجدتُ تجربتي ضئيلة أمام رحلة التحوّلات التي عاشها ناصر، لكنّها ما تزال طازجة، وما تزال ندوبي تأخذ شكلها في نفسي، بالنسبة إلى ندوبه العميقة المتقرّنة. انسحبت من الحديث قليلاً باتّجاه الداخل، وأنا أراجع تفاصيل المكان الذي جئت منه، البيت والمدرسة والحارة، وبابا، وماما، وجود، وسلمى....

مرّر ناصر سبابته على خدّي، فسرت في جسدي رعشة، وعدتُ إلى جلستنا:

- أنا وحيدة، وغريبة! لا أعرف ماذا سيحلّ بي غداً، وهل سأرى أهلي ثانية أم أنّني فقدهم إلى الأبد، هل سيحصل لي ما حصل لعمّتي لمياء التي عاشت مع زوجها العراقيّ في بغداد، ثمّ أغلقت الحدود بين البلدين وانقطعت أخبارها عنّا تماماً. أنجبت عمّتي لمياء أولادها، ومات أبواها، ثمّ مات أخوها الأكبر، وهي لا تعلم عنهم شيئاً، وليس ثمّة من يمكن أن يخبّرها بشيء، حتّى



طيور السماء لا تستطيع عبور الحدود بين البلدين بسبب خلاف جناحي حزب البعث. أيّ سوريّ يقابل عراقيّاً ولو على رصيف في مدينة بعيدة، سيتّهم بالعمالة، وأيّ سوريّ يقابل مواطنه الذي مرّ يوماً بتلك البلاد، سيختفي من على وجه البسيطة، ولا سيّما إذا ما وصل خبره إلى العقيد "جبّار"، الذي كان مسؤول الملفّ العراقيّ في المنطقة الشرقيّة. العقيد جبّار أيقونة الطغيان لتلك المرحلة، يمكنه أن يفرّق بين المرء وزوجه، وأن يؤكّد لك أنّك كنت في بغداد، حينما كنتَ في الخرطوم، وأنّ كلّ الهدايا التي ستضعها بين يديه، من ذهب نساء العائلة، إلى تنكات الجبن والسمن، إلى رزم الأوراق الماليّة، هي غير مردودة، لكنّها لن تعيدك إلى بيتك حينما يكون التقرير الذي كتبه جارك أو زميلك في العمل، أو ابن عمّك أخي أبيك، دسماً، بحيث ترد فيه مفردة العراق أو ما يتّصل بها لمرّة واحدة على الأكثر. ما كانت عمّتي لمياء لتتزوّج بعراقيّ لولا مرض السلّ الذي أصيبت به، وذهبت للعلاج في منتجع (بحنّس) في لبنان، وهناك التقت بـ "حسن شرّاد"، صاحب إحدى أشهر صالات السينما في شارع السعدون في بغداد، والذي كان يخضع أيضاً للعلاج. تقاربا مثل أيّ رجل وامرأة يمتلكان شيئاً مؤثّراً



ومشتركاً، الهواية ذاتها، أو المأساة ذاتها. أَسَرتها فكرة أن يمتلك رجل واحد كلّ هذه الأفلام، والممثلين والكومبارسات، ويأتي كلّ هؤلاء المتفرّجين لينتظروا إشارة البدء التي يصدرها. هكذا كانت تتصوّر فكرة السينما. وأحبّها شرّاد لأنّها تشبه سعاد حسني، شيطانة حلوة وبريئة. حين سألها عن المهر الذي تريده قالت له: أريد كرسيّاً محجوزاً في السينما، لا يقترب منه أحد، سواء غبت عن العرض أم حضرت، وكان لها ذلك. مرّت على عمّتي لمياء حروب طوال: الحرب العراقيّة الإيرانيّة، واحتلال الكويت، والاندحار والحصار، ودخول قوّات التحالف إلى العراق....

مع سقوط بغداد، سقطت السينما بصاروخ، وراح معها كرسيّ عمّتي المحجوز لها أبداً، وقبله رحل زوجها، وكان عمّي فيصل الذي غادر إلى بغداد مع عائلته، حتّى ذلك الوقت سلوتها، فغادروا، واعتراها الفقد. عادت العلاقات السوريّة العراقيّة إلى التقارب، ومحيت من على جوازات سفرنا عبارة "مسموح السفر لكلّ الدول العربيّة ما عدا العراق"، وقتها علمنا أنّ عمتي لمياءِ قد غبرت مع الغابرين. هل تظنّ أنّني سأكرّر التجربة من قريب أو بعيد؟ سيكون لي المصير ذاته، غريبة ووحيدة!

أطلت في حديثي، لكنّني لم أشعر أنّ ناصر قد أصيب بملل. كانت حقيبة الحكايات التي أحملها على صغرها، تحتوي وقائع



ثمينة، صنعتها المماحكات بين الغايات النبيلة وتجهّم الزمن. فَـرَدَ ناصر كفّي اليمنى وصار إبهامه يرسم على باطنها دوائر رقيقة:

- الوحدة يا جمان درب لا يسلكه فرد واحد، كلّنا معاً، لكن لا يتعرّف أحدنا فيه على الآخر. كثرٌ هم الرفاق في الطريق، لكنّهم مشغولون بداخلهم عن خارجهم، لو أطلّ واحدنا من سجن نفسه والتفت إلى جنبه سيلقى رفيقه. منذ أن يغادر المرء رحم أمّه تبدأ وحدته، لأنّه يبدأ تمييز الجغرافيا، قبل ذلك لا يهتمّ بالتمييز، جغرافيته هي جغرافيّة أمّه ذاها، يمكنه احتمال وحدته في الحياة لأنّ هناك دائماً من يمنحه بوصلة، أقرباء، هواية، عصفور، مدرسة، تجارب لآخرين، لكنّ وحدته تتجلّى على أشدّها لحظة موته، سيواجه الموت وحيداً مهما كان عدد الناس من حوله، وسينتقل إلى جغرافيا مجهولة، بينما يبقى الآخرون ولو مؤقّتاً في جغرافيّات أليفة، لها خرائط، وثمّة من يمنح بوصلة. المدن في الحرب كلّ تخوض معركتها وحيدة وغريبة عن نفسها، فالحرب تغيّر الجغرافيا، نفقد فيها العادة، والألفة، والطريق، ومخارج النجاة. الحرب اختلال، مثل أيّة ظاهرة بيئيّة طارئة، الاحتباس الحراريّ مثلاً، إنّه يأخذ وقتاً طويلاً ليتكوّن، مثله مثل أسباب الحرب المتراكمة تاريخيّاً، وحينما يحتدّ، يتغيّر توزيع كتل الهواء، فتتغيّر طريقة



توزيع الأمطار، تجفّ مناطق، وتحيا أخرى، مثلما يحدث مع الناس في ظل الحرب، يفقـر بعضـهم ويزدهـر المستفيدون. كذلك يذوب الجليد، ويرتفـع مسـتوى سطح البحر، وتزداد درجة حـرارة الجـوّ، وتتآكـل الشواطئ، وتغرق الأراضي حول الأنهـار وسـهولها، وتختفي بعض الجزر. ودائماً هناك فئة مستفيدة من هذا الخراب كلّه، في الحرب يعمل المتورّطـون فحسـب، الباقون ينتظرون، وسواء أكانوا مستسلمين أم جزعين، فالجغرافيا وحدها ستحسم المعركة.

بدا ناصر لا يهمّه شيء، صارم، وصرامته معجِبة، وفكّرت: كيف تركته زوجته؟ وكيف رحلت مع غيره، إن صحّ ذلـك؟! رجل قويّ، وواثق، وعطوف، لا حدود لعمق عينيه، وبدت يداه شهيّتين لعناق حارّ، لكن لا أحد يمكنه أن يحكم على رغبـات الآخرين. تذكّرت "خلود" جارتنا الحلبيّة المتوقّدة ذات الشـعر الأحمر المصقول كشعر دمية روسيّة، كانت تقـول: الرجـل لا يظهر على حقيقته إلاّ حينما يرتدي البيجاما!

قال ناصر، وما تزال كفّي في كفّه:

- أفضل طريقة من أجل الانتماء إلى مكـان مـا، هـي محاولتنا الحثيثة للتأثير فيه، لتغييره نحو الأفضل، يمكننا أن نبدأ بتغيير حياة شخص واحد فحسب، ينطبق هذا على التغيير الإيجابيّ والسلبيّ على حدّ سواء، تغيير عنصر من



عناصر البيئة يؤثّر في التوازن الكليّ: التشجير مثلاً، وزيادة المساحات الخضراء، يزيد من فرص سقوط الأمطار، فيزيد في منسوب المياه في المسطّحات، ترتوي الكائنات، وتعيش... يجب أن يكون لدينا المهارات لفعل التغيير، والتعليم هو المهارة الرئيسة، بالتعليم يمكن للمرء أن يفتح الأبواب الموصدة، يا جمان، المفاتيح كلّها معك لتشعري بالانتماء، لا بسبب المعرفة فحسب، بل لأنّك مختلفة.

لم أشأ أن أسأل ناصر ماذا يعني بمختلفة، أو لماذا، لقد اكتفيت. هناك مرّات قد ترتكب فيها أيّة كلمة زائدة فعلاً تدميريّاً، وعلينا أن نعرف جيّداً متى نتوقّف عن الكلام، لذا طلبت إليه أن ندفع الحساب ونمضي.

أدركت فيما بعد أنّ ناصر مولع بتحدّيات العقل. ترافقنا مرّة إلى المول، لشراء بعض حاجيّاتي المنزليّة. حين خرجنا استوقفنا أحد مندوبي الشركات السياحيّة، وقال إنّنا سنفوز برحلة إلى الغردقة بتنظيم شركتهم، إذا ما استطعنا الإجابة عن الأسئلة التي سيطرحها:

- مِن عجائب الدنيا الجديدة؟
- البتراء.
- أطول نهر في العالم؟
- النيل.



- آخر أسرة حكمت روسيا القيصريّة؟
- آل رومانوف.
- رئيس وزراء بريطانيا أثناء العدوان الثلاثي على مصر؟
- أنتوني إيدن.
- كلّما أخذنا منه يزيد؟
- الحفرة
- مخترع آلة القانون؟
- الفارابي.
- بطلة فيلم (امرتان)؟
- صوفيا لورين
- ...

احتضن ناصر كتفي، وشدّني إليه بقوّة، ثمّ أمسك رأسي، وهو يقول: أحبّ هذا الرأس المليء بالأشياء الجميلة! أدركت حينها أنّني دخلت معه في تحدّ عقليّ.

لقد بدأنا أنا وناصر تاريخاً مشتركاً وإيجابيّاً، ما دام قد بدأ بتحديد المفاهيم، وبكلّ الصراحة والشجاعة التي يقتضيها نشوء علاقة شفّافة بين رجل وامرأة، لا بمكاشفات العواطف والرغبات كما درج عليه عرف العلاقات. التصريح بمواقفنا من المحظور الآخر القيميّ أكثر خطورة، فهو ما نخشى حتّى من مواجهة أنفسنا به كي لا نفقد احترامنا لها، كأنْ نحدّد لغويّاً مفهومنا للوطن، وللخيانة، وللهويّة، بلا رياء، وأمام شخص ما يزال



غريباً، في ظلّ عقدة أمنيّة مستفحلة، فكّكتها المعارضات السياسيّة، لتبني منها عقداً أكثر عنفاً ودونيّة. حينما تفرد خريطتك القيميّة الأصليّة أمام شخص ما، فهذا لا يشير إلى شجاعتك بقدر ما يشير إلى أنّك بصدق تريده. عرفت معه مشاعر أخرى جميلة، قد تجمع بين رجل وامرأة، غير الغرام، فماذا عن الفرح؟ ماذا عن البهجة والوداد! أحببت أن أكون معه دائماً، وفي كلّ مكان، أن أكون معه فحسب، أن أبكي معه، وأضحك معه، وأن أحكي آمنة مطمئنّة معه، ليس غير ذلك. وفي اليوم الذي لا أكون فيه معه، أصير مثل كاتب شغوف، نذر أيّام حياته للكتابة اليوميّة، ثمّ انقضى يوم، ولم يكتب فيه شيئاً!



ممرّات ضيّقة





مكتبة
الفكر الجديد

تمنّيت، مثلما لم أتمنَّ من قبل، أن أعفى من زيارة مخيّم الزعتريّ للاّجئين السوريّين! كانت الفكرة تشبه جحارة ترجم قلبي، ولو تراجعت عنها، لكنت بلا مهنيّة، مثل آيّة امرأة يلزمها الحنين بجلس وراء صفحة الفيسبوك، وتتغنّى بالأسى. لا بدّ من زيارات عدّة لأتمّم البيانات التي أعمل عليها، وأعدّ تقاريري حول وضع النساء في النزاعات المسلّحة.

كانت منظّمتنا واحدة من حوالي أربعمئة منظّمة من ثمانين بلداً في العالم، قد ساهمت في صياغة المعايير الدنيا للاستجابة للكوارث، وإعداد المخيّمات تحديداً. التقدّم شمالاً نحو المخيّم هو مهمّة عمل، بالنسبة لكلّ من تمارا وبيتر زميليّ في المكتب، أمّا بالنسبة إليّ فهو التعرّف إلى وجهي الآخر، الذي كان عليّ أن أكونه، أو أن يكونه أحد من أفراد أسرتي، لولا قرار اتخذه شخص منهم في الوقت المناسب. فجلّ السوريّين في الزعتري، كانوا قبل قليل أقوياء، لهم بيوت، وممتلكات: محلّ، أو قطعة أرض، أو وظيفة... فصاروا في غمضة عين مستضعفين في الأرض، لنزوحهم من القصف الذي طالهم، ومن العصابات التي هاجمتهم في ديارهم، أو لسبب موقفهم ممّا يحدث، أو لدينهم، أو لطائفتهم....



ينبسط المخيّم على أرض مستوية، كإشارة وحيدة، ووهميّة إلى إمكانيّة الثقة بالعالم، وعلى مقربة من وطن يحترق بالحرب التي يمكن للجميع أن يرى دخانها في كلّ وقت. كان التحدّي الأوّل هو الوصول إلى اللاجئين، وسماح السلطات لنا بالتواصل معهم، حيث كان عليّ من أجل التعامل معهم، أن أتعرّف إلى طاقاتهم قبل رصد احتياجاتهم، كما يقول الدليل الذي وضعته المنظّمات الدوليّة. ما يزال المخيّم قيد الإنجاز، مدينة قائمة بذاتها من المنكوبين، والذين يعمل على خدمتهم مئات من البشر، قد يكون لكلّ منهم نكبته الخاصّة أيضاً، وقد جاء ليكفّر عن سببها، أو لينساها، أو ليهرب منها، تماماً مثل الدول التي تزوّد المخيّم بالمعونات، وقد كان لها يد طولى في تبعثر ناسه وتجميعهم من بعد، وتحويلهم إلى لاجئين. دول تقتل بيد، وتدفع الدية بالأخرى.

المشرف من علٍ سيرى قطع "ليغو" صفراء مركّبة على أرض ترابيّة، الخيام المصفوفة المتجانبة في خطوط متوازية، تشكّل شوارع المخيّم، وتحمل كلّ منها دمغة الـ UNHCR، المفوّضيّة العليا لشؤون اللاجئين، وداخلها حكاية صادقة، وحكاية مدّعاة، فهناك من ترك بيته مرغماً، وهناك من تركه لأنّ المخيّم أفضل، وهنالك من لا بيت له أصلاً. إنّه عالم من الضحايا، يتحوّل بسرعة، وينشطر ليكوّن ضحايا الضحايا، وجلاّدين، ولصوصاً، وتجّاراً، ووعّاظاً، وناشطين احتماعيّين وسياسيّين، وشعراء، وعشّاقاً...



رحت أجيل النظر على عجل، وكأني أريد من عيني أن تصوّر التفاصيل كلّها، قبل أن يدركها مطارد ما، يوقفها، أو يمنعها، سأترك بعدها لعقلي أن يستعيد صور الحمّامات مسبقة الصنع، علب مستطيلة من البلاستيك مغلقة من جوانب ثلاثة والرابع الذي يعطيه المستخدم ظهره، مفتوح للعراء، فيها حفرة في الأرض ملبّسة بطبقة بلاستيك، يقضي فيها الناس حاجتهم، ورشّاش للماء مثل مظلّة صغيرة للاستحمام. الأباريق البلاستيكيّة البيضاء ذات الأعناق المعقوفة متناثرة في كلّ مكان، للغسل، والتنظيف، ونقل الماء، والشرب، والمداخل تسفلت الشوارع بين الخيام، وعمّال الكهرباء يمدّون خطوط الشبكة، وخيمتان متّصلتان تحوّلتا إلى جامع تقام فيه الصلوات، وعلى أحد مدخليهما وضعت طاولة عليها صندوق لجمع التبرّعات، يحرسها شابّ بلحية وجلابيّة قصيرة، ومكتب الاستقبال، ورجال الأمن....

حين دخلت الشارع رقم (5) كان منجزاً، وكان ساكنوه في خيامهم، والأطفال يلعبون أمامها، يتأمّلون كل قادم ليكوّنوا ذاكرتهم الأبديّة، سيعيشون بها، وسيكتبون منها، ويرسمون، ويحكون. ثمّة بيوت أخرى مصفوفة بعيداً، بصفّ واحد متعامد مع الشوارع المتوازية، بيوت مسبقة الصنع أو "كرافانات" يختصّ بها الموظّفون، لتعزيز الفروقات بينهم بوصفهم أقوياء وقادرين وكرماء، وبين اللاجئين بوصفهم مستضعفين، هم أيضاً لا



ينتبهون إلى أنّ عليهم التوقّف عن الاجتماعات في الفنادق الفاخرة من أجل ورشة عمل، وعن إقامة الولائم عند إطلاق مدوّنة أو توقيع معاهدة، مثلما يفعل السياسيّون تماماً. إنّ على أحد ما بأن يقنعهم أنّ ما يقال تحت سقف أوتيل "كمبينسكي"، يمكن أن يقال تحت سقف خيمة من كتّان، ومع مزيد من الإنسانيّة.

ينتشر متطوّعون من جهات شتّى، يعملون في مهمّات منظّمة، ويحاولون مجابهة السواد بغريزتهم الإنسانيّة الطازجة، وبعد قليل سيستسلمون، ومنهم من سيُقتل في سبيل الآخرين برصاص طرف ما من الأطراف المتقاتلة، وسيهرب منهم من سيعاني من فساد المديرين، أو بيروقراطيّتهم أو غيرهم، أولئك الذين يظنّون أنّ العمل الإنسانيّ مثل إدارة دكان خاصّ أو مؤسّسة حزبيّة، فيضعون العصي في العجلات لكلّ فكرة مغامرة، كيلا يلمع اسم صاحبها في إسعاد البائسين، ويطمس أسماءهم الرخوة. سيكتشف أولئك الشباب الذين وجدوا ذواتهم في العطاء أنّ العمل الجماعيّ فكرة نبيلة، لكنّها تسقط في التطبيق، وأنّ هذا ديدن البشر، وأنّها لا تختلف عن كرة القدم، وأنّ المنكوبين رغم ذلك يتمسّكون بأولئك المتطوّعين، يتعقّبون نظرات عيونهم الواثقة، ظنّاً منهم أنّهم يعرفون أكثر، وأنّهم أقوى، وقد يكمن الفرق في أنّ هؤلاء يتصرّفون بمنطق من هو آمن، وسيعود في النهاية إلى بيته وعائلته، متبجّحاً بأسطورته، وأولئك يتصرّفون بمنطق من فقد الأمن،



وفقد معه حتّى أسطورة الخلق المتوارثة، وراح يبحث عن أخرى حديدة، بلا أوتاد، أسطورة أضعف من خيمة الأونروا.

* * *

أطلّت من خيمتها، امرأة بدينة، ترفع ثوبها السبنيّ المرقش بالأحمر، وتشكل ذيله في حزامها الجلديّ، فيبين بنطلونها الصوفيّ البرتقاليّ من تحته، وقد أدخلت نهاياته في جوارب نايلون داكنة، أسفلها حذاء من البلاستيك. لقد لفّت شعرها بطرحة سوداء، غطّت حنكها. أمسكت حبل الخيمة المعضود بوتد حديديّ، وصرخت بشباب متطوّعين يوزّعون علباً كرتونيّة من شاحنة صغيرة:

- لا أريد المزيد من أواني الطبخ! عندي فائض منها، تعالوا خذوها. أريد أن أعرف فقط ماذا سيحلّ بنا حينما ينزل المطر؟!

لا أحد يستطيع الإجابة عن سؤالها طبعاً، حتّى الأمين العام للأمم المتّحدة ذاته. ترك الشباب العلبة أمام الخيمة، ومضوا...

خرجت من ورائها صبيّة باسقة، لا تكاد تبلغ العشرين، طويلة، وممتلئة، وعجيزتها كبيرة، ترتدي ثوباً صوفيّاً نيليّاً يصل إلى ركبتها، وتحته بنطلون جينز، وبوط بلاستيكيّ حائل اللّون كأحذية عمّال النظافة، وقد غطّت شعرها المحنّى بكوفيّة رماديّة. بشرتها خمريّة، وعيناها كحلاوان واسعتان. ابتسمت الصبيّة في



وجهي، وأنا أقترب بخطوات هادئة، فبانت أسنانها البيضاء قويّة كما بدا لي. لكنّ الأمّ صرخت بـــي:

- صحفيّة! لا نريد أن نقول شيئاً، دعونا وشأننا.

لم يكن معي كاميرا، كنت أكتفي بصور الموبايل، لكن ربّما أثارها دفتر الملاحظات والقلم في يدي، والسترة الرماديّة الـــتي عليها "لوغو" المنظّمة بألوانه المتعدّدة التي تشير إلى "تضامن". لم تكن لهجة المرأة التي تبدو أمّ الصبيّة، من لهجات المدن السوريّة أو قراها، ولم يتحلّق حولي أحد كما يفعل النـــاس في المخيّمـــات عادة، الأطفال مشغولون بلعبتهم، يجرون خلف بعضهم البعض، ومجموعة منهم تحلّقت على مبعدة فوق التراب، كأنّهم رجال في مجلس جادّ.

قلت لها إنّني دكتورة، جئت أسألهم عن احتياجاتهم. كـــان لقب دكتورة يساعدني كثيراً، إذ يظنّ الناس أنّني طبيبة، فيبدؤون بالشكوى، إلى أن أكشف لهم أنّ دكتورة لا تعـــني بالضـــرورة طبيبة، بعد أن أكون قد كسبت ودّهم.

لم تبال المرأة بـــي كثيراً، دخلـــت خيمتـــها، وقالـــت لي الصبيّة: تفضّلي.

خفضت رأسي تفادياً للاصطدام بالغسيل المنشور على حبال بلاستيكيّة زرقاء، تمتدّ بين أمراس الخيمة. في الداخل، المكان مرتّب ونظيف، مثل أيّ بيت سوريّ ريفيّ، مع اعتبارات اللّجوء، إذ لا أثاث، ولا زينة، كلّها أشياء أوّليّة، قادمة مـــن الـــبلاد، بســـط،



وقطرميزات جبنة، وزيتون، ومكدوس، ومربّى الورد، وما تبقّى من أعطيات اللّجوء: مجموعة من الفرشات الإسفنجيّة المفروشة على هيئة مقاعد، ويبدو أنّهم استطاعوا الحصول على أكثر من حصّتهم، إذ جعلوا الفرش في طبقتين، ووسائد جُعلت مساند، ومراكي، وفي الزاوية مطبخ فيه موقد غازيّ صغير، وعدّة طبخ، وطناجر، ودلال قهوة، وإبريق، وعلبة زيت قلي، أكياس سكّر وأرزّ وشاي، ما تزال في أغلفتها. كلّ شيء نظيف، وفي مكانه، وبجانب مجلسنا مدفأة غاز، وتلفزيون وجهاز ريسيفر للستلايت.

قالت المرأة للصبيّة بصوت قريب من النباح:

- صابرين، اعملي شاي للدكتورة.

أوقدت صابرين الغاز الصغير، ووضعت في الإبريق ماء من الغالون البلاستيكيّ الأبيض، وأنا أبحث عن مفاتيح الأمّ التي ما تزال بعيدة عنّي. صبّت الشاي الحلو، ووضعت ورقة نعنع في كلّ كأس، فأخرجت الأمّ من تحت الوسادة باكيت دخان "حلواز"، وأعطتني سيكارة، وهي تقول: هاتي الولاّعة يا صابرين، في لهجتها لكنة مصريّة واضحة.

تناولت منها السيجارة كي أغدو أقرب:

- هل أنت مصريّة؟

- أيوه.

- ما الذي أتى بك؟

أخذت نفس دخان عميقاً، ونفثته فوق، فانتشرت غمامة



بيضاء، رحت أتابعها بمرح، وكأنّ كون المرأة مصريّة لا سوريّة، قد أزاح عن كاهلي ثقلاً ما.

- أنا كنت مصريّة من زمان، وصرت سوريّة منذ ثلاثين سنة، حينما تزوّجت بأبـــي حسن.
- ولماذا لم تذهبـــي إلى مصر؟ إلى أهلك؟
- ليس لديّ جواز سفر، لم أجدّده منذ ذلـــك الوقـــت، وليس لي أهل هناك، لا أعرف عنهم شيئاً.

وبدأنا نستأنس ببعضنا، تساعدنا حركات صابرين الودودة، وتعليقاتها الذكيّة:

- صابرين، اسم مصريّ أكثر من كونه سوريًّا.
- أيوه، سمّيتها على اسم صابرين الممثّلة، أحبّ وجههـــا المدوّر مثل وجه ابنتي، وكـــذلك صـــوتها، وعينيهـــا اللاّمعتين، وامتلاء جسدها، وبدأت صـــابرين تدنـــدن بأغنية شبيهتها:

"على دول يمّه يمّه على دول..."

صوتها حلو فعلاً. قالت الأمّ:

- عندي ميرفت أيضاً، أبو حسن يحبّ ميرفـــت أمـــين، وحسن على اسم جدّه، وسمّينا الآخر حسين.
- وأين هم؟ هنا جميعاً؟

سحبت نفساً عميقاً آخر من سيجارتها، فبان الكحل ساحراً في عينيها، امرأة كيّيفة رغم همّ اللجوء والحرب!



- حسن وحسين، وفّقهما اللّه، في لبنان، يعملان هناك في أعمال البناء منذ سنوات، ويرسلان لنا النقود، كانوا قد عادوا مؤخّراً، ليبدؤوا مشروعاً في البلد، لكن مع أوّل الأحداث غادروا إلى هناك ثانية. وميرفت مع زوجها في صحنايا، جنب الشام، زوجها شرطيّ، ومنطقتها آمنة. أنا وأبو حسن وصابرين جئنا إلى هنا. خرجنا من المليحة، لدينا بيت ورزق وشجر مثمر نعيش منه، تسلّل مطارَدون إلى دارنا، قالوا إنّهم ثوّار ضدّ النظام من لواء الحرّية، التحرير لا أعرف! استولوا على المكان كلّه. سكنوا البيت، وقالوا بإمكاننا البقاء، لكن كيف نبقى مع رجال غرباء، وعندي بنت صبيّة! أبو حسن قال: سيحوّلوننا خدماً، ومن الأفضل أن نترك البيت، ونعود لاحقاً، فلن يحملوا معهم الحيطان! حينها بدأ النظام يقصف المنطقة بالصواريخ من معسكر قريب. خرجنا في ليلة ما فيها ضو قمر، نحن وجيراننا، وهم أبناء عمومة أبو حسن. انتقلنا بين البساتين، حتّى وصلنا إلى طريق درعا الزراعيّ، كانت رحلة صعبة، دوريّات وحواجز: حاجز للنظام، وحاجز للجيش الحرّ، وكنّا ندفع عند كلّ حاجز خمسمئة ليرة، حتّى وصلنا إلى خربة غزالة، فمكثنا عند أقارب زوج ابنتي ميرفت، لو كان الطريق إلى دارها سالكاً لكنّا ذهبنا! نفدت



أموالنا تقريباً، ولم يكن يمكننا قطع الجسر إلى الحدود اللبنانيّة، التي أُغلقت أصلاً، فاتصل ابني حسن وقال لنا أن نذهب إلى الحدود الأردنيّة، سينقلوننا إلى المخيّم، هنا كلّ شيء ببلاش، ثمّ سنتدبّر أمرنا حين يسمح بإدخالنا إلى لبنان، نحن إسلام سنّة.

- دخلت صبيّة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، وهي تنادي صابرين، ابتسمت في وجهي بخجل، وسحبت صابرين من يدها وخرجتا، وتابعنا أمّ حسن وأنا دردشتنا، وهي تحاول أن تتحدّث بلهجة سوريّة لا تبارح فيها لكنتها المصريّة....

- حكايتي طويلة وصعبة يا ابنتي، قالت:

منذ أكثر من ثلاثين عاماً، كنت أزور في الحسين، يوم المولد، اللّيلة الكبيرة، جئت مع زوجي الأوّل من دمياط، وخيّمنا هناك قبل ليلتين أمام المزار، لا ننقطع عن الصلاة والدعاء، ليرزقنا الله بطفل، فلم أحمل على الرغم من مرور ثلاث سنوات على زواجي. حينما وصلنا الحسين كان الازدحام فظيعاً مثل يوم المحشر، أضواء، وموسيقى، وناس بأشكال ولهجات مختلفة، عرب وأجانب، وصعايدة وأرياف، وبيّاعو حلوى وأطعمة، وشحّادون، ومعاقون، ومرضى، وصبايا جميلات. أخذني ذلك العالم الذي لم أر مثله من قبل، الناس فرحون ومدهوشون مثلي. كنت ممسكة بيد زوجي، وكانت قامات الرجال والنساء الأطول



منّي تغطّيني، فأدفعها باليد الأخرى. صرنا نبحث عن مخرج من هذا الازدحام الذي لا يطاق، نمشي نمشي، وندفع النـــاس، ولا نصل إلى نهاية. تعبت، وضاق نفسي، و لم أتوقّف عـــن الـــدعاء ليهبني الله طفلاً ببركة سيدي الحسين والسيدة زينب وكـــلّ آل البيت، وبجاه النبيّ وجاه كلّ من له عند الله جاه، وبعـــد قليـــل شعرت بقشعريرة حلوة تأتي من يدي، إلى ظهري، ثمّ رحمي، إلى أسفل، وقلت في نفسي: لقد فاض عليّ الحسين بعطائه، وشددت أكثر على يد زوجي، ثمّ ارتخت مفاصلي. حينما خرجت مـــن الزحمة، التفتّ إلى زوجي، لكنّه لم يكن زوجي، كـــان رجـــلاً آخر، وكانت يده هي التي أمسكها، بحثت عن زوجـــي فلـــم أجده، وظلّ الرجل يتبعني، من غير أن يفلت يدي:

- لقد كنت أبحث عن امرأة، وأفاض الله بركاته عليّ بجاه سيدنا الحسين، قال الرجل.

لم نمض وقتاً طويلاً في الأخذ والردّ، كانت تلك فيوض لا يمكنني جحدها، غادرت معه، وجئنا إلى الغوطة، ومن يومها لم أعرف شيئاً عن مكاني السابق، لم يكن لي أب ولا أمّ، زوّجـــني أخي لقريب زوجته، الذي ما أحببته يوماً، حتّى جسدي كـــان يرفض أن يحمل طفله، وبمجرّد أن عدت مع أبو حسن، حملـــت بحسن....

لا أدري كيف قلت بسذاجة:

- لو ذهبت إلى مصر، ربّما كان وضعك أفضل؟



- مصر أيضاً خربانة، الخراب في كلّ مكـــان... كلّــه مكتوب.

دخلت صابرين بضحكة عريضة أبانت عن طويّتها اللّعوب، سحبت علبة من بين العلب، كرتونة، أخرجت منــها أكيـــاس نايلون فيها معجون أصفر، محاولة إخفاءهـــا عنّـــي، وهمّـــت بالخروج، صاحت أمّها:

- الكيس بمئة ليرة، ولا قرش أقلّ.

عادت صابرين بسرعة، وقالت إنّها باعت سبعة أكيـــاس، ولم تعد تتحرّص في الحديث أمامي، حينما وجدت أمّهـــا غـــير مبالية أصلاً بأن أعرف ماذا يفعلن أو لا أعرف! رمت النقـــود في حجر أمّها، فلوت أمّها شفتها معبّرة عـــن عـــدم رضـــاها، وقالت:

- كلّ هؤلاء النسوة على سبعة أكياس!

كانت صابرين تأخذ السكّر الذي هو فائض عندهم دائماً، لأنّ أحد العمّال في المخيّم، يغدق عليها معونات إضافيّة، طمعاً في رضاها، فكانت تعقده، وتصنع منه مـــزيلاً للشـــعر، تبيعـــه للنساء، تقول إنّ زبائنها حتّى من بعض العاملات الـــدوليّات، اللّواتي تزيل لهنّ الشعر بيديها باحترافيّة بالغـــة، وتضـــيف إلى خلطاهنّ النعنع والحليب. لمّا رأت الأمّ دهشتي قالت:

- اللاجئون لهم نفس أيضاً، يحبّون اللحم الأبيض، والجلد المقشّر واللاّمع، كلّ هؤلاء الرجال القادرون، يمضـــون



وقتهم مع نساء، وضحكت ضحكة متردّدة، وكأنّها تختبر إحساسي بالدعابة: لهم أشياء تقوم وتقعد، والوقت طويل هنا، والجوّ بارد، والنفوس مقبوضة، لا يريحها سوى التحام الجسد بالجسد، ليس لنا هنا سوى بعضنا، والسكّر كثير....

بالطبع أعرف أنّ الجنس لا يتوقّف، وأنّه يزداد في مثل هذه التجمّعات، تلك المعلومات مكتوبة بجفاف علميّ في كلّ دليل إرشاد يتعلّق بالمخيّمات، وبما يجب على العاملين فيها أن يعرفوه، ثمّ إنّ نسبة توزيع حبوب منع الحمل تبلغ مداها في مخيّمات اللّجوء، حيث تفوق نسبتها في مواسم الحصاد، التي تكون في كثير من المجتمعات فرصة تمنحها الطبيعة لاختلاط الجنسين، لكنْ أن يقال هذا الكلام أمامي بكلّ ما فيه من طراوة الحياة الحقيقيّة، والرغبات المتفجّرة من حمم المآسي، والاحتياجات البشريّة الأصيلة، فذلك أكبر من تجاربي، ومواجهاتي المعرفيّة. ولتخرجني من جوّ المفاجآت قالت أم صابرين، هيّا تعالي غداً لتستلمك صابرين في جلسة تنظيف إن كنت بحاجة إليها، سيسرّ زوجك كثيراً بالنعومة الفريدة التي لم يحصل عليها من قبل، أمّا أنا فسأقرأ طالعك مجّاناً، وتناولت من بين الفرشتين تحتها صرّة خضراء، وفتحتها: انظري، هذه الصرّة من مقام سيّدنا الشيخ محي الدين في الشام، ودعها لا يخيب أبداً. ضمّت الودع بكلتا يديها، وخضّته، فخرجت له وسوسة قويّة، قرّبته من شفتيها،



وتمتمت شيئاً، ثمّ جمعته باليمنى ورمته، قبل أن أقول لها أن تتوقّف، لا أحبّ هذه النزوعات الشيطانيّة، حتّى ولو على سبيل التسلية والمزاح، لكنّني استسلمت، ورحت أراقب وجهها وهي تحدّق بالودع أمامها بجمود، نظرتها بلا حياة، وخطّ لامع مرهِب يخرج من بؤبؤها:

- ستصابين بمرض خطير، وإن نجوت منه، فستعيشين طويلاً...

ابتسمت، وشعرت بابتسامتي معوجّة، قلبت على إثرها شفتي السفلى لأغطّي بها العليا، لقد هزّتني عبارتها من داخلي، لم تكتف، فأردفت:

- قلت لذلك الرجل: سيغادرك ابنك، وستجنّ. نام ابنه ولم يُفق، وجنّت امرأته!

قمت لأغادر، كأنّها طردتني، فطنت إلى أنّني خرجت بلا وداع، وبلا شكر، وبلا ترتيب موعد لزيارة لاحقة، أريد أن أهرب من خيمة الرمّالة، ومن الثقل الذي حطّ على نفسي وأطال من بعد تلك الساعة.

* * *

كانت ليلة باردة من ليالي تشرين الأوّل، وبرد البادية ليس مزحة إطلاقاً، لكنّها لا تنذر بريح، ولا مطر، السماء صافية، والنجوم تبرق مثل عيون قطط طائرة.



خيمتنا تشبه خيام اللاّجئين، تقع في الشارع الأوّل جنوب المخيّم، بموازاة خيامهم، ولا تختلف عنها في شيء، الحصائر والفرش ومكوّنات الطعام نفسها إلاّ أنّ متاعنا قليل، ونمتلك حرّيتنا في الدخول والخروج إلى المخيّم، وفاقاً لعملنا، ولدينا بيوت نعود إليها أنّى شئنا، وأمر البيت بالنسبة إليّ مختلف فيه، فمن بين العاملين جميعاً ربّما أكون الأقرب إلى عالم اللّجوء، فبيتي الحقيقيّ بعيد، أبعد من بيوت الجميع هنا، وإن كانت القلوب كلّها معلّقة وراء الحدود، ثمّ إنّني الوحيدة التي لست من مدينة أو محافظة، بل من ولاية إسلاميّة، وأهلي ما يزالون يقاومون فيها فكرة الانسلاخ عن الجمهوريّة، مثلما يقاومون فكرة اللجوء. بابا يقول بإيمان راسخ: كلّه مكتوب! والذي سيجري عليّ هنا، سيجري في أيّ مكان، سأبقى في بيتي، وسلمى تقول: أنا كذلك، في حين تقترح جود أن ينتقلوا إلى مكان أكثر أماناً، إلى اللاّذقيّة مثلاً، لكنّها سرعان ما تقتنع برؤيتيهما.

كان معي في الخيمة متطوّعتان ألمانيّتان، فتحت كلّ منهما اللاّب توب الخاصّ بها، وراحت تعدّ تقاريرها. الجميع هنا مشغول بإعداد التقارير...

كان معي كيس نومي الأزرق الذي يفيض دفئاً، هدية سامي التي حملها لي من موسكو، فخرجت به أمام الخيمة، وقرّرت النوم في العراء، فقلّما يتاح للمرء أن ينام في العراء، وأن يتأمّل النجوم، كما يحدث في قصص المغامرات. كانت السماء



أليفة جدّاً رغم الغربة الماكثة في الأرض. أستطيع تقرّي الأفلاك، ولو وصلت بقلم بين النجوم المستقرّة فوق، لحصلت على الدبّين الأصغر والأكبر، ما أشبهها بسماء الرقّة قبل العاصفة، وربّما بعدها، حيث نعود ليلاً من عرس أحد الأقرباء، ويكون الناس في الحارات نياماً، فتصفع ريح الشمال وجوهنا الدافئة بنشوة الفرح، نمشي بتؤدة، ونسمع طقطقة الحصى الجاف من البرد تحت أقدامنا، وتقول عمتي ليلى: امشوا بهدوء أكثر كي لا توقظوا الجنّ من منامه!

مرّ بي شبّان ثلاثة من متطوّعي الحماية، كانوا يتفقّدون الخيام، التي يجب أن تهدأ عند العاشرة، حيث تطفأ أضواء المخيّم الرئيسة. سلّط أحدهم مصباحه المحمول على جنبي، وسألني بحيرة:

- ماذا تفعلين؟ يجب أن تكوني داخل الخيمة!
- أتأمّل النجوم....

ضحكوا:

- ممنوع، نرجو الالتزام بالتعليمات.
- غريب، لا يمكن للمرء أن يمارس حريّته حتى في هذا العراء!

قال أوقحهم:

- كلّ هؤلاء الذين يتكدّسون في الخيام، طلبوا الشيء ذاته، الحريّة، لذلك صاروا هنا!



مضى المتطوّعون المتحذلقون، ولم أسمح لـذلك الشـاب باستفزازي، إذ امتثلت للقوانين. أحياناً لا يختلفون عن أيّة سلطة، الرغبة السلطويّة تأكل البشر، وتتخذ أشكالاً لا يمكن التنبّؤ بها، أشكالاً في غاية الإنسانيّة، وأنا منذ وقت ليس بالقصير، لم أعـد أومن بالسلطة، ولا بالعمل الجماعيّ، ولا باللّحان، ولا بالتقارير، كلّها مفردات مضلّلة وسلبيّة.

نصف فرشتي كانت داخل الخيمة، حين لمحت شبحاً صغيراً يركض، ليس حيواناً يقترب باتجاه الخيام، إذ صدر صوت عـن بنت فتيّة: يا آنسة، يا آنسة جمان!

- من؟

كانت "زينة"، بنت في الثالثة عشرة، زرت خيمتهم اليـوم وقابلت ذويها، وتحدثنا، أخبرتني أنّها لا تريد العودة إلى قريتها، كما أنّها ستخرج بالقوّة من هذا المخيّم، ستتخلّص من روائـح البيض المسلوق التي تلتصق بوبر البطّانيّات، فتقلب معدتها:

- زوجة عمّي ضحى تلد الآن....

كانت العائلة المؤلّفة من إخوة ثلاثة، وزوجاتهم قد سكنوا في خيام متجاورة مع أولادهم الكثر، وكانت ضحى العشرينيّة، العروس، على وشك الولادة. النساء في هذه الخيمة كنّ يصنعن أطباق القشّ الملوّنة بألوان مبهجة، صغيرة وكبيرة، أهدتني زينـة واحداً منها، صنعته بيديها، صغير، أزرق وأحمر وأبيض، فأخذته مثل تحفة تقتنيها سائحة، ونسيت أنّني أتعثّر بمثله في بلادي كـلّ



قليل، في الاتحاد النسائيّ، في جمعيّات تنمية الريف، في مهرجانات الطلائع، في الأسواق الشعبيّة....

قالت إحداهنّ إنّ بيتهم قريب، وراء الحـــدود، في درعـــا، وقريتهم اسمها الغاريّة الشرقيّة، قريبة من الطريـــق الـــدوليّ إلى الأردن، وقد هربوا من القصف المستمرّ بين المسلّحين المعارضين والدولة:

لم تنقطع المناوشات منذ أسبوع، خرجنا بملابسنا، أخـــذنا أوراقنا والنقود، وتركنا الدّور في عهدة من لم يخرج من الجيران. معنا أطفال، وضحى دخلت شهر ولادتها، ولا أحد من الرجال سوى زوجها، كلّهم يعملون سائقي سيّارات أجرة على خـــطّ السعوديّة، ولم يعودوا منذ بدء القصف بسبب إغلاق الحدود.

سمعنا أنّهم فتحوا ممرًّا آمناً ليخرج المدنيّون خلال ســـاعات ثلاث، فخرجنا، وركبنا شاحنة، ووصلنا الحدود غير الرسميّـــة، وسلّمنا أنفسنا إلى الخفر الأردنيّ. نريد أن ننام فقط، لا ماء ولا كهرباء، حتّى المؤن نفدت، وجاع الأطفال، نريد أن نرتاح من صوت الرصاص، من صوت القذائف، نريد أن نناااام.

صاحت زينة: نريد دكتور!

كنت قد رأيت الدكتور منهل، طبيب النساء الموفد من قبل إحدى المنظّمات الدوليّة، قد وقّع إذن خروج ليومين، وغـــادر، لكن لم أجبها، فلست مخوّلة. ذهبت معها إلى العيـــادة، ومعنـــا إحدى الألمانيّتين، توثّق كلّ خطوة نخطوها، وكأنّها تعدّ لتكتب



تجربتها الخاصّة بالمخيّم فيما بعد. وجدنا في العيـادة متطـوّعين يلعبون الورق على ضوء مصباح غاز، ومعـارفهم لا تتجـاوز الإسعاف الأوّليّ، لكن قالوا إنّ هناك طبيباً للتوليـد في عيـادة الشارع السابع، وهي بعيدة نسبيّاً في هذا الظلام، وسيقومون هم بإحضاره.

عدت وزينة إلى حيث خيمتهم. كانت ضحى تصرخ مـن آلام المخاض، وزوجها كان في الخارج جالساً علـى التـراب، يحدّق في الظلام وقد استسلم لصوتها، ولليل، ولخبرات النساء من حولها، كما استسلم سابقاً فخرج من بيته، ماذا بيد المرء سوى الاستسلام حين تتعاظم قوى العالم من حول ضـآلته! ضـحى محتقنة، والنساء من حولها كثر، طلبت منهنّ أن يتفرّقن ويسمحن لها بالتنفّس، فامتثلن ظنّاً منهنّ أنّي طبيبة، وبالطبع هنّ أخبر منّي، فأنا لم أشهد ولادة أحد من قبل، لكنّي قلت لها كما كنت أسمع: تنفّسي عميقاً وادفعي، وأمسكت بيدها، وراحت واحدة تمسح عرقها، وأخريات يدعين الله. مشهد بدائيّ شاهدته في التلفزيون عشرات المرّات، وأنا زججت بنفسي فيه بلا أدنى معرفة، وطبعاً هو مخالف لمسؤوليّاتي وأعراف عملي، قلت لها إنّ النساء يلـدن بالآلاف كلّ يوم في الحقل، في الشارع، وإنّ أمّي ولدتني علـى طريق السفر، وكنت أكذب طبعاً. جاء الطبيب، وولدت ضحى بنتاً، وبكيت وقتها، لقد سمّوها جمان، على اسمي، أنا التي لم أفعل شيئاً سوى الكلام!



- أريدها أن تصير دكتورة مثلك. قالت ضحى.

هذه الطفلة السوريّة الجديدة، سيحكون لها عن ولادتها حكاية جديدة غير عاديّة، وستصير أسطورتها التي ستعيش عليها، وترى بها حالها مختلفة، مثلما كان أجدادنا يحكون لنا عن أساطيرهم، في السفربرلك، وأيّام الفرنسيّين، وفي حرب تشرين.

* * *

كانت الساعة قد شارفت على الخامسة صباحاً حينما أوصلني الشابّان المتطوّعان اللّذان كانا في العيادة إلى خيمتي، لم تكن الريح رحيمة وقتها، لكنّها حملت رائحة قهوة مطيّبة بالهال من مكان ما، لقد استيقظ أحدهم، وبدأ ممارسة عاداته الوطنيّة، التي لا يمكن للّجوء إيقافها، دخلت في الفراش، فاكتشفت أنّني مهدودة من التعب، وتنامى إلى مسمعي صوت حوار رصين تنمّ أصوات المشاركين فيه على أعمار بين الطفولة واليفاعة، قال أحدهم:

- دائماً ما أتخيّله يلبس لباساً ذهبيّاً، ويغطّي رأسه بتاج ذهبيّ أيضاً، وفي يده عصا ذهبيّة، يهزّها بشكل عموديّ، وهو في فضاء، ربّما هي السماء، ووجهه جميل جدّاً.

قال الآخر:

- أنا أراه يشبه جدّي صلاح، لكنّه أضخم، يلبس شروالاً أسود، وقميصاً أزرق، وعلى رأسه حطّة حمراء،



ويقرفص على ركبتيه، وبينهما قد أشعل بابور كاز،
وراح يقدحه بين الفينة والأخرى، لا يستند إلى أرض،
بل يثبت في نقطة من الأفق!

الثالث كان له نبرة مختلفة، تتآكل الحروف بسبب صوته
الضاحك:

- احزروا كيف كان يتخيّله أخي عدنان! كان يذهب إلى دكّان حمدي، ويقف ليتأمّل علبة طعام الأطفال، "سيريلاك"، علبة معدنيّة وعلى طرفها صورة امرأة جميلة بشعر ينسدل على رقبتها. كان يقول لا بدّ من أنّ هذا هو الله.

- طبعاً، لديها القدرة على إطعامه، والطعام أهمّ شيء في الحياة بالنسبة إلى عدنان.

- أمّي تقول إذا تساءلنا عن الله، علينا فقط أن نقرأ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، عندها ستهدأ أسئلتنا، ونتخلّص من وسوسة الشيطان.

- لا أحد يعرف شكل الله، لكنّه جميل جدّاً، ورحيم...

كان صوت الأولاد الثلاثة الذين جلسوا خلف خيمتي، يقوم مقام الحداء الذي يقود إلى النوم، هادئاً ومطّرداً، وحوارهم أيضاً كان أليفاً، إذ طالما تساءلنا أنا وجود وسلمى عن الله، الذي قالت عمتي ليلى إنّه سيعزّنا دائماً، لذا لن يتمكّن أحد من



إذلالنا، وكنّا حينما نستلقي في عليّة بيتنا في ليالي الصيف، تكون السماء قريبة جدّاً، فتقول سلمى: لو وضعنا سلّماً فوق سلّم فوق سلّم هل نصل إلى الله؟! هل هو وراء هذه السماء؟ تجيب جود: ربّما لو ربطنا حبالاً بالقمر وتسلّقناها لوصلنا إليه، وكانت ماما تقول: لا أحد يستطيع الوصول إلى الله، هيّا ناموا، اقرؤوا "قل هو الله أحد" وناموا. ويبدو أنّ الأمّهات جميعاً يمتلكن، حول الله، الإجابة ذاتها!

عدت إلى المخيّم بعد أسبوعين، وحملت لجمان الصغيرة ألبسة جديدة: قبّعات، وحرام صوف أبيض مطرّز بخطوط فضيّة، وآفرهولات صغيرة لم تقنعني مقاساتها التي تناسب الألعاب لا البشر، وحلوى لأهلها. كبرت الوليدة في أسبوعين، وكانت تقبل على ثدي أمّها بشجاعة. أعطوني سرّتها ملفوفة في خرقة ملوّنة، وقال أبوها: أرجوك ارميها في مدرسة أو جامعة، أريدها أن تصير مثلك دكتورة. وفكّرت: ترى أين رميت سرر كلّ هؤلاء اللاجئين حينما كانوا أطفالاً؟ هل رميت في العراء مثلاً، فكتب أهلهم مصير أبنائهم بأيديهم، وأنا كنت كلّما سألت ماما عن مصير سرّتي كانت تجيبني إجابة مختلفة، مرّة في المدرسة، ومرّة في المكتبة، ومرّة تزجرني قائلة: توقّفي عن الكلام الفارغ!





في تلك الآونة، بدأت تجتاحني نوبات من السعال الحادّ، سعال جاف ومتواصل، تزداد وطأته في اللّيل، فلا أنام جيّداً، وأقضي يومي أعاني جرّاء النعاس والإرهاق، ولا أنجز كثيراً من عملي. هُيئ إليّ أنّها عدوى التقطتها من المخيّم، لكن تذكّرت أنّ السعال كان يأتيني قبل ذلك بأشهر، ولم أكن ألقي له بالاً، وأقول ربّما هي أعراض إنفلونزا.

ذهبت في أحد الأيّام مع "بيتر" زميلي في المكتب، إلى وزارة العمل، لنبحث في أرشيفاها عن بعض الإحصائيّات. وجدنا المصعد معطّلاً، فاضطررنا لمقابلة مدير دائرة التراخيص إلى صعود الدرج نحو الطابق الثاني، لكن ما أن وصلنا الطابق الأوّل حتّى قال لي بيتر: لياقتك متراجعة يا جمان، إنّك تلهثين! فعلاً، كنت أشعر بضيق نفس، وما أن وصلت مكتب المدير حتّى تهاويت على أوّل مقعد. ظننت أنّ انقطاعي عن الذهاب إلى النادي الرياضي هو السبب في ذلك، لكنّ السعال بدأ يترافق الآن مع بلغم أفزعتني فيه الخيوط الحمراء التي شابته. قالت لي "تمارا" زميلتي: إنّه الشتاء وأمراضه، وإنّ مخاطها أيضاً مدمّى!

بدأت أذهب بعيداً في الاستماع إلى جسدي، وكلّما أمعنت خفت أكثر، ودخلت مرحلة الوساوس، وبات نومي غير مريح إطلاقاً، وضيق نفَسي يزداد يوماً فيوماً، ثمّ ساعة فساعة، لدرجة أنّ وضعيّات النوم كلّها لم تعد مريحة: على صدري لا يمكنني النوم إلاّ بسعال شديد، وعلى الجانبين أفضل، وبسعال أخفّ،



وأفضل وضعيّة هي النوم على ظهري الذي تسمّر مثل خشبة، ولم تعد أشربة السعال كلّها تجدي نفعاً، وكذلك منقوعات الأعشاب، الزهورات، والبابونج، والزعتر...

في تلك الليلة، قمت لآخذ حمّاماً ساخناً كي يبدّد وهني، أنهيته مرهقة، وما أن خرجت من باب الحمّام، حتّى تهاويت في لحظة كانت من أصعب اللّحظات التي مرّ بها جسدي حتّى ذلك الوقت. كنت أريد أن أقبض على وعيي إلى أقصى حدّ، لكنّه أفلت منّي لثوان، بسبب ضيق نفس شديد اعتراني. قمت ووقفت بمنشفتي في الشرفة، تنشّقت هواء ثقيلاً، شقّ طريقه إلى صدري بصعوبة، تمدّدت على السرير، ورفعت قدميّ على وسادة، أحاول أن آخذ المزيد من الأنفاس التي ستصير منذ تلك اللحظة قاهرة ومسجونة. فكّرت في أنّ أكثر ما يخيف الناس هو أن يفقدوا وعيهم بلا سبب معروف، وأنّه لا يفقد أحد وعيه بلا سبب. جاءني هاجس دامغ بأنّني أعاني من مشكلة في قلبي أو رئتي اليسرى، وفتحت الإنترنت لأبحث عمّا يشبه أعراضي، وكانت الإجابات مقلقة، وغير مفيدة، تبدأ بفقر الدم، وتمرّ بمشاكل القلب، وتنتهي بسرطان الرئة، فذهبت نحو الأبعد! لكنّني لا أدخّن، ولا أعمل في المناجم، ولا مصافي البترول، وسرطان الرئة يصيب الذكور أكثر بكثير من الإناث....

أصبح الصباح ببطء مستفزّ، ومعه كنت عند طبيب الرئة في مستشفى الأردنّ، وحدي، وبلا موعد. طلب صورة أشعّة، ولم



أنتظر تقريرها، حملتها إليه بسرعة، رفعها على اللوحة المضـــيئة، وارتسمت أمارات انزعاج مشوب بصدى ابتسامة:

- أطمئنك، رئتك سليمة، لكن ثمّة مشـــكلة في الغـــدّة اللمفاويّة الواقعة بين الرئتين، متضخّمة.
- سرطان؟!
- ربّما التهاب.
- بل سرطان.
- ربّما، لكن حتّى لو كان ورمـــاً خبيثـــاً، لا تقلقـــي، فالعلاج متوافر هنا، ونسبة الشفاء عالية: 90-95%.
- جراحة؟
- لا جراحة، علاج كيماويّ فحسب، ســـنبدأ بصـــورة طبقيّة، وبعدها أحيلك لإجراء خزعة تكشـــف نـــوع الورم.

لم أنتظر أحداً ليقول لي إنّني لست مصابة بالسرطان. لقـــد كنت واثقة من ذلك، وفي ظلّ هـــذه الصـــدمة، والفوضـــى، والوحدة كان ثمّة شيء مريح يشبه برد اليقين!

على باب العيادة، اتصلت بـــ بابا، وطبعاً أخرسته الصـــدمة، وراح يداريها بتطمينات ساذجة ومزيّفة، لم يصدّق ما أقول، ثمّ إنّه أعجز من أن يغادر البيت، محاطاً بحواجز عسكريّة للنظام، وللدولة الإسلاميّة، وللجيش الحرّ، ولجبهة النصرة... وقبل أن أغلق الهاتف أدركت أنْ ليس لي سوى أن أواجه كلّ شيء وحدي.



تقرير الصورة الطبقيّة أكّد وجود كتلة في الغدّة اللمفاويّة بين الرئتين، بأبعاد 9 *11 سم، هذا التقرير هو الذي سيلقي بي في الدوامة التي ستتسع وسيكون الموت أهون احتمالاتها، فأنا أهيّب الإجراءات، كما تفزعنا الطريق أكثر من الهاوية التي تفضي إليها. كان ذلك اليوم هو الأقسى في الثلاثة والثلاثين عاماً كلّها، أقسى من يوم اكتشاف مرض ماما، وأقسى من يوم موتها. أعرف تماماً كيف وصلت إلى البيت، بمنتهى الضياع، تهاويت على المقعد الأقرب للباب، بلا طاقة حتّى للبكاء. رأسي يتشظّى، وستارة سوداء تحجب قلبي عن العالم، أتأمّل في ورقة الخزعة التي طلبها الطبيب، والتي تمّ حجز موعدها ظهر اليوم التالي، فأرى اسمي عليها رماديًّا، لا يشبهني، وكنت أعجزَ من أن أفعل شيئاً، وأريد لأحد أن يوجّهني إلى طريق ما، طريق ما بعد الخزعة التي ستكون نتيجتها مؤكّدة. وفي ليلتي الأولى التي أعلنت فيها لنفسي عن المرض، التفّت الساق بالساق من الفزع، وعشت هذه الصورة حقيقة، ساقاي لا ينفصلان عن بعضهما من الخوف، أحاول فصلهما، لكن بلا طائل.

وصلنا إلى المستشفى ظهراً بسيّارة تمارا، صادفت في الصالة رجلاً أعرفه، وكانت لي معه مواقف غير مريحة في العمل، فتشاءمت، وبدأ نظام العلامات الكونيّة يشتغل في عقلي. قام بيتر بالإجراءات المطلوبة، كنت متهاوية، وأريد أن تنتهي هذه الفانتازيا التي لا معنى لها. حينما دخلت إلى غرفة التصوير كنت



بالكاد ألتقط أنفاسي، وكنت أسعل بمرارة، وضعني الفنيّون تحت جهاز التصوير الطبقيّ، وأعطوني إبرة نصف مخدّرة، وبدأ الطبيب يخزع صدري خزعات عدّة، ويسحب السائل والنسيج من كتلتي بلا ترفّق، كان يصعب عليّ الاستلقاء التام، لا بدّ من أن أسند رأسي، أو أكون نصف جالسة، لذا تعذّبت كثيراً، ورحت أسعل، فقال الطبيب: أعانك الله! حين وصلتني كلمة "الله" كان لها رنّة مختلفة، جديدة، وأقرب إلى الروح من أيّ وقت مضى. خرجت إلى غرفة إنعاش مشتركة مع مرضى آخرين، بانتظار أن يذهب أثر المخدّر، وعلى صدري ضمادة، وعلامات بقلم تحديد أسود قد ارتسمت على شكل xxx على جلدي الأبيض. انتبهت إلى صوت تمارا بجانبي تكلّم أمّها بالموبايل، تسألها عن طفلتها التي تركتها معها، تقول لها إنّنا سنعود سريعاً. التفتت نحوي بعد أن أغلقت هاتفها، وقالت:

- كان يوماً شاقّاً علينا جميعاً!

لم أبتسم في وجهها، فهو يوم قد مرّ بالنسبة إليها، أمّا أنا فربّما يكون أفضل أيّامي، لأنّ ما بعده سيكون الأكثر شقاء، سيكون كلّ يوم قادم درجة من درجات سلّم الموت، وستعود تمارا إلى طفلتها وزوجها وأمّها، أمّا أنا فلا أهل ولا وطن...!





"افرحوا، اعقلوا، واحزنوا، اعقلوا!"، هذا ما كانت تقولـــه جدّتي.

لذا بعد أن تأكّدت نتيجة الخزعة الإيجابيّة خلال أيام ثلاثة قرّرت ألاّ أجزع، وحمدت الله على أنّ مرضي ليس مجهولاً، وله علاج واضح حتّى لو باء بالفشل. كان الطبيب قد أعطاني حبوباً مهدّئة، لكنّني قرّرت ألاّ أتناولها، وكانت تلك خطـــوتي الأولى للمواجهة.

لم يهاجمني الفزع مرّة واحدة، بل راح ينمو في داخلي مثل وحش صغير، يقتات على أعصابــــي، ويحتلّ عقلـــي وخيـــالي، وكان جسدي يتضافر معه، ويتغيّر بسرعة هائلة: كلّما مـــرّت ساعات، نفرت حبّة صغيرة مدمّاة على جلدي، لتتكاثر في نهاية اليوم الرؤوس الصغيرة الحمراء، والتي تسبّب حكّة شـــديدة، ثمّ تسودّ وتصير بقعاً. صار جلدي اللاّمع الورديّ والصقيل، خشناً ومبقّعاً، وقبيحاً، ومخيفاً، واخشوشن أكثر عند صدري وبطـــني، واتسعت مساماته، حتّى صار كجلد التمساح. نحلت في أيّـــام قليلة، صرت عود قصب جافّ، ووجهي أصفر كئيب، وبـــدأ الضياء في عينيّ ينطفئ. كانت التغيّرات مباغتة ومرعبة، فأدركت معها استفحال الورم الذي سمّم جسدي.

بدأت أجمع كلّ المفردات الإيجابيّة التي سمعتها وقرأتها عـــن هذا المرض، وعن قصص مرضاه، وتابعت المواقع الإلكترونيّة التي كتبت عن مراحل نشوئه وتطوّره وعلاجه، وكان الأهمّ بالنسبة



إليّ هو أن أعرف أفضل الاحتمالات وأسوأها. ما يطمئن أنّ هذا الورم ينحصر انتشاره في الجهاز اللمفاويّ ذاته، ولا ينتقل إلى غيره، وأنّ المريض حتّى لو بلغ المرحلة الرابعة منه، فعلاجه لن يختلف عن علاج مريض المرحلة الأولى إلاّ بعدد الجرعات التي ستزيد، وهو غالباً قابل للشفاء تماماً.

كنت أقرب إلى الموت منّي إلى الحياة، فمن يُرزأ بالسرطان يظنّ أنّه سيموت في اليوم التالي لتشخيص حالته، لكن مع مرور الوقت، والحصار المستمرّ بالآلام، يعتاد المرء فكرة الموت، ويتوقّعه في كلّ لحظة. كان ما يملؤني حسرة، غير مفارقتي الدنيا على عجل هو أنّني سأموت غريبة وبعيدة عن أهلي ووطني. قد لا أجد لأيّام من يدفنني، وإن تمّ فسيكون ذلك في تراب غريب وبين أجساد غريبة، ميتة بمنتهى القبح! مع تلويحة النهاية بدأت أستكشف أغوار علم الجمال الذي قضيت بين كتبه الشطر الأوفر من حياتي القصيرة. إنّها لمفارقة مؤلمة أن أدرك في الوقت الضائع مغزى رثاء بريام العجوز لولده هكتور البطل على أسوار طروادة! لقد كان يرى في الموت جمالاً، لكن ليس في ميتة هكتور أو في ميتتي، فهما ميتتان عكس حركة التاريخ. الجمال عنده أن يدفن الأبناء آباءهم في جنازة مهيبة، وليس العكس، وأن يهيلوا عليهم من تراب أرضهم، وهذا لن يكون لي. لن يدفنني أبي، سيبكيني من منفاه البعيد، وسيهال عليّ التراب، لكنّه تراب آخر، ليس فيه من بقايا الأسلاف.



كان الأخذ والردّ بيني وبين نفسي في الموضوع، وتقليب المرض وأبعاده، وحالتي، والأطبّاء، والعلاج، مدمّراً للأعصاب، ومع ذلك رفضت تناول المهدّئات، وبحثت داخلي عن إيمان العجائز، فوجدت حبل الرحمة قريباً، وليس أسوأ حالاً منّي سوى أولئك الذين لا يؤمنون بربّ يرحمهم.

كنت أسمع جسدي يصرخ طالباً الدواء، وعقلي بدأ يتفتّح مهيّئاً خلاياي لاستقبال ذلك السحر، الذي يقوّض دولاً ويشفي المرضى، والذي يسمّى "كيمو". أتخيّله ينسكب على ورمي قطرة قطرة، فيحرقه، ويفتح صدري للهواء من جديد، وبدا لي أنّ تكشّف الحقائق يحثّ النهايات على أن تحسم أمرها، وتقوم بالمداهمة، إذ بدأت حالتي بين الأوهام والمخاوف تتراجع: جسمي في وهن شديد، لا يقوى على الحراك، ونتيجة لصعوبة سحب النفس صار صدري في جهته اليسرى يؤلمني بقسوة، وكذلك العروق من رقبتي إلى قلبي. الورم يكبر، وسيقتلني قريباً، فاتصلت بناصر...

* * *

بعد ثلاثة أيّام على اتّصالي، دخل ناصر إلى منزلي. لامني بشدّة لأنّني لم أخبره بالأمر منذ اللحظة الأولى، وكانت كلماته الحانية، والواثقة، والحازمة، هي التي أمسكت أعصابي من الانهيار الأخير. كان بارعاً جدًّا في إخفاء توتّره. جلس بمواجهتي



على الأريكة التي كنت أستلقي عليها في غرفة الجلوس، أمسك بكلتا يديّ بين كفيه، وأخذ نفساً عميقاً، وقال:

"كلّ المشكلات ستُحلّ على أحسن ما يكون، وإنّه يحدث كلّ لحظة أنّ الناس تتعرّض للمرض، وهذا شيء بدهيّ، والذي يوازيه في بداهته أنّ الناس تشفى أيضاً، لا سيّما أنّنا حصلنا على التطمينات الأوّليّة".

تلك اللّمسات الأولى، والكلمات الأولى التي حصلت عليها بعد أن أفقتُ من الصدمة، هي ما سأحتفظ به حتّى النهاية، وسأنسى الأشياء كلّها، والناس كلّهم، من راح، ومن أتى، ومن مات، ومن عاش، ومن سعد، ومن تعس... سأحتفظ فقط بما يقوله ناصر أو يفعله، إنّه ماردي، ومعجزتي، وطوق نجاتي.

تكلّمنا طويلاً، بكيت في حضنه، وكان يصغي لبكائي، ويجيب عنه بقبلات حانية. لم يتعب من الكلام، من إقناعي، ومن تبديد مخاوفي. حضّر لي عشاء خفيفاً، وكنت قد عزفت عن الطعام منذ أيّام، وأكلت فقط ما أجبرتني تمارا وبيتر على أكله. دهن على قطعة توست زبدة ومربّى الفريز، وألقمني إيّاها، وأتبعها بشاي ساخن، بعد أن تناولتها، شعرت بأنّي أفضل. ماذا كنت سأفعل لو لم يكن ناصر معي؟! كان اللّيل قد قارب على الانتصاف، فقادني إلى الفراش، وغطّاني، وظنّ بأنّني نمتُ، لكنّني لم أنم، كنتُ خائرة القوى فحسب. سمعتُ صوت إغلاق باب الغرفة الداخليّة، إنّه يتهيّأ للمغادرة، قمت من فراشي ومشيت



متعثّرة، بما بقي من قوّة في جسدي المتهالك، جررت قميصه من الخلف، فبُهتَ، ركعتُ عند قدميه، وأمسكت بركبتيه، وتوسّلت إليه ألاّ يذهب، ألاّ يتركني وحيدة. لقد كنت خائفة من أن أموت وحدي.

كانت المرّة الأولى في حياتي التي أتوسّل فيها لأحد بهذه الطريقة المذلّة! أغمض عينيه وهو يرجوني أن أكفّ، ثمّ أقامني، وحملني إلى السرير، ووعدني بألاّ يغادر.

غاب ناصر صباح اليوم التالي، وعند العصر عاد، ومعه حقيبة سوداء، ومغلّف فيه أوراق كثيرة. كان في الحقيبة ثيابه وأدواته التي يحتاجها، وقال إنّه سيمكث معي. كيف سيتمّ ذلك؟ وتحت أيّ بند؟! قال إنّه يشغل منذ فترة مركز مستشار أوّل في المركز الجغرافيّ الملكيّ، والآن سينتقل إلى عمّان بشكل فعليّ، لأنّ عليه أيضاً أن يرتّب شؤون سفر سارة ابنته للدراسة في أميركا. لم نناقش الموضوع، كنت أبكي فحسب، وعلى صدري ثقل جبال، وكان مرتبكاً جدّاً، لكنّه كان يقول: ليس لنا حقّ في البكاء، لنا حقّ في العلاج. أخرج من المغلّف ورقة، ومدّها لي، وقال: غداً نبدأ أولى خطوات علاجنا.

كان ناصر يتكلّم دائماً بـ "نحن"، ولا يقول "أنتِ" مطلقاً: نذهب، نتعالج، نأكل، ننام... وبهذا الضمير الجمعيّ كنت أقاوم وحدتي، وألمي، ويأسي. لقد استعمل معارفه، وعلاقاته كلّها، ليحصل لي على موعد سريع في مركز السرطان، وبمعاملة تشبه



معاملة المواطنين العاديّين، لا الأجانب. لم يكن لـــديّ متّســـع للأسئلة الفائضة، من مثل: "لماذا تفعل ذلك معي؟!" فقط بدأت تنمو في قلبـــي شجرة الامتنان. قرأت الورقة التي تخوّلني الدخول إلى مركز العلاج، كُتب فيها اسمي، والرقم الذي مُنحته، ووصف الحالة: "لإصابتها بسرطان الغدد الليمفاويّة". لم يكن اسمـــي لي، شعرت بغربة فظيعة تجاه حروفه، ومنذ اليوم لن أعود الدكتورة جمان بدران، أنا رقم في إحصائيّات المرضى في مركز السرطان.

سلمى كلّمتني في التلفون. قالت لي: جمـــان، لا تخـــافي، ستمضي الأمور على خير. كوني كأولئك النساء اللّواتي يسحقن الألم بأقدامهنّ ويمضين. إنّهنّ حولي يواجهن القنص والصواريخ والقنابل...

- لكنّهنّ لسن مصابات بالسرطان! قلت
- حولك نماذج للشفاء كثيرة. قالت
- أشعر بأنّني "ماما" في أيّامها الأخيرة. قلت
- لم يكن لها دواء. حالتك مختلفة. قالت
- أنا وحدي، أنتم لستم معي. قلت

لم أجرؤ على أن أقول لها إنّ ناصراً معي. ناصر الذي قرّر ألاّ يتركني، ناصر هو أمّي وأبـــي وأخي وصـــديقي وحبيبـــــي. إن حبيبك، هو الذي ينتشلك من الموت، والآخرون كلّهم قبض ريح!

قضيت المساء وأنا أسأله أسئلة بدائيّة، وكم نحتاج في لحظات ضعفنا إلى الأسئلة البدائيّة التي كانت قبل قليل مثل المسلّمات:



- ناصر، هل يُشفى الذين يتعالجون؟
- طبعاً، لماذا إذن يفتحون هذه المراكز العظيمة، لماذا هذه الأبحاث كلّها، ليقتلوا الناس أم ليشفوهم؟!

أضفت هذه العبارة إلى معجمي، وسكتّ، وبعدها أدخلني ناصر في فراشي وغطّاني، ولا أعرف ماذا سيفعل في بيتي بعد ذلك.

* * *

ستكون تكلفة العلاج باهظة، والتحويلات الماليّة من سورية صعبة ومراقبة، وبخاصّة للمبالغ الكبيرة. بابا خبّر "جون" بالتفاصيل كلّها، وكانت الدفعة الأولى من التكاليف في حوزتي بأقلّ من أسبوع.

كان"جون درايز" صديق عمر أبي منذ خمسين سنة، "الروم ميت" أو رفيق السكن في أثناء الدراسة في بوسطن، درس هندسة التعدين. والده صناعيّ كبير، وتمتلك عائلته مناجم للمعادن في ألاسكا. المرّة الأولى، والأخيرة أيضاً، التي زارنا فيها في الرقّة، كانت في أوئل التسعينيّات، قضى بيننا شهراً. عند وصوله برفقة بابا من مطار دمشق، تسابقنا أنا وجود وسلمى، لنفتح له باب السيّارة، وإذ برجل كبير، طويل جدًّا، وضخم، ولا يشبه (ريتشارد غير) كما كنت أتصوّر، وله بطن كبيرة شكلها غريب. كان لا يكفّ عن أكل الموز، يحمله معه إلى كلّ مكان، وقالت ماما: نشكر الله أنّ الزيارة لم تكن في الثمانينات،



حيث كان الموز قد اختفى من البلاد، بسبب سياسة شدّ الأحزمة، ومنع الاستيراد. فيما بعد عرفنا أنّه يعاني نقصاً في البوتاسيوم، وانتبهت إلى أنّ بطنه الغريبة قد اتخذت شكل موزة. قضينا أيّاماً جميلة برفقته، رحلات سياحيّة قريبة، وسباحة في النهر، وسهرات، وطعام لذيذ، وأقارب يأتون للسلام على الضيف القادم من بعيد. قدّم "جون" لكلّ منّا أونصة ذهبيّة من فئة العشرة غرامات، وأونصة ماما من فئة الثلاثين غراماً، مستخلصة من ذهب مناجمهم. أعطاني دروساً في المضاربة الماليّة، ولم أكن أفهم ما يقول، لم تكن لديّ أدنى فكرة عن لغة المال، لكنّني استطعت تعلّم "البوكر"، وحكيت له عن تاريخ الأندلس، بعد أن قرأته في كتاب للمستشرق "جيب". أخذته في جولات في الأزقّة الصغيرة البعيدة، طفت به في بيوت صديقاتي وقد منحه الأهالي دعوات على أطباق محليّة "فرش لحم بالبندورة"، و"حميس"، وسيابيل". جاءت وقتها أعياد الانتصارات في تشرين، وكانت كلّ من جود وسلمى مشتركتين في مسيرة مشاعل ليليّة، إذ سيطوف طلاّب المدارس الثانويّة في الشوارع الرئيسة، وهم يحملون شعل الثورة. استعدّ "جون" للمغامرة، حمل الكاميرا وذهبنا. مرّوا من أمامنا مقابل الملعب البلديّ الكبير، وبدأ "جون" بالتقاط الصور، وهو يلوّح لسلمى وجود، كان ملهوفاً كالأطفال الذين وصلوا إلى مدينة الملاهي بعد وعود مؤجّلة، وإذ برجل يقبل نحونا، قصير ونحيل، ببنطلون رماديّ وقميص أبيض



يحتاجان الكثير من الكيّ ليصبحا معقولين، بيده دفتر صغير وقلم، وعلى خصره مسدّس. طلب أن نعطيه الكاميرا. فوجئ جـــون، واحمرّ وجهه مبكّراً. قلت للرجل: كلّمني أنا فهو أميركيّ. فـــتح عينيه على اتساعهما، وبدا كأنّه قبض على حقيقة الوجود:

- أميركيّ أيضاً؟
- نعم أميركيّ.

أراد أن يسحب الكاميرا المعلّقة بعنقه بـــالقوّة، فأمســكت بيده، علا صوته، وبدأ جون يرتعش، وانتفخت بطنـــه أكثـــر، وأذناه صارتا كأذنيّ فيل. صار يصيح بـــي:

Call Suhail, Call Suhail…

وكان صياحه يضغط على أعصابـــي التي تكاد تنهار أصلاً. طلبت إليه صارخة في وجهه أن يصمت تماماً، فصمت. كـــان جون قد أخّر زيارته إلينا أصلاً بسبب دعاوى الإرهاب، الـــذي تجسّد له الآن على هيئة عنصر أمن ضئيل.

قلت للشاب الذي في منتصف العشرينيّات: لن أعطيـــك الكاميرا، لأنّ فيها صوراً شخصيّة، ثمّ إنّـــي أصـــوّر في مكـــان مفتوح، يرتاده الناس جميعاً، في مناسبة عزيزة على قلبنا، إنّه يوم النصر، وعلينا أن نري العالم كيف نحتفل بانتصاراتنا. ألا تـــرى كاميرات التلفزيون كيف تنقل الحدث! بدأ يهدأ قليلاً، لكنّه أصرّ على سحب الكاميرا. عندها أنا التي فقدت أعصابـــــي، نعتّـــه بالغبيّ، وقلت له إنّني منذ عشرين يوماً أحاول أن أواجه صديقي



بالصورة المشرقة لهذه البلاد، جئت أنت بدقيقة واحدة، لتحرق الصورة الجميلة. لم يبد أنّه اهتمّ لكلامي، تجمهر الناس حولنـــا، ووصلنا إلى صيغة تسوية، تفيد بأن يترك لنا الكــاميرا، ويأخــذ بطاقتي الشخصيّة، فأمرّ بمقرّ الأمن لآخذها من هناك، ممّا يعـــني تحقيقاً. كنت وقتها أستعدّ لدخول الثانويّة العامّة. جون كـــان يهرول قبلي في طريق البيت الذي لا يعرفه أصلاً ، كان يصيح:

Thank you tiger, tiger…

ألفى "جون" بابا عند الباب، فعانقه بحرارة، وكأنّه عاد سالماً من حرب. حكى له ما حصل، وذهبنا بابا وأنا، لنستعيد بطاقتي. في مركز الأمن، قابلت الضابط المسؤول، حكيت له التفاصيل، فأشار إلى أنّ تقرير رجل الأمن يقول إنّني سليطة اللسان. بعـــد ساعة عدنا إلى البيت، ومعي بطاقتي الشخصيّة، وقضينا المســـاء نأكل الكباب، ونلعب البوكر، بابا وجون يرفعان كؤوس البيرة المكسيكيّة، وينشدان:

When Johnny comes marching home again

Hurrah! Hurrah!

We’ll give him a hearty welcome then

Hurrah! Hurrah!

(حين يعود جون للبيت ماشياً مشيته العسكريّة، مرحـــى! مرحى!

سنستقبله بمحبّة غامرة، مرحى، مرحى!).



منذ تلك الواقعة صار "جون" ناديين تايغر، (نَمِرة)، وحينما عاد إلى بلاده، أرسل لي صوراً عن صكوك استثمار في البورصة بقيمة ثلاثة آلاف دولار، اكتتبها جون باسمي تعبيراً عن امتنانه لأنّني أنقذت حياته كما قال، وكان يستثمرها من أجلي في قطاع التكنولوجيا، التي صارت المضاربات فيها مجنونة منذ ذلك الوقت.

* * *

مع الخزعة الثانية، التي ستكون الأكثر مرارة، بدأت أكتشف المفردات من جديد: البؤس، والموت، والعافية، والحزن، والضيق، والألم، والصحّة، والجسد، والحقيقة، والعذاب... ذلك كلّه يتخذ معناه الحقيقيّ مع خزعة نخاع العظم، إبرة تغرز في الغمّازتين أسفل الظهر، وتسحب منها الروح على شكل سائل. كان ذلك يوم أحد في الساعة الثانية عشرة، وأصرّ ناصر على أن يكون معي رغم ارتباطه باجتماع مهمّ جدًّا. كان يدوّن المواعيد بجدّ طالب قرّر النجاح بتفوّق، أعطاهم هواتفه كمرجع، وأعلن أنّه خطيبي، والوحيد الموجود من أقربائي هنا، كان يرتّب كلّ شيء. أمسك حقيبة يدي، ووقف في الممرّ في حين دخلت إلى غرفة صغيرة أو عيادة، وبدأ طبيب الخزعات يحكي لي تفاصيل ما سيقترفه في جسدي، طلبت منه أن يتوقّف، لا أريد أن أمرّ بالتجربة مرّتين، وهؤلاء الأطبّاء بعيدون عن عالم اللّغة والطقوس،



ولا يدركون أنّ التجربة المحكيّة أقسى من الإجرائيّة. ورغم ذلك لم يكفّ عن الثرثرة، وراح يسألني عن الثقافة والأنثروبولوجيا، وأنا كنت قد نسيت كلّ ما تعلّمته في حياتي من جرّاء الألم. حين يسألني الناس هنا عن عمري، وعن عملي أو درجتي العلميّة، يتضاعف التعبير لديهم عن الأسى، ويشعرونني بفداحة ما ارتكبته الحياة بحقّي.

عندما تمكّن النوم منّي أخيراً، كان الوقت قد حان للذهاب من أجل إجراء الصورة النوويّة، إنّها المعبر إلى الحقيقة. قضيت ليلة تنضمّ بجدارة إلى تاريخ العذابات في حياتي. قمت مرّات عدّة من الفراش، دخلت الغرفة المنفردة التي خصّصناها لناصر، كان يغطّ في النوم، شعرت بأسى طافح، وحسدته على الراحة البادية على ملامحه، نفسه منتظم، وبشرته متورّدة. لم أوقظه، إنّه في عالم آخر، عالم مجاور لن يتقاطع مع عالمي، مهما اقترب أو فعل من أجلي. كان عليه ألاّ ينام بمثل هذا العمق! هل جاء لينام أم ليكون معي في هذه الليلة العصيبة التي سينبؤنا صباحها عن حدود الورم ومدى انتشاره في أماكن أخرى من جسمي. لن أصرخ، وأوقظه، لن أفعل قطعاً، لن أثقل عليه أكثر ممّا أفعل، لا أريد أن يكرهني، ولا أن يتركني، أنا بأمسّ الحاجة إليه.

خرجنا في الثامنة، وكان صباحاً مثقلاً بغيوم آذار الداكنة والواطئة. لم أقدّم اعتذاراتي لناصر، كما أفعل في كلّ مشوار يصطحبني فيه. هذه المرّة كان لديّ شعور مناهض للامتنان،



شعور بواجب البشر تجاه الإنسانيّة التي تحتّم على كلّ من يعرف شخصاً سيذهب لإجراء صورة نوويّة أن يكون معه، ويشدّ من أزره، وعليه أن يفكّر أيضاً في أنّ اللاّفتة المريعة التي يمرّ بها الناس في المستشفيات، والتي كتب عليها: "الطبّ النـــوويّ"، والـــتي يتحاشى الجميع النظر في الاتّجاه الذي تشير إليه، طالبين مـــن الله النجاة، قد تكون يوماً إشارة إلى المكان الذي سيقصدونه تحديداً.

مكان رهيب حقّاً، يلج بابه المرضى بلا مـــرافقين، لـــذا راح ناصر، وصرت مثل ولد تركه أبواه في أوّل يوم من المدرسة ليواجه رائحة الغرباء. الموظّفة التي تحمل وحدها معالم حياة محتملة، طلبت إليّ الانتظار قليلاً ريثما تبحث عن اسمي في لائحـــة المواعيـــد، ولا أعرف كيف لها أن تفعل ذلك! فمن يأتي إلى هنا بلا موعد محـــتّم، وكيف لها أن تكلّمني أصلاً وأنا منقسمة على ذاتي أرباعاً، أيّ قسم يكلّمها، وأيّ قسم سينتظر، وأيّها سيدخل أو يخرج...

نظرت خلفي إلى الباب الزجاجيّ، فوجدت ناصـــر قـــد أمسك بمجلّة، وانغمس في القراءة، شتمته في سرّي، ثمّ تراجعت. قالت الموظّفة إنّ المادة النوويّة وصلت للتوّ من سورية! لا أملك طاقة للشعور بالفخر، أو للتفكير بأنّ المادّة التي ستشفيني هي التي تقتل مواطنيّ، وهي ذاتها حصان طروادة الذي تركبه الأمم لتدمير بلادي....

وجدت نفسي في صالة محاطة بحجرات أربع، حجرة حقن، واثنتان للانتظار، وأخرى للتصوير، وحمّام. لا أحد حولي، المكان



خال والأبواب مغلقة. جاء أحد الفنيّين، وأخذني بلطف إلى ممرّ صغير فيه كرسيّ وحيد، قال إنّه سيختبر السكّر في الدم، وخزني في إصبعي وخزة خاطفة، ونظر في وجهي، فلم يجد أيّ تعبير عن الألم، فشعر بزهو لمهارته، لكنّني لم أقل له إنّه آلمني كثيراً، كنت أدخر التعبير عن أوجاعي لوعود ألم مستحقّة تنتظر. مرّت عشر دقائق أخرى تمّ بعدها حقني بالمادة النوويّة المختفية داخل إبـــرة معتمة. أدخلت بعدها إلى مكان أشبه بمنفـــردات التعـــذيب في سجون ستالين، فيه بشر يودّعون الحياة غالباً. الممرّضـــة الـــتي أدخلتني طلبت إليّ ألاّ أتكلّم مع أيّ أحـــد، أو أتحـــرّك، كـــي تستطيع المادّة النوويّة أن تسري في جسدي ولا تتجمّع في مكان واحد، وأن أشرب زجاجة الماء التي طُلب إليّ أن آتي بها.

كانت الحجرة التي في داخل الحجرة، التي في داخل أخرى، ضيّقة مثل قبر، ومصمتة بلا نوافذ، ومن يدخلها يســـقط مـــن حساباته احتمال عودته إلى العالم، فيها ســـريران وكرســـيّان. تمدّدت امرأة ستينيّة على السرير الأوّل، تتأوّه بعـــذاب لا قِبَـــل لمخلوق به، عذاب أمرّ بدرجات من عذابـــي، هيئتها في أعلـــى درجات الرثاثة من الفقر والمرض، وعلى أحد الكرسيّين رجـــل أربعينيّ سعوديّ، عليه جلاّبيّة بيضاء حريريّة، حاسر الرأس. رنّ هاتفه، فردّ مرتعداً، ومتجاهلاً التعليمات، بدا لي أنّ المرض نـــال شيئاً من جهازه النطقيّ، فضلاً عن الفزع الذي تمكّن من محيّـــاه الكئيب. على السرير الثاني امرأة في مثل سنّي، متماسكة أكثـــر



منّا جميعاً، ترتدي عباءة سوداء وتضع غطاء رأس أسود، وأظافرها مصبوغة بمناكير حمراء، إنّها إشارة إلى الشفاء، أو التجاهل، أو التكيّف! قالت إنّها تعاني من الهودجكنْ، وإنّها تلقّت علاجاً خاطئاً في مكان آخر، لذا فهي تأخذ الكيماوي للمرّة الثانية، وقد سقط شعرها للمرّة الثانية. لها طفلان مع أبيهما في الإمارات:

احمدي الله أن ليس لديك أولاد، الأولاد يكسرون الظهر!

مدّت إليّ زجاجة ماء، وألحّت وهي تقول: ماء زمزم. قلت لها: لا أريد. كنت مشغولة بترتيب موتنا، من سيموت أوّلاً بيننا نحن الأربعة، المرأة الستينيّة، فالرجل السعوديّ، فمريضة الهوجكن، ثمّ أنا.

تبوّلتُ، كما هو مطلوب، ودخلت إلى التصوير، وكنت أريد أن تنتهي هذه التراجيديا بسرعة، حتّى لو عجّلت موتي، أن أخرج من هذا المكان، ولا ألتقي بناسه مجدّداً.

كانت الصورة أسهل من التحضيرات لها، وستتكرّر مرّات ثلاث أخرى، خلال فترة العلاج التي ستبلغ سنة. خرجت مثل من يهرب من حبل المشنقة، ناصر كان في وجهي، يحمل معطفي، ويقف عند الباب، فامتلأت بالامتنان من جديد، ودفنت وجهي في صدره أشمّ بصعوبة رائحة الحياة.





استلقيت على سرير الفحص. كان الطبيب متوتّراً، وكنت مستسلمة تماماً، وهذا الاستسلام منحني شعوراً غير متوقّع من السلام والقوّة، فالقلق يسكننا حينما نحرص على ألاّ نشعر بالفزع، في حين أنّي وصلت إلى النهاية القصوى، فماذا سيقول لي الطبيب:

- عندك سرطان.

أعرف.

- ستموتين.

أعرف.

لقد فكّرت خلال الأيّام الفائتة في ذلك كلّه، ورتّبت ما تبقّى من حياتي مع الاحتمالات الأسوأ.

بدأ الطبيب يمرّر يديه المحشوّتين في كفّين بلاستيكيّين على جسدي شبه العاري، والمغطّى بثوب الفحص الأزرق، المصنوع من ورق يشبه ورق ترشيح السوائل. تلمّس رقبتي، وفجأة توقّف، وصرخ بمساعدته:

- ألف مرّة قلت، الفحص بلا حمّالة صدر.

استغربت عصبيّته غير المبرّرة، فنهضت كما ينهض ميّت، خلعت حمّالة الصدر خلال ثانية، ورميت بها إلى المساعدة، وعدت إلى الاستلقاء، فهدأ، وتابع تفحّص جلدي المقرّح. خمّنت أنّه يفكّر في إمكانيّة انتفاخ الغدد الأخرى في بطني وفخذيّ. سألني بصوت واهن إذا كنت أتعرّق ليلاً أو ترتفع حرارتي، فنفيت. واعتذر على أنّه يضطرّني للاستلقاء، وهو يعلم أنّه يضايقني، فأسعل بشكل متكرّر.



لم أتمكّن من أن ألتقط من تعابيره أيّة إشارة لأقوم بتأويلها سلباً أو إيجاباً. جلس وراء طاولته الصغيرة، وجلست أمامه بعد أن ارتديت ملابسي. لم ينظر في وجهي، بل كان ينظر بقلق وتشتّت إلى شاشة كومبيوتر مطفأة أمامه، وكنت ألاحق بإصرار ذلك الشتات، وأدركت كم يخاف الأطبّاء من نظرة المرضى التي تحاول افتراس الأمل من تقاسيمهم.

الدكتور يعقوب كان وجهه شمعيّاً وأصمّ حينما كان يشرح لي طبيعة مرضي. توقّف بعد جمل قليلة وسألني إن كان معي أحد. قلت له: صديقي. فرفض أن يدخله، ثمّ عاد وغيّر رأيه بعد أن قلت إنّني لا أتحرّج منه، وأحتاج أن يكون معي.

تابع حكيه عن الـ (Large B- Cells Lymphoma)، والذي يصيب النساء عادة بين ثلاثينيّاتهم وأربعينيّاتهم، والذي ما تزال أسبابه غير واضحة تماماً، تتشابك في إنتاجها عوامل كثيرة، لكنّه ليس وراثيّاً، ولا بسبب فيروس ما.

شرح خطّة العلاج أيضاً، وتولّى ناصر عنّي طرح الأسئلة، سأله كثيراً، وكنت أتابع حوارهما بحياديّة، وكأنّ الأمر لا يخصّني، مطمئنّة إلى أنّ ناصر سيحفظ عنّي كلّ شيء، ويعيده على مسامعي، كلّما احتجت إلى ذلك.

قبل هذا اللّقاء، كنت قد قبلت بيني وبين ذاتي بأقلّ النتائج فلاحاً، وبأكثرها آنيّة، أردت فقط أن أتخلّص من تلك القضبان التي تكبّل أنفاسي، أريد أن أشمّ الهواء، أن أتحرّك وأتكلّم من غير



جهد، كما يفعل كلّ البشر الذين خلقهم اللّه، لكـــن في نهايــة الجلسة، تعاظم طموحي، وتجرّأت على أن أسأل الطبيب سؤالاً واحداً فحسب: هل سأشفى تماماً؟

أجاب قاطعاً: نعم. واستدرك: إذا التزمت بالعلاج.

هذه العبارة جعلت قلب ناصر يخفق من الفرح، فشدّ على يديّ، وقد حفظها مثلما يحفظ اسمه، وخرج بناء علـــى رغبــة الطبيب الذي قال لي: لا أورام أخرى، فأعادني خطوة عريضــة نحو الحياة، سألته إن كان الورم قد وصل نخاع العظم، فأجــابني إجابة باردة، لكنّها مطمئنة، قال: لا يهم، لا تتدخّلي أنت بهذه التفاصيل، وعيناه معلّقتان بالنافذة، ووراءها ملحقات تُبنى لتوسعة المستشفى، وهو يعرب لي عن تذمّره منها:

هذا كلّه لا معنى له، ثمن الدواء أفضل!

أنا لم يكن يهمّني سوى أن أعرف نتائج فحوصاتي، بعيــداً عن هستيريّته التي تتحوّل في لحظة إلى هدوء تأمّلي، بعدها يمسح بكفّه المتخفّية بالقفاز على رأسه الأصلع، ويسألني أن أسأله عن أيّ شيء في بالي، وكنت مشغولة بآلامي وأوصابــي عــن أيّ حوار معه، ويتسرّب إليّ شعور أنّنا سنتكلّم طويلاً فيمــا بعــد، وقت الشفاء، الذي أجّلت إليه ملفّاتي كلّها، وكذلك حساباتي مع الحياة:

خزعة نخاع العظم سليمة، والجرعة الأولى يــوم الثلاثــاء، Good Luck!



هكذا خرج الطبيب من الحجرة الضيّقة، ذات الجدران الزرقاء الباهتة، بلا كثير من التبعات التي أعفاه منها هدوئي الاستثنائيّ كما أعتقد.

حدّد لي أوّل جرعة "كيمو" بعد أربعة أيّام، ودخلت مساعدته لإتمام الإجراءات، والتعليمات التي تتعلّق بالطعام والشراب ووصف الدواء:

- هل هذا الدواء يسقط الشعر.
- ممم... آآ هذا الدواء يسقط الشعر، لكنّه سينمو ثانية.

أمسكتُ بخصلي السوداء بحركة عفويّة، وفكّرت: هل لديّ وقت لأرى شعري ثانية! ثمّ أفلتّها، كمن يزهد بأشياء لا تخصّه.

* * *

عدتُ للاستلقاء في سريري الذي لاحظت أنّه اكتسى شراشف نظيفة. لقد استخدم ناصر صبيّة عشرينيّة، سريلانكيّة، لتعتني بي ريثما أتحسّن وأعود قادرة كما كنت وأفضل، على حدّ قوله، ولم يكن في مقدوري، طبعاً، سوى أن أقول شكراً.

قررت الآن أن أتفاهم مع ورمي، ما دمت قد عرفت أنّه سيحترق بالكيماويّ، ولو جزئيّاً، وبدأت بطلب النوم. للنافذة التي إلى يسار سريري مصطبة عريضة نحو الخارج، وقضبان حماية حديديّة، ما أن التفتّ إليها بجسدي لأبحث عن وضعيّة مناسبة للنوم، حتّى أطلّت حمامة رماديّة مطوّقة، وربضت على المصطبة،



وأجبرتني على الابتسام. انتبهت إلى أنّني مازلت قادرة علـى أن أفعل.

يااااه ما أقذر المرض! لا أخلاق له، ولا رحمة فيه، لم يأبه لشبابـي ونضارة جسدي، ولم يلتفت إلى رغـبتي العارمـة في الحياة والفرح والإنجاز. هاجمتني تجارب الآخرين، ووجدتها كلّها تعد بنهاية تراجيديّة وشيكة: "حسن الوجوه حال يحول"، وقـد حال سريعاً. "إنّ هذا الثرى من عيون سـاحرات الاحـورار"، ستكون عيناي قريباً طعاماً لدود الأرض، ثمّ تراباً يطؤه الأحياء، وتواردت صور سريعة عن حكايات المرضـى الميـؤوس مـن شفائهم، والمجذومين عبر التاريخ، الذين يـتمّ جمعهـم خـارج الأماكن المأهولة، ويُحرقون. بعـد قليـل سيشـبه جسـدي أجسادهم، ثمّ تأتي حكاية أيّوب عليه السلام، سأصـبر إذن، الله بدّله جلداً صحيحاً بجلده المهترئ! لكنّه نبيّ! أنا ضعيفة يا إلهي، أنا بشر، بشر، لماذا...!

بين الصحو والمنام، تسلّلت إلى أذني عبـارات مشوّشـة، وكأنّ أحداً يسمع نشرة أخبار من أكثر من راديو واحد: علـوّ منخفض وشظايا، الدولة الإسلاميّة في العراق والشـام، وئـام وهّاب وجنبلاط، إثر صراع مع المرض، طائرات النظام تقصف ريف الرقّة الشماليّ، الخاضعون للعناية التلطيفيّة، ثمّ ينسرب حداء الجيتارات من عند بيت الجيران:

"وسترجع يوماً يا ولدي، مهزوماً، مكسور الوجدان..."

لماذا عبد الحليم الآن؟! ولماذا أغنية أيّامه الأخيرة؟! طبعاً لأنّه كان مثلي، ناحلاً، وداكناً، ومصفرًّا، ويائساً.

صوت الجيتارات في دماغي لا يتوقّف، ولا يصل إلى القلب، فالورم يسدّ طريق الأشياء الجميلة كلّها.

من بين هذه الصور الثقيلة، تطلّ صورة الدكتور يعقوب. ذلك الوجه، أنا أعرفه جيّداً، لكنّه يروغ من ذاكرتي مثلما يروغ زلال البيضة من اليد! ذاكرتي مرهقة، وقد فقدت الاهتمام بها، مثلما فقدته بالأشياء كلّها...

نمتُ، واستيقظت حوالي الثالثة عصراً، وقد انجلت لي صورة الدكتور يعقوب، التي ما تغيّر فيها أكثر من قياساتها الفيزيائيّة! لقد عرفت ذلك الرجل حينما كان يافعاً منذ حوالي عشرين سنة مضت، فكيف يمكن للصدفة أن تضعني بين يديه، من غير أن أعدّها إشارة من نجمة الحظّ التي ولدت تحتها، والتي ستحرس خطاي على هذه الأرض إلى أن أصير محض روح!

* * *

في شمال إيطاليا تقع مدينة جنوا وفي جنوب جنوا تستلقي بلدة صغيرة باطمئنان على ذراع البحر، اسمها بورتوفينو، لعلّها أجمل مكان في العالم! تلال تغطّيها الخضرة، تحمل شجر الزيتون والكروم، وتتناثر على سفوحها قصور يعود بعضها إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتي امتلكها نبلاء أوربة، وقد تحوّلت



حلّها إلى أوتيلات صغيرة، تستقبل السيّاح من مختلف أصقاع الدنيا. تطلّ القصور على خليج فيروزيّ وادع، يحتضن عشرات المراكب الصغيرة الأنيقة، والتي تعود إلى الصيّادين من أهل بورتوفينو، إذ يعدّ الصيد مهنتهم الرئيسة، وتتهادى إلى جانبها يخوت مهيبة لأثرياء أوربة والعرب. وعلى الشاطئ الذهبيّ الذي لا تفصله عن القصور سوى أمتار قليلة، تنتشر أجمل الأجساد الملوّنة والعارية في أناقة استثنائيّة، لا تتوافر عليها لا شواطئ (كان) ولا (أكوبولكو)، ولا (المالديف). (شاتو دي بوتشيللي) واحد من هذه القصور الساحرة، الذي صار فندقاً من اثنتي عشرة غرفة، وكان المكان الذي نقضي فيه بضعة أيّام كلّ صيف. أوّل ما صافح جسدي الماء كان في بورتوفينو، وأوّل ضربة عرفها قلبي خارجة على الإيقاع كانت هناك في بورتوفينو.

كان بابا قد انتقل بعد الماجستير ليعمل مع واحد من أساتذته في شركة هندسيّة عابرة للجنسيّات، مقرّها مونتريال، تقوم بتنفيذ مشاريع هندسيّة كبرى في العالم، وفي تلك الشركة التقى بالسيد بوتشيللي المدير التنفيذيّ لشركة فيات للسيّارات، ونشأت بينهما علاقة طيّبة بسبب لعبة "تنس"، فقد كان الاثنان من هواهما، وكانا يتوجّهان كلّ عصر إلى الملعب القائم في مجمّع سكن الموظّفين، ويمتدّ بهما اللّعب بما يجاوز الساعتين، وقبل سفره طلب السيّد بوتشيللي إلى بابا أن يصمّم له ملحقاً لاستراحة المديرين في شركة فيات، والموجودة في بورتوفينو، قريباً من ذلك القصر الذي ورثه



عن أجداده. قضى بابا إجازته التالية في استضافة الرجل، وأنجز العمل، وقد أحبّ المكان كثيراً، ورفض أن يتقاضى أجر التصميم، وبدلاً من ذلك طلب إلى السيّد بوتشيلّلي أن يمنحه كلّ صيف إقامة مجّانيّة لمدّة أسبوع مع العائلة في القصر، فوافق الرجل فوراً، وكان ذلك المكسب الأبهج الذي حصلنا عليه في تاريخنا كعائلة، فذكرياتي الأجمل كانت على ذلك الشاطئ، أستقلّ قوارب الصيّادين، أشوي المحار وأقشّره كما يفعلون، ألقي بجسدي الصغير في تلك المياه الشهيّة وأصابعي تبحث عن حبال تمدّها الشمس، لتتسلّقها نحو الأفق. كان جورجيو ابن مدير الفندق صديقي الأقدم، يكبرني بعامين، وكان يأخذني في نزهات إلى التلال المحيطة حيث تنتشر رائحة طازجة للخوخ والدرّاق، أركب وراءه على درّاجته، وندور في أزقّة البلدة الهادئة، نصعد نحو البرج، وندخل بهو الكنيسة العتيقة ذا العقود الرومانيّة المهيبة، ونجلس على عتبات بيوتها العابقة برائحة النبيذ المخبوء في الأقبية. في قبو الفندق السحقيق والرطب، والذي يرسم الملح على جدرانه الصخريّة أشكالاً لأشباح ميّتة، كانت قُبلتنا الأولى أنا وجورجيو، القبلة التي أصبت جرّاءها بدوار استمرّ إلى اليوم الثاني، مع وجع في البطن وإسهال، والتي أورثتني ما يُسمّى بصداع القبل، والذي مازلت أعاني منه إلى اليوم.

على تيرّاس القصر، يقضي الساهرون لياليهم العذبة تحت سماء بوتوفينو المقمرة، تدور الموسيقى، ويقبل الراقصون على



الحلبة، كنت أرقص مع جورجيو وأغتاظ حين يراقص غيري من الفتيات المرافقات لعائلاتهنّ، وبابا يراقص ماما على إيقاع الموسيقى البروفنساليّة، والفالس الثاني لـ (شستاكوفيتش).....

في الساعة العاشرة من مساء كلّ سبت، تعتلي داليدا المنصّة، وتحمل العالم كلّه على صهوة حنجرتها الجامحة، كانت تفتتح كلّ سهرة بأغنيتها الأجمل، والتي ظلّت ترافق مساءاتي لأعوام عديدة: (I found my love in Portophino...)، عثرت على حبّي في بورتوفينو...، وبها تسرق قلوب الساهرين الذين جاؤوا من كلّ مكان إلى هذه البلدة الساحرة، سعياً وراء بهجة هذا الجزء الرومانيّ العتيق من المتوسّط، تكون خلال ساعتين أو ثلاث، قد غنّت بالإسبانيّة، والإنكليزيّة والفرنسيّة والعربيّة، وأرسلت سلامات للحضور بعبارات مصريّة أصيلة: سلام يا معلّم، بوسة يا قمر... يهشّ لها العرب الحاضرون جميعاً، لتختتم السهرة بأغنيتها العبريّة المعتادة: "هافا ناجيلا" التي ما أن تعزف الفرقة مطلعها حتّى ينقلب مزاج بابا، فينهض بسرعة وهو يقول: نزعت لنا السهرة، وننهض معه لنغادر إلى غرفتنا، ويقوم معنا بعض من العرب الذين قد نصادفهم في سهراتنا، في حين يكون الباقون قد أصيبوا بحمّى الرقص والسرور، فيردف بابا: طبعاً، أبوها سجنه إنكليز مصر لأنّه من جماعة الدوتشي، وعبد الناصر طرد ملّتها من الأرض التي لم يعرفوا غيرها وطناً! جورجيو كان يتعاطف معنا، فيخرج بعد أن شرحت له بما أسعفني من فرنسيّة



كنّا نتفاهم بها، قضيّة العرب وإسرائيل، وما ترمز إليه هذه الأغنية بالذات من قصديّة لاحتفال الاسرائيليّين باحتلال فلسطين. لم أكن أعرف من الإيطاليّة سوى بضع كلمات تعلّمتها بحكم تكرار سفرنا إلى روما وبورتوفينو، وعبارات شائعة كان عمّي فيصل قد علّمني إيّاها، قال لي: حينما تتعرّفين إلى شاب إيطاليّ لن تحتاجي سوى إلى قول عبارة أو اثنتين:

Ti amo tanto/Ti voglio bene assai

أحبّك حبّاً جمّاً!

صادفت داليدا مرّات عديدة في بهو الفندق، ورأيتها عصر أحد الأيّام على الشاطئ، كانت بلباس البحر، ترتدي مايوه بيكيني أخضر اللّون، وتعقص شعرها الأصفر الكثيف نحو الأعلى، وفي يديها أساور ذهبيّة اللّون وعريضة. تستلقي على بطنها على الرمل، بلا مقعد أو مظلّة، وتغمض عينيها المكحّلتين بكحل أسود عريض، وتبدو كأنّها نائمة. كنت أظلّ وقتاً طويلاً أتأمّلها، أحببتها منذ ذلك الحين، في منتهى الجمال، هادئة وبسيطة، وأموميّة جدّاً، ولها جسد مبهر، قويّ ومشدود، وبشرتها ذهبيّة، وأنا مازلت أحبّها وأشعر أنّها تخصّني، وأنّها جزء من عالمي. وحين سمعت خبر انتحارها في السنة التالية، بكيت كثيراً وبحرقة! وقتها قالت لي ابنة خالتي إنّني أبكي على فاسقة، وإنّ الله سيحشرني معها في جهنّم، وكان الأولى بي أن أبكي على موت المقرئ عبد الباسط عبد الصمد، الذي لم يأبه أحد



لموته. لكنّني كنت أحبّ عبد الباسط عبد الصمد، أفتح التلفزيون مبكّراً عند بدء الإرسال في الثالثة عصراً لأسمعه وهو يتلو "والضحى والليل إذا سجى"، وكنت أبكي عندما يقول "فأمّا اليتيم فلا تقهر"، لكنّ ابنة خالتي لا تعلم شيئاً عن محبّتي له.

كانت داليدا رغم قوّتها البادية، وعالمها الواسع الذي صنّعته بلغات تسع، في منتهى الرقّة، فيها هشاشة محبّبة، وقد أحبّت كما تحبّ امرأة مصريّة حقيقيّة، وانتهت مثل كليوباترا، بمنتهى التراجيديّة والشجاعة.

كنّا نستلقي أنا وجورجيو مواجهَين الأفق، على دكّة خشبيّة في ظهر مركب راسٍ عند الميناء الصغير، نستمع إلى إذاعة محليّة تحمل اسم "نوستالجيا"، وتطلق أغنيات فرنسيّة قديمة لإديت بياف، وشارل أزنافور، وجاك بريل، وكنت أقول لجورجيو: إنّ في الفرنسيّة معانيَ ساحرة ليس مثلها في أيّة لغة، إنّ الفرنسيّة أجمل اللّغات! وكان يقول بهدوء فيلسوف، وقد أغمض عينيه، ووضع في استلقائه ساقه اليمنى على ركبته اليسرى: هذا لأنّك لا تعرفين الإيطاليّة، كم أتمنّى لو تفهمين لغتي! نحن الإيطاليّين نتكلّم من هنا، ويمسك بيمناي ويضعها على كبده، ويكرّر ضاغطاً إيّاها على خاصرته:

(d'ici / da qui, da qui) من هنا، من هنا... وكان ذلك درس البلاغة الأوّل في حياتي!

كنت أستمع لحديث رجل وامرأة، ستينيّين غالباً، يستلقيان على مقعدين ويواجهان البحر، وفوقهما مظلّة من قماش أشبه ما



يكون بألياف الشجر المتداخلة، بحيث تبدو السماء من خلال تصميم المظلّة على شكل معيّنات زرقاء بين النسيج البنيّ. كانت المرأة الشقراء التي ترتدي لباس بحر أسود بنقشات هندسيّة بيضاء، ذات جلد محروق بالشمس، منمّش ومترهّل، وكانت تقول له: انظر ما أجمل امتداد السماء! فكان ينظر في المعيّنات المحدّدة فوقه ويقول: إنّ النهائيّ أجمل من اللاّ نهائيّ، إنّه أكثر ألفة.

* * *

غبنا بضعة أصياف عن بورتوفينو، وحينما عدنا كنت في نهاية المرحلة الإعداديّة، وسلمى وجود كانتا في الابتدائيّة، وكان جورجيو شابّاً ساحراً مفتول العضلات، ملوّحاً بلون الشمس، شعره أسود لامع، وبشورت أبيض، عاري الصدر دائماً، وتتدلّى من رقبته سلسلة ذهبيّة غليظة تحمل صليباً كبيراً، لم أر أجمل منه إلى اليوم. كان من الصعب ترميم ذكرياتنا، إذ لم يعد بابا كما كان سابقاً، يسمح لنا بالخروج مع جورجيو. كنت أتجوّل مع أختيّ على الشاطئ، نسبح، ونقرأ، ونستمع إلى الموسيقى. بقيت بيوت بورتوفينو كما هي، وكذلك مراكب الصيّادين، وأجراس الكنيسة العتيقة. وجورجيو كان دائماً مع الحسناوات، يتجوّل معهنّ في الأزقّة، ويرافقهنّ في سهرات المساء، حيث مغنّون هواة يعتلون المنصّة، يغنّون أغاني موسيقى الروك والبوب الدارجة بين الشباب، ويغنّون هافا ناجيلا أيضاً، فننسحب نحن، ويبقى



جورجيو يراقص حسناواته. في ذلك الصيف لمحت الدكتور يعقوب، كان نزيلاً في شاتو دي بوتشيللي، ترافقه سيّدة جميلة، تبدو أمًّا صغيرة، كانا معاً، لكنّ كلًّا منهما وحده، يتابع الراقصين من قوقعته. صادفتهما يتجوّلان أيضاً في سوق البلدة، يجلسان على الشاطئ، ولا يبدو أنّهما يستمتعان بوقتهما. في ساحة البلدة بجانب البلديّة، يقوم محل جيلاتي شهير، اسمه Paix، يتردّد السيّاح إليه، وكان يعقوب الذي في العشرين ربّما، يشتري كلّ عصر كوز آيس كريم ملوّناً، ويجلس على مصطبة في الجانب المقابل، يلتهم كوزه مثل طفل منهوم. جسده ضئيل، وشعره الأسود طويل وأشعث، يغطّي رقبته، وله شورت كحليّ وقميص قطنيّ أبيض يلتصق بجذعه، ليبدي عظام قفصه الصدريّ، وكان يرتدي صندلاً بجوارب قطنيّة رياضيّة وسميكة، وكنّا نستغرب ارتداءه الجوارب مع صندل مفتوح! وقت طويل عدّى، واختلف مظهره، لكنّ ثمّة وجوهاً تفرض ملامحها على الذاكرة مهما كان الظرف والتاريخ، ووجه يعقوب منها. حوّم طفل صغير مع والديه حول يعقوب، حول كوز الآيس كريم، والداه ينظران بإعجاب إلى حركاته المحبّبة الودود، ولا يزجرانه، فهما مثل أيّ والدين يظنّان أن على العالم كلّه أن يستقبل حركات طفلهما بفرح. كان الطفل قد التصق بيعقوب، الذي بدا أنّه لا يريد أحداً، يزجره فلا ينتهي، يبتعد عنه، فيدنو أكثر، فما كان من يعقوب الذي تأكّد من انشغال الأبوين بالكلام إلاّ أن تناول يد



الطفل وعضّها بشراسة، قالت جود: يا مامي، إنّه يعضّ! وملأ صراخ الطفل ذي السنتين الساحة، وجاوزها إلى الشاطئ القريب...

وقتها سألت سلمى ماما:

- هل يجوز أن نرتدي جوارب مع الصندل؟
- أجابت ماما بطريقتها الحاسمة:
- لا.
- لكنّنا رأينا ولداً يلبس جوارب مع الصندل!
- ربّما يعاني من بعض الفطريّات في قدميه.

في مساء اليوم التالي كان الشاب الذي يبدو لضآلة جسده ولداً يافعاً، وحيداً على الشاطئ، يجلس على صخرة مرتفعة، يضع رأسه بين يديه ويبكي. اقتربت منه، أعرف أنّه عربيّ، حاولت أن أكلّمه:

- ما بك؟ متعب!

رفع رأسه مثل سيزيف، وحدّق في وجهي، في عينيّ، وكنت عاجزة عن توقّع ردّ فعله، ثمّ قال لي: امضي... فمضيت. لكنّني عدت، وقد حملت معي كوزَي جيلاتي، واحداً له، وواحداً لي. تلك كانت طريقتي في التعامل مع الحزينين، وكان بابا يؤنّبني بشدّة على تعاطفي معهم، ويردّد: لستِ مصلحة اجتماعيّة، وكنت أرى في ذلك تعويضاً عن تاريخ عائلتي الإقطاعيّة التي يُفترض أن تكون، كما يظهر في الأفلام، قاسية وظالمة.



التهمنا معاً الجيلاتي على الشاطئ، ظلّ جالساً، وأنا واقفة، أرفع رجلي على الصخرة التي يجلس عليها، فخورة بمبادرتي مثل محسن مجهول قدّم تبرّعاً سخيّاً لدار أيتام، وتواطأنا على صداقة صامتة، يكتفي فيها كلّ منّا بالنظر إلى الآخر، ثمّ التشاغل بأكل الحلوى. بحثت عنه في الأيّام التالية، فلم أجده.

حين أخبرت سلمى بالهاتف أنّ الدكتور يعقوب، الذي سيعالجني هو ذاته فتى الجيلاتي، الذي عضّ الولد، وارتدى الصندل مع جوارب، لم تصدّق، ظنّت أنّني أهذي من وطأة الصدمة والمرض، وحينما أكدت لها ذلك شعرتُ بقلقها، قالت: إنّه مجنون، ثمّ عاودت: إنّ هؤلاء المجانين، وغريبي الأطوار هم الأفضل لعلاج الأمراض الصعبة.

* * *

جاء اليوم الموعود، يوم جرعة الكيماوي الأولى، التي أدخل منها عتبة عالم جديد صرت أرغب به بشدّة، لأنّه سيكون عالمي الحقيقيّ المفصّل على مقاس طاقتي، التي وجدها الله هائلة لتحتمل امتحاناً، لن أكون بعده كما كنت قبله. ستحترق كتلتي منذ اليوم شيئاً فشيئاً، فتتيح مكاناً أرحب لأنفاس اشتقت لأن تعبر خلايا صدري، لن يعرف أحد على وجه الأرض معنى عبارة "يحصي أنفاسه"، التي تقال كثيراً بادعاء فارغ، سوى نحن، أنا والمصابون مثلي: نفَس ينجح في الوصول إلى القلب، ونفس



يفشل، فيحبطني، هكذا قضيت ما يزيد على السنة، ما يزيد على ثلاثمئة وستين يوماً، أعدّ الأنفاس، التي لا يفكّر أحد بها، ولا يحمد الله على مرورها في جسده بمنتهى السلاسة. كان موعدي في الثامنة والنصف، نام ناصر عندي تلك الليلة من غير أن أطلب إليه أن يفعل. ارتديت ملابسي، كان بنطلوني الجينز قد وسع كثيراً، مقاسين ربّما، ومع ذلك لبسته وأمسكت به عظمتا خصري الناتئتين، وفوقه تي شيرت أزرق داكن، وأصرّ ناصر على أن آخذ جاكيت مع أنّنا كنّا في أوّل أيّار، كما أصرّ على أن نتناول شطيرة جبن وكوباً من الشاي، إنّه يستطيع التفكير بالطعام بينما أموت! تناولت لقمتين ومضينا.

المادّة الحمراء وصلت بعد أن حقنتُ بمحاليل عدّة مضادّة للحساسيّة ومغذّيات، جاءت في ثلاّجة هبطت من فوق، مثل مصعد صغير، واستقبلها الجميع بجلال. سألوني عن اسمي حوالي ستّ مرّات، ليتأكّدوا من أنّهم يعطون الدواء للشخص الصحيح. كان الناس من حولي يجلسون في كراسٍ خاصّة، بمرافقين وبلا مرافقين، وبعضهم في حجرات على أسرّة، هناك عرب وأجانب أيضاً، ورجل أدخل طعاماً كثيراً إلى زوجته المريضة وأمّها، وكأنّهم في نزهة. نمت قليلاً في كرسيي، وناصر كان يتابع الأخبار على شاشة أمامنا. أيقظني هاتف جود، كانت تطمئنّ، قالت لي إنّهم جميعاً بخير! من قال لها إنّني أسأل أصلاً أو يهمّني أن يكون أحد في العالم بخير، فأنا لست بخير. مرّة أشعر بالحرارة،



ومرّة بالبرودة، يغطيني ناصر، فأهمهم بالاعتــذار، ويقــول لي: اعتبريني ممرّضاً مأجوراً، أعود لأغفو، وأصحو حينما يأتي الفــنيّ لتبديل المحلول، أجد ناصر نائماً، ممسكاً بيدي الحرّة من الإبــرة، وعلى وجهه الكتاب الذي شرع بقراءته: "جغرافيا الشــتات"، تمنّيت لو كنت بصحّتي، لقرأته في مساء واحد! تسلّل إلى سمعي صوت رجل يقول لآخر إنّ الدكتور يعقوب هو الأفضل علــى الإطلاق، والجميع يشفى عنده، فاعتراني الأمل مــن جديــد، وتابعت غفوتي، لبقيّة الساعات الخمس.

تستلقي على الكرسيّ الذي يشبه كراسي أطبّــاء الأســنان، سيّدة اسمها رانية، تبدو في الثلاثين أيضاً، مرهقة، ورغم ذلك حلوة، طويلة، وممتلئة، وبنطلون الجينز الأزرق يمسك بجسدها بقوّة، وفوقه سترة رياضيّة رماديّة اللون، على ظهرها صورة ميكــي مــاوس، وشعرها الأسود موجود على رأسها، ربّما نوع الكيماوي الــذي تأخذه لا يسقط الشعر! إذن مرضها قد يكون في القولون مــثلاً، وبدا أنّها ليست جلستها الأولى، فطاقم التمريض كلّه يعرف رانية هنا. كان الفنيّ قد انحنى يمسك يديها برقّة وعذوبة ليركّب لها الإبرة التي ستمرّر الدواء إلى الجسم، في تلك اللحظة دخل زوجها بنوبــة غضب، وقال لها بصوت أقلق محاولاتنا للتمسّك بالحياة في هــذه الغرفة: تحبّينه! تحبينه! ها! تأتين إلى هنا لتعشقي...

صرخت رانية، وضحكت، وشتمت، وبكت وهي تصيح: أخرجوه، لا أريد أن أراه، مجنون، حيوان....



أخرجوه وسط ذهولنا، وبقيت رانية وحــدها، غارقــة في كآبة، لا تنظر إلى أحد، ولا تبالي بشيء، عيناها معلّقتان علــى شاشة تبثّ برنامجاً وثائقيّاً عن الدبّ القطبيّ، عاد الفنيّ الشاب ذو اللحية السوداء المشذّبة والعينين السوداوين والشــعر المخفّــف بحلاقة متقنة، غيّر لها كيس المحلول المعلّق، لم يتكلّما، طبطب على يدها الصفراء الطليقة من الإبرة، لم يرفّ لها جفن، اختلس قبلة من باطن كفّها، فلم تبالِ بشيء، أشعر بها تماماً، وهي تسافر في فضاء آخر، لا علاقة لها بهذا الكون، الكيماوي أقسى مــن أيّ شيء، ولا طاقة لبشر على احتماله، يقتل القلب قبل أن يقتــل خلايا الجسد.

عدت إلى البيت مرهقة، أنتظر أن يصغر ورمي، فأشعر بالهواء في قصباتي، وبين عروقي، وبين خلاياي، لكن هذا لــن يحــدث اليوم. شربت ماء كثيراً كما طلبوا إليّ، وتبوّلت ســائلاً أحمــر، وتناولت حبوب الكورتيزون، وحده الزمن سيستطيع محو طعــم مرارتها. لم أتداعَ كما قيل لي، لدرجة أنّني جلست على الأريكة في الصالون، وضع ناصر تحت قدميّ وسادة، ورحــت أقــرأ في كتاب عن مونيه، وغوغان، وفان غوخ. أطعمتني "تامي" الخادمة قليلاً من الدجاج والأرز، وشعرت بناصر متفائلاً، وقال إنّ بعض الأجساد تتصالح مع الكيماويّ، وتمنعها قوّتها من الانهيار.

نمت بعدها، وصحوت مساء مشمئزّة، وأريد أن أفرغ مــا في معدتي، وبدأ مكان الورم يخزني، تصوّرت أنّ السائل الأحمــر



قد بدأ يكوي الورم، كنت أحاكي حركته وهو يتصارع مع خلاياي الزائدة الخبيثة، وشعرت بها تحترق، وبدأ جسدي يخرج من جلدي، أو روحي هي التي تخرج، ونمت لثلاثة أيّام متواصلة، كان ناصر خلالها يعطيني حبّة الكورتيزون دون أن أشعر به قد أيقظني. صحوت جائعة، ومهدودة، ولم أسأل أين ناصر، لم أسأل عن أحد. كان توقيت المطر غريباً، ظننت بأنّني أراه بفعل الكيماويّ، لكنّها كانت تمطر في آيّار حقّاً، رأيت ناصر في الشرفة، وقد وضع الدلوين اللذين كانا في الحمّام، وراح يراقب قطرات المطر تتجمّع داخلهما. قال: يمكن استعمال هذه المياه في التنظيف. كنت أريد أن أقول له اخرج من بيتي أيّها المجنون، أنا أموت وأنت ترشّد دلوين من الماء! لكن لم يكن فيّ طاقة لأجادله. أريد أن أبقى وحدي قليلاً. بعد أسبوعين بدأ شعري يسقط، في الحقيقة، كنت أنتظر سقوطه من اليوم الأوّل، بل من يوم عرفت بإصابتي، إنّه الدليل الدامغ على الصراع مع المرض. صار ينزل بيدي خصلاً عريضة، كلّما سحبتها، يُقتلع من جذوره، أخذتُ وقتاً طويلاً لتفرغ مقدّمة رأسي، وضعت قمطة صغيرة كحليّة، تدلّى منها ما بقي منه، وبدوت مثل سائحة أجنبيّة، وهكذا ذهبت إلى الطبيب، ليحدّد لي موعد الصورة الطبقيّة التالية. جلست أمامه، وأجال نظره حولي، حول وجهي، ورأسي الذي دخل بوابة البؤس بثقة، وداري بجهد ضحكة غير مفهومة، ظلّت في قلبي مثل طعنة شفاهها ما تزال مفتوحة إلى



اليوم، لقد أضحكته قمطتي الصغيرة، إنّه يستهزئ بها، شـعرت بالأسى الذي يطلع من نظرتي إلى عينيه الفارغتين من أيّ معنى إنسانيّ، جبانتين، وأكثر من حياديّتين مع عذابات البشر، وأردت أن أذكّره بنفسه حين كان يبكي في بورتوفينو من هاتين العينين ذاتهما، وأنّه عضّ ولداً صغيراً بوحشيّة، وأنّني اشتريت له الجيلاتي، لكنّني تركته، مؤقّتاً طبعاً، وفي نفسي متّسع لعبارة براين ميللز في فيلم "taken" المخطوفة:

I'll find you, and I'll kill you.

سأجدك، وأقتلك!

* * *

خطوة جديدة باتجاه الله، مع أنّي لم أكن بعيدة عنه يوماً، وحتّى لو أبعدتني حمّى الحياة قليلاً، فإنّه يكون دائماً هناك، في مكان ما، في العمق، وعلاقتي الخاصّة به تجعلني أكتفي بالخجل من نفسي حينما أغضبه. ألا يكفي ذلك الخجل الحقيقيّ، والاستغفار المتكتّم، فلماذا اختارني أنا لهذا العذاب كلّه! أعرف الإجابات كلّها التي سيقولها الآخرون، يقولون عقاب، وتكفير عن ذنوب، واختيار، وامتحان...

وأواصل السؤال كلّ قليل: لماذا؟! لست نبيّاً، ولا وليّاً، ولا متصوّفاً، أنا إنسان ضعيف وأريد أن أسأل لماذا؟!

لماذا يا ناصر؟



يقول ناصر: الغيمة لا تسأل لماذا تسودّ ويثقل كاهلها بالماء، إنّها تحمله طواعية وتسافر به بامتنان، أليس أصلاً لها؟! وأصل البشر الألم، فقد خلقنا الله في كَبد! والمرج الأخضر البهيّ لا يعاند الريح حينما تشدّ عشبه، وربّما تقتلع بتلات أزهاره، بل يميل معها باستسلام تام، والطيور لا تلعن الصقيع، تغادر نحو الدفء فحسب، حتّى لو كانت رحلتها مغامرة، ونحن كذلك سنمضي في رحلتنا يا حبيبتي، وبامتنان تام، والإجابات عن الأسئلة ستأتي من تلقاء نفسها، كما يكتشف المرج سرّ الرياح مع الربيع، وتكتشف الغيمة سرّ حمولتها الزائدة حينما تغدق على الأرض وتعود إلى السماء ناصعة، وشابّة، وخفيفة. المعجزات تأتي كلّ لحظة، وعلينا أن نصغي لخطواتها، تشخيص مرضك اليوم وليس غداً معجزة، واستيقاظك حيّة كلّ صباح معجزة، ووجهك الجميل معجزة، ولقاؤنا الذي قُدّر أن يكون في عمّان لا في حلب، معجزة. تحتاج المعجزات إلى وقت لتصيب، والوقت يتطلّب منّا الصبر! أنا لا أصلّي صلواتي المفروضة بانتظام، وأتناول كأس نبيذي المحرّم بين حين وآخر، لكنّ علاقتي بالله عامرة، لا يمكن لأحد أن يقيّم علاقتك بالله إلاّ ضميرك. حين تحصل معجزتي اليوميّة بأن أستيقظ كلّ صباح، آخذ حمّامي وأستعدّ للقاء الله، على أيّ مذهب أو طريق، لا يهمّ، أخاطبه، أبوح له، أشكو، أشكر... تلك ساعتي المقدّسة، لا أسمح لشيء في العالم أن يغيّر توقيتها أو يخترق زمنها. بعدها أنطلق نحو حياتي، من غير



أن أكترث لشيء، أيّ نجاح أو فشل، آية لقاءات أو جوائز، أو شهادات أو بزنس كاردز أحصل عليها، كلّ الأشياء صغيرة ما دامت ساعتي السريّة قد تحقّقت في ذلك اليوم.

يعود بي ناصر إلى الوراء، قضايا بدائيّة كنت قد تخلّصت منها منذ وقت طويل، ترتيب علاقتي مع الله، ومع المقدّس، ومع الوجود، لقد درست طقوس العالم كلّها في علاقتها مع الشمس والريح والحجر والبشر والقوى السحريّة، وها أنا أعود لأسمعه مثل طالبة مستجدّة، لا تعرف من أين تبدأ البحث. لكنّني بحاجة إلي أن أسمع ما كنت أقول، أسمعه بصوت آخر، بحاجة إلى أن أحلّل في مختبر التجربة المرّة، كلّ الأفكار التي كوّنتني، وأن أحرّض إيماني الكامن بروح العالم ليصير فعلاً أقاوم به مرضي، أنا إذن في تقدّم وجوديّ لا في تراجع، لكن هل كان يمكن أن يحدث ذلك بلا هذا الألم، هذا العذاب، وما جدوى التقدّم الذي سيفضي بي إلى الموت، ليتني كنت بصحّتي، لأحاوره، لأحاضر به عن بوذا وفرويد ويونغ وليفي شتراوس، سأعرّفه أنّ الجغرافيا أسيرة التوقّعات المضلّلة، وأنّ الثقافة اختراع منافس لرغبات الآلهة، لكنّني متعبة، ومن أين لي أن أحصل على طاقة للكلام، إذا كان التلقّي يشقّ عليّ، وهو يوصيني بالصبر، والصبر بالنسبة إليّ هو أن أبيع الوقت لأشتري الوجع بلا تذمّر!

كان ناصر يحكي، وأنا في مستوى آخر من الوجود، مستوى الأنفاس المعطّلة، وكنت أغبطه، فلديه متّسع كي يتنفّس،



ويرتّب برامجه مع الله، ومع الحياة، في حين أنّ آلامي تقعدني عن الحلم، وليس لديّ وقت لأخطط لغد، فأنا أقرب إلى ألاّ يكون لي غد.

يسمع نشرة الأخبار، يكتفي بالموجز، وينقل لي موجز الموجز، وهو يناولني كأس عصير الليمون اليوميّ:

- الليمون يرفع المناعة، ويقاوم الورم.

لا يريد أن يثقل عليّ بأخبار الحرب، لكنّه في الوقت ذاته يصرّ على أن يقيني على صلة بالعالم، بما يدور حولي، كي لا أصنّف نفسي في عداد الغائبين. يلبس بيجامته الرماديّة ذات السترة المخطّطة بالأحمر، ويلتصق بجنبي الأيسر في السرير، فأبتعد قليلاً، فصدري بالكاد يلتقط الأوكسجين، ولا يحتمل ثقلاً زائداً حتّى لو كان ثقل حبيب. يحكي عن الوطن، وعن الانتصارات، وعن الخيانات، مثلما يحكي من ليس مريضاً بالسرطان، وأنا أريده أن يكفّ، صوته يوتّرني، وهذا الكلام كلّه تافه، أريد أن أسمع منه فقط أنّني سأشفى، وأن يحكي لي حكايات المرضى الذين برئوا وعادوا إلى الحياة، وما تبقّى من تحوّلات في العالم كلّه زائفة وصادرة عن مغرورين وجهلة، كان عليهم بدلاً من أن يصنعوا الأسلحة، أو يشتروها، ويقتلونا بها، أن يخترعوا دواء يخفّف هذه العذابات، ويمنع الأمراض. أريد أن أسمع كلامي الآن، لا كلام ناصر، كلامي أنا الحقيقيّ، لا كلام المبعوثين الدوليّين إلى سورية. إنّ الكلام في أثناء العدّ التنازليّ



للأجل المحتوم كلام آخر، لأنّ قائله يعــرف الحجــم الحقيقــيّ للأشياء، ويعرف تماماً الفرق بين الصغائر التي تكون صــفراً في اليدين، وبين ما له ثقل ووجود، ففي الحقيقة النهائيّة جسدك هو وطنك، والخيانة العظمى هي خيانة الجسد.

* * *

رجوته أن يتركني أذهب إلى جلسات الكيماوي وحدي، وأن يلتفت لعمله، لكنّه رفض رفضاً قاطعاً، ثماني جلسات، بمقدار جلسة كلّ ثلاثة أسابيع، لم يتخلّف عن واحدة منها، يبيت ليلتها في بيتي، وننطلق في الثامنة والنصف إلى المستشــفى، ونعــود في حــوالي الواحدة. لكنّني تشبّثت بطلبــي ألاّ يرافقني إلى الصورة الطبقيّة التي تجرى كلّ أسبوعين، وتبيّن تراجع الورم، وبعدها ألتقي الطبيــب، ليقرأها، ويتابع خطّة العلاج في ضوئها. قلت له أريــد أن أكــون وحدي الآن، لأواجه عالمي، وأتعرّف على تفاصيله وأقيم علاقات مع الآخرين الذين ينتمون إليه، فاستجاب ناصــر لرجــاءاتي. في الحقيقة كانت تلك قائمة مزيّفة من الأسباب، فأنا أريده أن يكون معي في كلّ خطوة، لكنّني لا أريد أن أستنفد صبره وحبّه، ولا أريد له أن يعيش قدراً لا يخصّه، فالألم كتب عليّ أنا، وليس من العــدل أن يشاركني فيه برؤية البكاء، والتشوّهات، والجثث المتحرّكة.

أجلس في صالة الانتظار في العيادات الخارجيّة، أبحث عــن وجه يبعث إشارات الأمل، وقلّما أجد، فالوجوه في حالة وجــوم



مطبق. أحدّق في الجدران الرماديّة التي يشبه بعضها بعضاً، واحد فقط هو المختلف، ذلك الذي خلف منسّقة الدور، ففي نهايته لوحة الكهرباء، أزرارها ملوّنة حمراء وسوداء، قرّرت أن أجعلها نقطة علاّم لحالتي، كنت أقول لنفسي سآتي في الزيارة القادمة، بإذن الله، وأنظر إلى هذه اللّوحة وسأكون أفضل، وَرَمي أصغر، ونَفَسي أوسع، إلى أن يأتي يوم سأنظر إليها مثلما ينظر العشّاق إلى دفتر ذكريات قديم، يعزّ عليهم أن يمرّوا به دون أن يلقوا نظرة على صفحاته، سأقول لها وصلنا خطّ النهاية وها أنا قد شفيت تماماً! للمكان رائحة رماديّة أيضاً يعتادها المرضى، مزيج من الأدوية والمطهّرات، و"جل" تعقيم اليدين، الذي ستصير رائحته بعد قليل عطري المفضّل. شاشات التلفزيون المعلّقة على الجدران كلّها موجّهة إلى أقنية القرآن الكريم، تبثّ سورة الأنعام، وأدعية التضرّع للشفاء، وكذلك المصاحف منضودة على الطاولات حول المرضى، كنّا جميعاً بحاجة إلى التضرّع، إلى ذكر الله لتطمئنّ قلوبنا، رغم أنّ المشهد كلّه يجعلنا شهداء على حفلة موتنا، ومجلس عزائنا. ليس ما ينقذنا سوى ابتسامات تبثّها الممرّضات والموظّفات هنا وهناك، بشيء من الماكياج على وجوههنّ العفيّة، وألوان زاهية تفيض بها الإيشاربات على رؤوسهنّ، بضعة من إشارات الحياة التي نبحث عنها مع أنّها تملؤنا بأسى عميق.

لا يمرض المرء وحده كما يظنّ بداية، فحين يجلس هنا، يرى العالم كلّه مريضاً بالسرطان، ودائماً هناك أسوأ، الوجوه صفراء،



والرؤوس صلعاء، لا حواجب ولا رموش، هذا هو العالم الذي تنتمي إليه جمان بدران، عالم عنوانه (المصطَفون للألم). نجلس جميعاً بانتظار المخلّص.

حينما أتيح لي الوقت لألاحظه أكثر، وجدت أنّ المخلّص يحتاج أيضاً إلى مخلّص، فهو يخفي وراء أقنعته المتوالدة هشاشة يصلح معها ليكون بطلاً لرواية من روايات هنري ميللر. بشرته بيضاء، وعيناه مدوّرتان تحت نظّارتين مدوّرتي العدسات أيضاً، لا يترك رؤوس شعره تعلو جلدة رأسه إطلاقاً، وذلك منذ أن دخل حقل العمل، إنّه نوع من التعاطف مع المرضى، ومحاولة التساوي معهم، ونحن حقّاً ننفر من التعاطف وإن كان أصيلاً! له لحية سوداء غير مشذّبة تطول عن ذقنه سنتيمترات عدّة، تتّصل بشاربين رفيعين، وتخرج من كمّي الصدريّة الواسعة كفّان بيضاوان صغيرتان، مرّة واحدة استطعت أن ألمحهما، بعيداً عن القفّازات السميكة، كفّان تفتقران إلى الأناقة، بأصابع غليظة، وأظافر مهملة، لكنّهما بالنسبة إلينا مباركتان، وستجترحان المعجزة. مظهره غير المألوف يبديه كروحانيّ أكثر منه طبيباً، وتجعله خطورة الحالات التي يتعامل معها، وسريّة المرض، أقرب إلى عالم الموت منه إلى الحياة، يدخل عقول الذين يعيشون أيّامهم النهائيّة، ويكشف أجسادهم، ويسمع بوحهم الأخير، وكلماتهم التي يقولونها عند حافّة النهايات، والتي تكون الأكثر صدقاً على الإطلاق. إنّه عتبة أخيرة نحو الموت أو عتبة أولى باتّجاه الحياة،



وهذا التناقض يمنحه سحراً: الأبيض والأسود، والحياة والموت، والقسوة والهشاشة، والطفولة والشيخوخة، والقلق والثبات، والجبن والشجاعة.

كان وجه المخلّص في كلّ مرّة رأيته فيها مشوباً بالقلق، هيّاباً من نظرة المريض الذي قد تجعله الآلام يستعجل قدره، فلا أحد يضارع في قوّته مريض السرطان، وهذا المخلّص بكى كثيراً مع المرضى حتّى تهشّم قلبه، فتوصّل إلى تسوية من قدره ومع أقدار الآخرين. لم يكن يسمح بالمزيد من الأسئلة الصعبة، حتّى تبقى أبواب القلوب مواربة، فلا يوغل في وحشة النهايات، فهو ليس إلهاً، ولا حتّى نبيّاً، وليس بذلك القائد الشعبيّ الذي تستسلم الحشود لأبوّته الغامرة، بل إنّه محاط بهالة الشكّ، والذكاء المفرط، والمزاجيّة المنفّرة، لكنّك إذا اضطررت إلى أن تضع حياتك بين يدي شخص ما، فستضعها، بلا تردّد، بين يديه!

* * *

استمرّ شعري بالتساقط، وصار مزعجاً، فاقترح ناصر أن نتخلّص منه تماماً. تبعته إلى الحمّام كما أمرني، مثلما يفعل طفل يعرف أن لا مناص من الامتثال لأمر أمّه. وقفت قبالة المرآة أمامه، وعليّ (تي شيرت) قطنيّ أبيض فحسب، يستر الجزء العلويّ إلى الفخذين من جسدي الذي صار ضئيلاً فجأة وبأيّام



قليلة. نظرت إليه في المرآة، كان منهمكاً بتوصيل آلة الحلاقة بمفتاح الكهرباء على الجدار. أزّت الآلة، وراحت يده تمشي بها على رأسي بحرفيّة، وتجزّ شعري الأسود، اللاّمع، الطويل، فتتساقط خصلاته على ورق الجرائد المفرود على الأرضيّة، ثمّ تتناثر مثل أحلام شظّاها زمن رديء. كان يحرث في رأسي بآليّة مطلقة، بلا قلب، وكانت دمعتان حارقتان قد علقتا بأهدابي، وفكّرت لوهلة:

كيف يدخل رجل غريب حمّامي؟ وكيف أقف أمامه شبه عارية؟ ومن هو هذا الوحيد الذي رأى منّي ما لم تره حتّى أمّي يوم ولادتي؟ رآني حليقة الرأس تماماً مثلما لم أتوقّع أن أرى نفسي يوماً! لكن سرعان ما تلاشت تلك الفكرة مع غيرها من أفكار كثيرة كانت في الماضي القريب من قبيل المحظورات، إذ لم أعد أبالي بشيء. إنّ فكرة التحرّر أجمل ما في المرض! التحرّر من الأشياء كلّها، ومن الناس كلّهم، ومن الأعراف كلّها، ومن الزمان والمكان، والخطأ والصواب، وحتّى من الحنين. وإذا مرّت التجربة بسلام، وجاء الشفاء، فسيكون شعور صاحبها بالأسف، أو الندم، أو الحسرة، أو الرغبة، أو البهجة أقلّ بكثيييير!

عدت إلى نفسي، وتثبّتُّ من أنّني مع ناصر من جديد، ناصر الذي ليس عندي غيره، ولا أريد غيره، حاولت أن أتعرّف إلى نفسي في المرآة، وكان خلفي يتأمّل معي الصورة الجديدة، كلّ تفاصيلها باهتة وبيضاء مثل سماء تحجب زرقتها الغيوم، فيها فقط



عيناي البنيّتان تلمعان بضوء يجرح زجاج المرآة، ثمّ ينكسر بذبول مقاوماً الانطفاء، يضاف إليهما لون قميص ناصر الأصفر. مسحت بكفّي على رأسي الأصلع، فاعتراني شعور حلو، وخزات ناعمة ممتدّة على باطن كفّي، كرّر ناصر حركتي، وهو يحدّق في عينيّ من خلال المرآة، فاحتوت كفّه الكبيرة كرة رأسي الذي تبيّن أنّه صغير جدّاً، نزل بيده إلى ذقني، واحتضن بها وجهي كاملاً وضغط على عظام خديّ بقسوة، وكان ما تبقّي من لحم يستجيب لأصابعه في انثناءات موجعة:

- هذا الوجه العنيف في براءته، تمنيت مذ رأيته أن يكون بين يديّ، أن يكون لي..

نقل يديه مطوّقاً خصري برخاوة، وراح يقبّلني في عنقي قبلات عميقة، ثمّ يريح جبينه على كتفي، ويواصل لثم ما يقع في طريق شفتيه، استطاع أن يحوّل لحظتي المهينة أنثويّاً إلى لحظة محلّقة، يتمتم:

- جمان، جمان.. حلاوتك جارحة، لا أحتملها... فيك الآن غلمة بدائيّة توقظ الشهوات المستغرقة في نومها، غلمة (غايا) الأرض، أخيراً وجدتها....

أوّل مرّة مذ عرفته، يتكلّم ناصر عن الشهوة! كنت قد فكّرت فيه طويلاً كما تفكّر النساء بالرجال، تساءلت عن رغباته الساكنة وراء حضوره الجادّ، وعفّته الأنيقة، لكنّ الإجابات تأتي كالعادة في غير وقتها، ولا أعرف إن كان يقول لي ذلك بدافع



المكاشفة التي اقتضتها لحظة الحقيقة، أم بدافع المؤازرة الإنسانيّة! وشعرت برجولته المتفجّرة في لحظة النزاع الأخير لأنوثتي، ومع ذلك منحته القليل ممّا تبقّى منّي بدافع التجربة، أو الاستجابة الآليّة، أو اليأس، أو الإفلاس، كنت محتاجة ليديه، لغدده العفيّة، لنفَسه الطبيعيّ، لأعضائه التي تعمل بانتظام، بلا اضطرابات، لجلده الزهريّ الصقيل الجميل الذي بلا تشوّهات، بحاجة إلى الحياة في جسده، **وقد منحني إيّاها لدقائق نادرة لا تعرفها دناءات** البشر، ألصق ظهري المريض المشوّه بصدره الصحيح القويّ المعافى، فاهتزّت أعماقه برغبة ستظلّ مجهولة بالنسبة لكثيرين، رغبة مدفوعة بحرارة التفاني، والعطاء، والوداد، ولم تحترق أبداً بنار الشبق!

* * *

جلسات الكيماوي الأولى تمر بسرعة، ثمّ تأخذ بالتباطؤ المستفزّ، مثل حركة قطار الأرياف في دولة فقيرة. الدواء يصير أثقل، والمناعة تضعف إلى حدّها الأدنى، ويصير اللون الأصفر المبيضّ علامة فارقة، ويقضي على الشعر تماماً، كلّه، المرغوب به وغير المرغوب، تزداد قروح الفم، وجفاف الحلق، وازرقاق اليدين، نتيجة محاولات الفنيّين البحث عن أوردة ترفض أن تمنح الدم، لجفافها، ويصير المشهد سينمائيّاً. لو رأتني جدّتي الآن، لندمت على محاضراتها اليوميّة التي كانت تعذّبني بها: شدّي



ظهركِ، عدّلي جلستكِ، افردي كتفيكِ، ضمّي رجليكِ، ضعي ساقاً على ساق، نزّلي تنورتكِ، ابتعدي عن الشمس. آخ يا (نانا)، ما فائدة المشدّات، والكعب العالي، وكريم إيديال، إذا كانت كلّها ستنتهي إلى ما انتهيتُ إليه!

ينظر الطبيب في التحاليل بوجهه المنحوت مثل قطعة صابون بيضاء، ويقرّر الجرعة التالية. ماذا يهمّ الطبيب، والممرّضين، والعاملين! الجميع يعودون إلى بيوتهم، إلى أمّهاتهم وأطفالهم، وأعود إلى مرارة حبوب الكوتيزون، والماء الذي يصير بسبب الكيماوي علقماً. الكيماوي يغيّر كلّ شيء، كلّ خواصّ العالم، ليس طعوم الأشياء فحسب. أنام لأيّام متواصلة، وأتبوّل الـ R-Chop، الذي حُقنتُ به، ومرّة ينتابني إسهال وأخرى إمساك، ورأسي يظلّ كمن يتخبّطه الشيطان من المسّ! وحينما تحجم عيناي عن رؤية الأشياء بوضوح، يدخل ناصر عليّ فيراني أجاهد أنفاسي مثل شاة مذبوحة نصف ذبحة، تنتظر رحمة سكّين أكثر حدّة. أتوسّل الاستسلام للنوم. الاستسلام ليس مفردة سلبيّة أبداً، تأخذ هنا أجلّ المعاني، إذ تعني أن أهدأ، وأطمئنّ في بعد رابع من الوجود، أوغل فيه بالتخلّي عن جسدي وأحلامي وتطلّعاتي. قبله أظلّ أتألّم، وأتألّم، وأتألّم، حتّى يعجز الألم ذاته عن أن يأتي بجديد، حينها يبلغ الذروة، وأكون قد تحرّرت، يصير جسدي روحاً منفصلة عن العالم، وعن الوقت والمكان، ومحلّقة في سماء من الأمل بساعة قادمة ستكون أفضل، فلا أعرف إن كنت في السرير أم في



القبر. ثمّ أجدني في بيتي في الرقّة، في غرفة النـــوم الإســـبانيّة ذات السريرين من خشب الكرز البنيّ، وشراشف "الكائن" الأميركيّة، ولحاف الصوف الذي نفضت حشوته فضّة الخادمة، وحرامـــات "الباشمينا" البنيّة ذات الزهور البيج، ويد ماما تغطّيني بها.



أحلام البرتقال




مكتبة
الفكر الجديد

لعلّها أجمل مريضة سرطان، يمكن للمرء أن يقابلها على الإطلاق! الابتسامة المضيئة على فمها الصغير كانت كفيلة بتحويل قاعة الانتظار من مجلس موتى إلى ممرّ للأمل، إذ لا يبدو على ملامحها تعب المرضى ولا كآبتهم، ولا تفصح عيناها عن ذلك السؤال الحائر الذي يسكن عيونهم، ولا يجد إجابة: "لماذا أنا؟!".

لم تكن "هانوي" قصيرة أو طويلة، ولا ممتلئة، ولا نحيلة، لكنّ لها جسداً حلواً، لم يعبث المرض فيه كثيراً على ما يبدو. بشرتها بيضاء مذهّبة، ومشدودة، وعيناها بنيّتان، مبطّنتان كعيون أهل الصين، ورأسها الأصلع يضيء مثل كرة نور. في أذنيها أقراط كثيرة، صغيرة ولامعة، وعلى رقبتها وشم لتنّين متوسّط الحجم، يصعد من الترقوة باتّجاه أذنها اليسرى. إنّها تشبه فنّانة هيبيّة أكثر بكثير من شبهها بمريضة سرطان. وفكّرت: كيف امتلكت الصبيّة، طاقة لإبراز هذا الجمال وهي على حافّة الهاوية، في حين أنّني بالكاد أستطيع أن ألبس ثيابي! إنّه جمال الحياة في عصفها الأخير!

ولأوّل مرّة، منذ أن عرفتُ بمرضي، ينتابني فضول تجاه شيء ما، أو أمل قد يكون كشّافي في هذه العتمة. رغبت بشدّة في أن أسألها عن التفاصيل: هل نجت؟ هل شفيت؟ كم جرعة أخذت؟ وكم جلسةَ أشعّة؟



قامت لتتحدّث إلى منسّقة الدور على المكتب المقابل، فانحسر قميصها الأبيض الرياضيّ نحو الأعلى، ليترك مسافة واضحة بينه وبين خصر بنطلونها الرماديّ الواطئ والرخو، فلمحت خطوطاً متطاولة تجاور السرّة، ظننتها أثر فراشة!

حينما أنهت إجراءاتها، لم تجد مقعداً فارغاً سوى الذي يقابلني، فسألتني إن كان يخصّ أحداً، على غير عادة مرضى هذا المكان الذين يجلسون في أيّ موطئ، واجمين من الخوف، وغير مبالين بشيء ما عدا عدّ أنفاسهم في هذه الدنيا. أومأت لها بالجلوس، بعد أن لاحظت عربيّتها المطعّمة بلكنة أجنبيّة، في الحقيقة أردت بشدّة أن أكلّمها، فقلت:

- حلو هذا التاتو!

وضعت يدها على رقبتها.

- لا، تحت.. "الفراشة" أقصد.

قطّبت حاجبيها كأنّها غضبت، ثمّ وقفت، وأنزلت قليلاً خصر بنطالها القطنيّ بلا أدنى تحفّظ، فلاح شيء عجيب: وشم لبندقيّة كلاشنكوف! وضعت يدي على فمي لأخفي شهقتي، وانطلقت هي بضحك، مخالفة الظرف، وشروط المكان الذي كان الجميع ينظر إلينا فيه بحسرة واستهجان.

- أنت عربيّة؟ قلت

- أميركيّة. قالت

- كان عليك أن ترسمي الـ M16، إذن لا الكلاشن.



قطّبت حاجبيها ثانية، ثمّ ضحكنا وهي تقول: هذه كلاشنكوف صينيّة مطوّرة، اسمها نورينكو، أنا نص عربيّة، نص أميركيّة.

* * *

"هانوي"، أو "هانية" كما يناديها جميع من حولَها، هي الابنة الوحيدة للرفيق أيمن ثابت، واحد من كوادر الحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ، الذي دعم منظّمة التحرير منذ نشوئها في الستينيّات. في العام 1970 انضمّ أيمن ثابت إلى الجناح العسكريّ للحزب، وأوفد في مهمّة تدريبيّة إلى فيتنام، حيث كانت تدور حروب تحرير الجنوب من الأميركان. وقتها كانت الكوادر العسكريّة الشيوعيّة التي تدعمها الصين، تتجمّع من كلّ مكان في العالم في معسكرات التدريب، لتشهد التمارين الحيّة على حرب العصابات بين الأدغال الجبليّة، مزوّدة ببنادق النورينكو 56، المصنوعة في الصين، والمطوّرة عن الكلاشنوف الروسيّة.

كانت الرفيقة "يان" تقود ناقلة الجنود المحمّلة بالأغطية، والأرزّ، والسمك المقدّد، لتوصلها إلى ثوار الجنوب، الذين يقاومون نظام الرئيس "ديم"، دمية الأميركان، وكان عليها أن تتوقّف في موقع شمال نهر "بن هاي"، الذي يفصل بين العاصمتين المتناحرتين "هانوي" في الشمال، و"سايغون" في الجنوب. اضطرّت "يان" إلى أن تجنح عن الطريق، لتتوارى بين الأدغال،



محتمية بأغصان شجر الكاكايا والتين، المسودّة من بلاغة الاخضرار، لقد بدأت قاذفات القنابل، تلقي بالنابالم على مسار طريق "هو شي منه"، حيث كان أيمن ثابت يتدرّب مع الرفاق على المواجهات المسلّحة. حين هدأت الغارة، تلمّست "يان" جسدها الضئيل، ووجها الأبيض المصفرّ، الذي أخفته بطاقيّة القشّ، وشقّي عينيها السوداوين الممطوطتين، فاطمأنّت، وبدأت بإخلاء الجرحى، فوجدت أيمن مختبئاً في جذع شجرة الكابوا، ومصاباً بشظيّة في صدره. قادت عربتها إلى الثكنة الثوريّة، تحت رصاص الأميركان، كما يتنقل حجر الشطرنج على الرقعة، وكان الرفيق أيمن يتأوّه طوال الطريق، وينزف دمه الحار على كتفها.

من بين مليون ومئة ألف قتيل قضوا في الحرب، نجا الرفيقان "يان" وأيمن، اللّذان سيغرم كلّ منهما بالآخر، ثمّ سيتزوّجان بعد المعركة النهائيّة لتحرير فيتنام في 1973، ويعودان إلى قطاع غزّة.

ولدت "هانوي" بعد سنة، وسمّيت تيمّناً باسم العاصمة المنتصرة، لتحوّل أيمن ثابت، إلى الرفيق "أبو هانية"، والذي سيصير اسماً فلسطينيّاً لامعاً في القيادات الشيوعيّة عبر العالم، وستتمّ تصفيته بما يمكن أن يسمّى نيراناً صديقة، أثناء الانتفاضة الفلسطينيّة الأولى.

بعد انهيار الاتحاد السوفيتيّ، عادت "يان" وابنتها "هانوي" إلى فيتنام، لكن لم تجد في العالم مكاناً يحتضنها سوى أميركا،



غادرت إليها، حيث افتتحت مطعماً صغيراً في الحيّ الصينيّ، في سان فرانسيسكو.

كبرت"هانوي" هناك، وانتسبت إلى مدرسة الفنون، وتخصّصت في رقص الثقافات الملوّنة، ثمّ حصلت على الجنسيّة الأميركيّة، فحرّرتها من القلق الذي كان يعتريها كلّما فكّرت بزيارة الشرق الأوسط، حيث جذورها. قرّرت الاستقرار في عمّان، وأسّست مدرسة لتعليم رقص السالسا والهيب هوب، وذلك في استوديو يقع في قبو مجمّع أوركيد، في حي الصويفيّة الشهير، وأطلقت عليه اسم "نورينكو"، والذي تعدّه سلاح العائلة. ولّما أصيبت بسرطان الغدد الليمفاويّة، تلقّت العلاج في المركز، على نفقة السلطة الفلسطينيّة، بوصفها ابنة مناضل كبير، وقد أشرف الدكتور يعقوب على علاجها، وبعدها صارت حبيبته. قالت لي واثقة: إنّها مرضت بسبب إرهاقها التاريخيّ، إذ عاشت تحوّلات كثيرةً مضنية! ووجدتُ تحوّلاتها موازية لتحوّلات الكلاشنكوف من سلاح للتحرير، إلى علامة على زجاجة فودكا، ومن ثمّ إلى وشم صغير تحت السرّة.

* * *

سقطت اللّد في أيدي العصابات الصهيونيّة يوم الجمعة 9 تمّوز 1948، وبعد أيّام اقتحم المسلّحون الدّور بأعقاب بنادقهم، وأخرجوا أهلها، وجمّعوهم في ساحة النواعير، وسط البلدة.



غصّت الساحة بأهل المكان، ومعهم اللاّجئون الـــذين كـــانوا قد وردوا من مختلف مناطق فلسطين بحثاً عن الأمان. ظنّ الناس أنّها حملة أخرى من التفتيش عن السلاح والثوّار، من الحملات التي اعتادوها، وأنّهم سيعودون إلى بيوتهم بعد قليل. لكنّ الأمر هذه المرّة كان مختلفاً، إذ قام المسلّحون بإخراجهم خارج البلدة، طردوهم بوقاحة، وأمطروهم بالشتائم. كان شهر رمضان قـــد بدأ والناس صيام، وقد استبدّ بهم العطـــش، فالشـــمس تحـــرق أجسادهم، والكمد يحرق قلوبهم. ظلّلتـــهم بيّـــارات البرتقـــال بأوراقها الوارفة على طول الدرب، وودّعتهم إلى الأبد. لن يروا برتقالها بعد اليوم إلاّ في الصور التي سيرفعها فيما بعد، المناضلون، والمتضامنون، والمنتفعون، ولن يذوقوا حلاوته إلاّ بضاعة مصدّرة من إسرائيل إلى منافيهم في العالم، حيث سيشترونه بالحبّة، الـــتي سيدفعون ثمنها دولارين أحياناً، موسومة بلصاقة زرقاء، كتـــب عليها:

JAVA

توقّف يعقوب قليلاً في إحدى البيّارات، حينما لمح بركـــة ماء، فسارع ليسقي أطفاله العطاش. فتح الصنبور، وحمل الماء في دلو كان على حافّة البركة. ولمّا عاد مبتهجاً، لم يجد يوســـف، ولده ذا السنوات الثلاث. ظلّ يبحث عنه حتّى المساء، ولم يترك المكان إلاّ بعد أن لحق به الخيّالة الإنكليز، وطردوه، وقد ضـــاع منه يوسف إلى الأبد.



كان التعب قد أنهك جسد الطفل الصغير، فنام تحت دغل من الشجر، ولمّا استيقظ، لم يجد أهله. بكى طـــويلاً، وأنهكـــه العطش والجوع والخوف، فعاد إلى النوم. في ذلك الوقت، كانت عائلة الشريف قد هُجّرت من دارها في القدس الشرقيّة، ورحلت باتّجاه رام الله، وفي الطريق توقّفوا لتنـــاول طعـــام إفطـــارهم، فوجدوا الصغير وقد شارف على الهلاك. لم يكن يوسف يعرف سوى اسمه واسم أبيه يعقوب، و لم يجدوا له أهلاً في ذلك المكان، فأخذوه معهم، وصار اسمه منذ تلك اللّحظة "يوسف الشريف".

في 28 نيسان من العام نفسه، كانت عائلة الحاج أليف علم الدين قد اجتمعت حول مائدة الغداء، في البيت الموروث عـــن الجدّ الأكبر، علم الدين الناشف، صاحب المحلّ الشهير لتصـــليح الأسلحة في سوق يافا القديم، والذي انماز بعلاقته الخاصّة مـــع الثوّار، ضدّ الانتداب البريطانيّ، فاعتقل مراراً نتيجة تلك العلاقة.

ينفتح باب البيت على الأزقّة العتيقة المقنطـــرة، وتنفـــتح مشربيّاته وشبابيكه على البحر. كان الوجوم يسيطر على ملامح أفراد العائلة جميعاً، فالأخبار القادمة من فلسطين كلّها لا تبشّـــر بخير، العصابات الصهيونيّة تداهم المدن والقرى، وتقتلع أهلها من دورهم وترميهم في الطرقات. تمّ منع الصيد، وبالكاد اســـتطاع الحاج أليف أن يتدبّر غداء اليوم. لقد تغيّرت أحوال بحر يافا، منذ أن قرّرت حكومة الانتداب البريطانيّ أن تهيّئ تل أبيب، لتصبح الميناء الرئيس، فأُهمل لصالحه أقدم موانئ المتوسّـــط، وصـــارت



البواخر ترسو بعيداً عن الرصيف، بانتظار العبّارات التي تغادر محمّلة بصناديق البرتقال، وتعود بشتّى أنواع البضائع.

هواء البحر الرطب، والعابق برائحة الربيع، كان يدخل بحريّة من شبّاك غرفة الطعام، وقبل أن تتمّ العائلة غداءها، دخل العمّ سميح هلِعاً، وأخبر أخاه (أليف)، أنّ يافا صارت محاصرة من الجهات كلّها، والاشتباكات تعمّ الأحياء، ورصاص القنّاصة اليهود، يمطر المواطنين، لذا عليهم مغادرة المكان فوراً.

حينما وصلت عائلة الحاج أليف علم الدين إلى شاطئ الميناء بمتاعها القليل، ومدّخراها التي كانت قد أُعدّت من قبل، وجدتْ ألوف (اليافاويّين) بانتظار المراكب التي ستنقلهم إلى أيّ مكان آخر، ليصيروا اعتباراً من تلك اللّحظة لاجئين. من حسن حظّهم أنْ ركبوا إحدى العبّارات التي نقلتهم إلى "دولورس" سفينة يونانيّة، ترسو في محيط الميناء، وستنقلهم إلى بيروت، ومعهم لغة البحر وصور البرتقال.

لو فكّر الحاج أليف قليلاً، لوجد أنّ احتمالات الخروج، ليست أفضل بكثير من احتمالات البقاء، فقد تدهورت صحّة زوجته، التي كانت ترقّ مع اعتقالاته المتوالية، وتعب قلبها مع ولادة نبيلة آخر العنقود، ولم يسعفها على إتمام المغامرة. وصلوا ميناء بيروت، لكنّ السلطات اللّبنانيّة لم تمنحهم إذناً للنزول، إلاّ بعد أيّام ثلاثة، ظلّت خلالها نبيلة الرضيعة آوية إلى حضن أمّها الميّتة، تمصّ ثديها الذي جمد الحليب في عروقه الباردة، وتشمّ بقايا الرائحة التي



ستحرم منها طيلة حياتها، كما حرمت من مدينتها وبيتها، الذي لم يمهلها الوقت لتحتفظ بأيّة صورة له في ذاكرتها.

* * *

سيحطّ الرحال أخيراً بيوسف، مع آل الشريف الذين تبنّوه، في عمّان، حيث ستقيم عائلة علم الدين، وفيها نبيلة التي ستربّيها زوجة أبيها، وسيبدأ الجميع حياة أخرى، لا تشبه بأيّ شكل، حياتهم في فلسطين.

يكبر يوسف، الذي يعرف أنّه ولد مُتَبنّى، ويصغر معه السؤال "من أين أتى؟!"، ذلك السؤال الذي كان يمكن أن يحوّله في يوم من الأيّام إلى مناضل كبير، بنفس نسبة الاحتمال التي كان يمكن فيها أن يتحوّل إلى شهيد، أو إلى مجرم.

انتمى إلى فصائل المقاومة، وصار يتغيّب عن المدرسة، والبيت، وحمل السلاح، والتحق بالأجنحة العسكريّة، لكنّ عائلته وقفت في وجه جموحه المراهق، فأغدقت عليه اهتماماً استثنائيًّا. خرجوا من المخيّم، وغيّروا البيت والحيّ والمدرسة، وحوّلوه إلى شخص آخر منكبّ على الدرس فحسب، فأنهى الثانويّة بتفوّق، وحصل على بعثة من الأونروا، لدراسة الهندسة الميكانيكيّة في جامعة هانوفر الألمانيّة.

مات الحاج أليف علم الدين مبكّراً، ومن بعده عاش أولاده في رغد، إذ عادوا إلى تجارتهم القديمة في السلاح، وعلى غير نهج



أبيهم، كانوا يبيعونه إلى الفصائل الفلسطينيّة المتناحرة، بالروح ذاتها التي يبيعونه فيها إلى اليهود. وهكذا بنوا إمبراطوريّتهم الخاصّة، ووسّعوا ملكيّتهم إلى خارج جبل عمّان، باتجاه الغرب.

بدأت نبيلة ترتاد كليّة الآداب في الجامعة الأردنيّة لدراسة الفلسفة، وحين عاد يوسف الشريف في إحدى إجازاته من ألمانيا، التقاها في عرس صديقتها، فأغرم بها. تزوّجا، وسافرت معه إلى هانوفر. وجدت نبيلة في يوسف المستقبل الآمن والنظيف، بعيداً عن قذارات تجارة السلاح التي غرق فيها إخوتها، مدنّسين تاريخ جدّهم، وأبيهم، الذي أمضى سنواته الأخيرة في قهر وفاقة، كي يحافظ على صورة المجاهد الفلسطينيّ، الذي حارب الإنكليز واليهود معاً. عملت نبيلة بتشجيع زوجها على قطع علاقتها بذلك الواقع الذي لا ترغب لأولادها أن يرتبطوا به، لا من قريب ولا من بعيد. أمّا يوسف، فوجد فيها رائحة المكان الذي لم يعرفه إلاّ لماماً، لكنّه يستطيع أن يرسم له معها صورة موازية، وأن ينبت لنفسه من رحمها أمشاجاً تصله بالحياة التي يحبّها. ونتيجة لذلك ولد يعقوب في العام 1970، ويعقوب هو الاسم الوحيد، بل الفكرة الوحيدة التي ورثها يوسف عن ماضيه.

عاد يوسف وعائلته الصغيرة إلى عمّان، يحمل تخصّصاً علميّاً نادراً، إذ كان مهندس "جيوثرمال"، يستولد الطاقة من حرارة جوف الأرض، لكنّ تاريخه النضاليّ، القصير، والبعيد، حاصره



على غير توقّع، وحرمه من الترقيات التي كانت من حقّه، ومن ريادة المشاريع التي منّى نفسه بها، وحينما قرّر العودة إلى ألمانيا، سبقه قرار بمنع السفر، ونتيجة لذلك القهر، أصيب بنوبة قلبيّة ومات.

ترك يوسف نبيلة ويعقوب، ومشروعاً باسمه نال عنه مكافأة ماليّة، استثمرها في شراء شقّة صغيرة إضافيّة، قد تكون بيتاً ليعقوب في المستقبل، يعقوب الذي بقي وحيداً بلا إخوة أو اخوات، لأنّ حَبَل أمّه كان عزيزاً، كما يقول الأطبّاء.

لم ترمّم نبيلة علاقتها مع أسرتها، وفاء ليوسف بالدرجة الأولى، وقرّرت استكمال حياتها وحدها. كانت قد حصلت على ليسانس الفلسفة، وتقدّمت للعمل في السفارة الألمانيّة في عمّان، وأجّرت الشقّة الإضافيّة، وخصّصت إيجارها لمصاريف مدرسة "الفرير"، التي أصرّت على أن يتابع يعقوب تعليمه فيها، على الرغم من ارتفاع تكاليفها. كانت تحارب أيّ شعور بالعجز يراودها عن ثباتها أحياناً، وكان مستقبل يعقوب كلّ لحظة بين عينيها، يعقوب الولد العبقريّ والوحيد الذي يمكن أن ينتصر على رحيل والده المفجع، ويصالحها مع الدنيا مرّة ثانية. حينما شعرت نبيلة بعجز في مواردها الماليّة لتلبية مصاريف حياتهما المتزايدة، تعاقدت مع مجلّة خليجيّة ناشئة، تعالج فيها مشاكل القرّاء العاطفيّة. كبر يعقوب، ونبيلة تعتقد أنّ ولدها مقتنع بأنّ أمّه كاتبة مقالات، لم يقرأها يوماً. كان الولد يعرف أنّ وراء بريد



أمّه الممتلئ بالرسائل دائماً، ليس أصدقاء الدراسة في ألمانيا، كما تدّعي، بل هو من أولئك الذين تبيعهم أوهاماً لتحقّق أحلامه. لذا لم يفتح رسائلها يوماً، ولم يسألها عن شيء يخيّل إليه أنّه قد يحمل ما يمكن أن ينغّصه.

ورث يعقوب سؤال أبيه ذاته، لكنّه عطّل قواه عن البحث، وانطوى على رغبات أمّه التي قرّرت ألاّ نشاطات، ولا زيارات، ولا رحلات، وطبعاً لا أحزاب. كانت حياته تقوم على المذاكرة فحسب، ومن ضمنها كان تعلّمه للفرنسيّة والألمانيّة، فضلاً عن الإنكليزيّة. كانت تقلّه بسيّارتها "البيتل" الصغيرة، إلى مراكز اللّغات، وتنتظره حتّى يفرغ من حصّته، ثمّ تعيده إلى البيت. وبذلك تمكّن يعقوب من قراءة فولتير بالفرنسيّة، وغوته بالألمانيّة، التي كانت أشبه بلغته الأمّ، وحينما قرأ "آلام فرتر" رأى ذاته ترتسم أمامه على الورق، فبكى طويلاً، وصعد إلى السطح، وقرّر أن يلقي بنفسه منتحراً، لكنّه حين أبصر حركة الحياة في الشارع، تراجع، وأدرك منذ تلك اللّحظة أنّه ولدٌ جبانٌ.

بعد حادثة الانتحار التي لم يعلم بها أحد، أيقن يعقوب أنّه سعيد بتفوّقه وعبقريّته، وبنظرة الإعجاب التي يراها في عيون مدرّسيه، وبالحسد الذي يستشعره في نفوس زملائه، فقرّر أن يعزّز ذلك الاختلاف، فانكبّ بكلّ ما أوتي من طاقة الشباب على التحصيل والثقافة، وراح شكله يتماهى مع اختلافه، فنحل عوده حتّى كاد أن ينطوي لرقّته، وتكاثف نور الوجود في عينيه،



وطال شعره الأسود الغزير، الذي كان يربطه دائماً على شكل ذيل فرس، ويطويه، وهذّب شعر لحيته الناعم، فصار أشبه ما يكون بصورة يسوع المسيح في الأيقونات الغربيّة، مع اعتبار اختلاف الألوان. وعلى الرغم من انشغاله الدائم بأمّه، وبتطلّعاتهما معاً، كان يشعر أنّ في داخله بقعة سوداء لا سبيل لإضاءتها، وخواء يصعب ملؤه، إنّه خواء الجذور المرعب! وكان كلّما رأى أحداً من عائلة أبيه بالتبنّي، والذين هم في جلّهم بسطاء، وغير متعلّمين، يشعر بأنّه مختلف، وأنّه لا بدّ من أن يكون من سلالة جهابذة، وربّما لم يكونوا عرباً أصلاً، قد يكونون إنكليزاً أو يهوداً جاؤوا من مكان ما، وكانت الاحتمالات كلّها تفتح دروب العذاب.

استطاع يعقوب بتفوّقه أن يدرس الطبّ في الجامعة الأردنيّة، ثمّ أن يحصل على منحة للتخصّص في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس، وكانت نبيلة منذ زمن طويل تعدّ نفسها لهذا اليوم، اليوم الذي سيغادرها فيه وحيدها نحو حياته الخاصّة، ولن يكون دورها فيها كما كان سابقاً. لكنّ وحدتها، وأشواقها، وحزنها، لن تقف في وجهه أبداً. لم تثنه عن السفر، ولم تتوسّل إليه ليبقى معها. لم تسأله كيف سيغيب سنوات، ويتركها بلا أنيس في هذه الوحشة كلّها، وكيف ستقضي لياليها بلا صوته في الدار، بلا حليب الصباح، وقهوة المساء التي لا يفوّتان موعدها، مهما كان الظرف، ومهما كانت الأعباء. ومثلما اعتاد يعقوب ألاّ يفتح باب الأسئلة



مع نبيلة، راح يكابد وحده آلام الرحيل، ومغادرة الحضن الـــذي آمنه على الرغم من المشقّات كلّها. شعر بأنّه جاحد، وأنـــانيّ، إذ يعلم مدى شقائها بفراقه، من غير أن يجرؤ على أن يعلّلها حتّــى بالكلام، لكنّه أخذ على نفسه ميثاق شرف بأنْ ينهي تخصّصه في أسرع وقت، وعندها لن يثنيه شيء عن العودة.

* * *

بعد سفر يعقوب، شعرت نبيلة لأوّل مرّة في حياتها باليتم، والثكل، والرملة معاً، ولم تجد حتّى في تصوّر مســـتقبل ولـــدها الباهر بعد أعوام قليلة، عزاءً كافياً لحزنها ووحدتها. تمرّ صباحاتها بصعوبة بالغة، ومساءاتها موحشة وثقيلة. لـــيس بهـــا رغبـــة في الذهاب إلى عملها، وحينما تذهب تفقد الرغبة في العودة.

انضمّت إلى نادٍ للقراءة، وصارت تلتقي بمجموعتها مرّة كلّ أسبوع، يكونون خلاله قد قرؤوا الكتاب المقرّر مناقشته في تلك الجلسة. لقد ساعدها ذلك كثيراً في مجابهة وحدتها. كان النادي سيستضيف في جلسته المنتظرة الروائيّ العراقيّ "كـــريم ســـعد"، لمناقشة روايته الأخيرة "تمائم بابل"، والتي حازت علـــى جـــائزة معرض عمّان للكتاب.

في ذلك المساء المطمئنّ من مساءات أواخر الصيف، الـــتي يحتاج المرء فيها إلى أن يصطحب شالاً أو سترة خفيفة، إذ يرقّ نسيمها ولا سيّما في تلال منطقة "الحُمّر"، المشرفة على بيـــوت



"وادي السِّير" تلك التي فاتها عزّ كثير، توجّهت نبيلة إلى نادي القراءة الذي تديره سيّدة أردنيّة متزوّجة من جرّاح صدر شهير، والذي تستضيفه في صالون زجاجيّ واسع، ينال جزءاً من فيلّتها التي تعتلي تلّة مشجّرة، ومثل قصّة محكمة في حبكتها، التقت بالدكتور رشيد شهاب، جرّاح تجميل عراقيّ من تكريت.

كان رشيد شهاب قد اختار مثل كثير من العراقيّين العيش في عمّان، بعد الاحتلال الأميركيّ للعراق في العام 2003، قبل ذلك قضى سنوات متنقّلاً من بلد أوربيّ إلى آخر، بصفته ملحقاً عسكريّاً في السفارة العراقيّة، والتي ستتحوّل إلى تهمة عمالة للنظام السابق، لا سيّما أنّه عاد إلى بغداد منذ أواخر الثمانينيّات، وعمل طبيباً في مشافي القوّات المسلحة. كانت حياته حافلة بالعمل والنجاح، ولم تترك له فرصة لتكوين عائلة، وقد عرف من ويلات الحروب التي خاضتها بلاده، ما لم يعرفه غيره، إذ قضى أيّامه ولياليه، يرمّم حروق الجنود وتشوّهاتهم تلك التي خلّفتها الأسلحة الفتّاكة، الكيماويّة، والجرثوميّة، والأخرى التي ما تزال ماهيّتها حبيسة الملفّات السريّة، منذ حرب الخليج الأولى، الإيرانيّة العراقيّة، إلى خروجه من بغداد، وقد ذاع صيته في الأوساط العراقيّة العسكريّة والمدنيّة على حد سواء، وعرف بصاحب الأنامل الذهبيّة. ويُشاع إنّه هو الذي أجرى جراحة عبقريّة لعديّ صدّام حسين، إثر تعرّضه لإطلاق نار من قبل أحد أصدقائه الشخصيّين، بسبب استيلاء الأوّل على حبيبة الثاني



وكانت الطلقة قد اخترقت وجنته، وشوّهتها، لكن لم يعد لها أثر يذكر بعد تلك الجراحة على يديه. لقد نسجت حول حياته العمليّة أساطير عدّة، أشهرها أنّ مبضعه الجراحيّ كان وراء النسخ المتعدّدة للرئيس الراحل، وهو لم يؤكّد ذلك يوماً أو ينفيه، لذا بقيت هالة الغموض والسطوة والنجاح المحيطة به، أشبه بمغناطيس يجذب النساء من حوله: الطبيبات، والممرّضات، وضابطات الجيش، ونساء وزراء وقادة وسياسيّين... لكنّه كان يحرص على أن يكون بعيداً دائماً عمّا يمكن أن يُلحق به مشاكل من أيّ نوع. ومهما كانت المغريات، فإنّه يفضّل علاقة هادئة مع امرأة جميلة وبسيطة وصغيرة، ومدفوعة الأجر.

انتقل رشيد شهاب إلى عمّان، وفتحت معظم المشافي أمامه أبوابها، ليتفنّن هذه المرّة في أجساد النساء، يصلح الأنوف، ويرفع النهود، ويشدّ البطون، فاستطاع أن يحقّق لنفسه في وقت قصير حياة مستقرّة وراغدة.

حينما وصل الدكتور رشيد لحضور ندوة صديق عمره "كريم سعد"، بدا بسنواته الستّين أشبه ما يكون ببطل ملحمة إغريقيّة، يقف في نهاية المعركة، مستقبلاً الريح، يحصي خسائره، ويتفجّع على من فقد من أحبّة. لم تسلبه سنوات الحرب ألق مراحل العزّ الماضية. شعره أشهب، متموّج، وممشّط إلى الخلف بسالفين عريضين وطويلين، يكشف عن ملامح واضحة، عينين داكنتين مستلقيتين في مسار مستقيم، وبشرة حنطيّة صافية،



وأنف حادّ ينمّ على مزاج عصبيّ، ولحية صغيرة تغطّي دائرة ذقنه فحسب. بنطلونه الجينز الليفايس الأزرق، يبدي تناسق قوامه العسكريّ المتين، والذي يؤكّده حذاء الشاموا البيج ذو الرقبة القصيرة، وقميص البولو الأبيض، المكويّ بعناية، ليظهر كرشه الصغيرة، وفي بنصره خاتم ذهب عريض بزفيرة زرقاء بيضويّة، يرمز إلى جامعة ليدز التي تخرّج فيها. ذلك كلّه أثار رغبة نبيلة لتكشف نوع المتعة التي يمكن أن يكنزها رجل من طراز الدكتور رشيد، متعة مجبولة بتجارب فريدة من النجاح والخوف والألم، والانكسار الذي يمكن أن يصنعه الارتحال عن الوطن في خريف العمر. كان من السهل أن تقع نبيلة في هوى الدكتور رشيد شهاب من اللّقاءات الأولى بعد تعارفهما، لكن ما الذي سيدعو ذلك الرجل الباسق، ليضع قلبه في عهدة امرأة خمسينيّة؟!

* * *

فقدت نبيلة زوجها يوسف في توقيت لم يكن في صالحها إطلاقاً. كانت في حوالي الأربعين من عمرها، حيث كلّ مجازفة يجب أن تكون محسوبة جيّداً، فلا وقت لدى المرء ليبعثره في علاقات إنسانيّة، قد تبدّد الطاقة الروحيّة، التي يكون الناس في أمسّ الحاجة لشحنها إيجابيًّا، في مثل هذا العمر.

لم تبنِ صداقات جديدة، عادت إلى صداقاتها القديمة والنادرة مع زميلات الدراسة، واكتفت بمعارفها في محيط عملها



في السفارة الألمانيّة، والذي كـــان مكتظًّـــا بعـــض الشـــيء: استقبالات، ولقاءات، ومناسبات وطنيّة ورسميّة، ومحاضـــرات، وبعض الإجازات التي تسافر فيها مع يعقوب إلى ألمانيا، يبـــدّدان بها روتين أيّامهما، للمضيّ من جديد.

على الرغم من الفراغ المؤلم الذي خلّفه غيـــاب يوســـف، بقيت نبيلة صامدة، تنشّئ يعقوب بعناية فائقة. كانت تعرف أنّ الولد تحديداً يحتاج رجلاً ليربيه، ليكون نموذجاً له، يسلّمه مفاتيح أسرار الرجولة، ويطلعه على خباياهـــا، يحدّثـــه عـــن بلوغـــه، واغتساله، يعلّمه حلاقة الذقن، وتربيت ماء الآفتر شيف عليهـــا، والتخفّف من شعر الإبطين، ووضع الديودرانت... يأخذه معـــه ليهنّئ ويعزّي، ويرشده إلى ردود فعل الرجال عند الحزم واللّين، ومواجهة النجاح والفشل بمنطق يختلف تماماً عن منطق امـــرأة. كلّ ذلك فقده يعقوب، وكان على نبيلة أن تعوّضه بلا انكسار، لأنّها لا تريد له أن يكون نتاج أرملة، لذلك كانت تحيطه دائماً بذكريات أبيه، الوهميّة، في غالبها، وهذا أقصى ما تستطيع: أبوك فعل كذا...، قال كذا...، طلب إليّ كذا... لو كان أبوك معنا لتصرّف كالآتي... ولم تتعب نبيلة مـــن التســـويغ، والتعليـــل، والفرضيّات....

بعد ذلك وجدت أنّ الحياة طويلة جدّاً، وما يزال الوقـــت مبكّراً لتزهد فيها، ولا سيّما حين كانت تلتقط من بين عيون من تجتمع بهم، نظرات تُنبئ عن أنّها ما تزال امرأة قـــادرة، وعمـــق



النظرة في عينها وحده يمكن أن يشي بعمرها، لأنّ جسدها المُعتنى به جيّداً، وحضورها الأخّاذ، وأناقتها الأصيلة، تمنحها مظهر امرأة في الثلاثينيّات.

كانت نبيلة صاحبة بشرة سمراء مخمليّة، طويلة، ومسكوبة بلا ترهّلات إلاّ قليلاً ممّا فرضته السنون، والولادة الوحيدة، إذ جعلت من الرياضة نظاماً لحياتها منذ وقت طويل، عيناها بنيّتان ذئبيّتان، وأنفها صغير، وكذلك نهداها. يُبدي شعرها القصير، والمصبوغ باللّون الخمريّ، جيدَها المشدود، والذي تزيّنه دائماً بسلسلة من الذهب الأبيض، وقد علّقت بها لؤلؤة (تاهيتيّة) سوداء كبيرة، رأسها محاط بماسات صغيرة برّاقة، من ماركة "تيفاني"، لم تتخلّ عنها يوماً، منذ أن أهداها يوسف لها في عيد زواجهما الأوّل. أنيقة دائماً، ببنطلون جينز أو كتّان، وقميص من الشيفون غالباً، وفوقه بليزر، تختاره دائماً بعناية، أسود، أو كحليّ، أو بيج، أو رماديّ، فوجودها في السفارة يفرض عليها دائماً أن تكون مستعدّة لأيّ لقاء عمل، أو مهمّة، أو حتّى رحلة قريبة.

يبدو أنّ غدّة نبيلة النخاميّة نشطة جدّاً في إفراز هورمون الأوكسيتوسين، الهورمون الذي يُقرّب المسافات بين البشر، فتنشأ علاقات الحبّ. وعلى الرغم من هدوئها الذي ينجح في جعلها باردة في أغلب الأحيان، وحذرها الشديد في علاقاتها الشخصيّة بمن حولها، فإنّه لا يأمن من يقترب منها كثيراً، من أن



يحترق بجمر ثقتها، الكامن تحت رماد اصطناعيّ حصّنت به نفسها. لكنّها، وعلى مرّ ذلك الوقت، بطوله، ووحدته القاسية، لم تمنح نارها سوى لرجل واحد:

فلاديمير بيريكتش، أو (دي دي) كما تحبّ أن تسمّيه، عازف كمان ألمانيّ، من أصل صربيّ، استضافه المركز الثقافيّ الألمانيّ في عمّان لمدّة سنة، في مشروع تبادل ثقافيّ. وقع بيريكتش في غرام نبيلة من اللّقاء الأوّل. كانت وقتها في حالة جموح غريبة، تتسلّق جدران الأربعين، وتشعر أنّ الأشياء التي عاشتها كلّها، ولم تدرك كنهها، كانت جميلة، لكنّها تنسرب من بين يديها: الشباب، والحبّ، والنشاط، والفرح، والجمال...

كادت تقع مبكّراً في شرك أزمة منتصف العمر، فحقدت على كلّ شيء، على حظّها، وزواجها، وأهلها، ووطنها، وقراراتها، وحتّى على يعقوب، الذي تجده السبب الرئيس في تعاسة التصقت بها كجلدها. لكنّ بيريكتش مدّ لها يداً قويّة، وحانية، لتنقذها من ذلك كلّه، ففتحتْ له حصونها.

فلاديمير بيريكتش الذي يصغر نبيلة بأعوام ثلاثة، هو ابن رادوفان بيريكتش، السياسيّ الصربيّ الذي كان عضواً بارزاً في حركة التشيتينيك، التي قاومت ألمانيا النازيّة وأنصار تيتو الشيوعيّين، بعد الحرب العالميّة الثانية، وقد كان اسماً لامعاً في معركة التحرير النهائيّ لسراييفو في العام 1945، حينما كان في العشرين من عمره.



في العام 1951 ولد فلاديمير، وعاش محاطاً بعناية الدولة، والتي توليها بشكل استثنائيّ لأولاد المناضلين. دخل أكاديميّة الفنون، ودرس تاريخ الموسيقى، وتخصّص في عزف الكمنجة، الذي أتقنه منذ طفولته.

حينما دخلت القوّات الصربيّة إلى البوسنة والهرسك، لضمّ أراضي الصرب إليها، وتشكيل ما عُرف بـ (صربسكا)، لم يحتمل فلاديمير ما فعله أبناء عرقه بالمسلمين البوشناق، من تنكيل، ومذابح، واعتداءات دمّرت بلاده، وحيث أنّه من صرب البوسنة، خاف أيضاً من انتقام المسلمين، فحزم أغراضه، وهرب إلى العاصمة الصربيّة بلغراد منذ العام 1992. لم يطب له المقام هناك، شعر أنّه محاط بجرائم ليس له يد فيها، وأنّه مدان بقتل أبناء بلده، بسبب صدفة تاريخيّة جعلته مسيحيّاً أرثوذوكسيّاً صربيّاً، فغادر بلغراد، المكان الذي يُفترض أن يكون وطن الصرب، نحو ألمانيا، التي سطّرت العائلة تاريخاً مجيداً في مقاومتها! وجد برلين المكان الأقرب روحاً إلى بلده، فأقام فيها، وانضمّ إلى الفرقة الفلهارمونيّة الألمانيّة، ثمّ صار قائداً لها، ومُنح الجنسيّة الألمانيّة في احتفال رسميّ.

مع (دي دي)، عادت نبيلة جسداً عشرينيّاً بخبرة امرأة أربعينيّة، وراحت تكتشف من جديد أسرار ذلك الجسد المهجور، ونقاطه الساخنة، ومحرّضات اشتعاله، وما تكره، وما تحبّ فيه، وقد تبلغ نشوتها مرّتين أو ثلاث، في كلّ لقاء من



لقاءاتهما التي غالباً ما تكون صباحيّة، يمارسان خلالها الشغف، في شقّة فلاديمير الصغيرة في جبل اللويبدة، بعدها تنطلق نبيلة إلى عملها لتكون في البيت، مع ولدها، في موعدها تقريباً. صارت ترتاد محلّات التجميل، واللانجري من جديد، تنتقي أكثر القطع إغراء وحداثة، لتعوّض ما فاتها من شباب ومتعة، وما أن أقبل الصيف حتّى استقبلته بالسباحة، وعناق الشمس، فصار جلدها ذهبيّاً مثل جلد حوريّة بحر!

كان (دي دي) الآريّ الأصل، يذوب في تفاصيلها، ويجد فيها تتمّة حقيقيّة لحكايات حريم السلاطين اللّواتي خرج من أرحامهنّ، والتي كانت تحكيها له جدّته في سراييفو. دلّلها كأميرة: كان يعدّ لها الإفطار في كلّ مرّة تأتي فيها لزيارته، يطعمها بيديه، يجلس بكمنجته عند قدميها الصغيرتين بشكل ملحوظ، ويعزف لها كلّ ما تحبّ: الدانوب الأزرق لشتراوس، وضوء القمر لبيتهوفن، وشهرزاد كورساكوف. كان يصاب حينما يكون معها بما يمكن تسميته (ديسليكسيا الحواس)، إذ يضيع بين لونها الأسمر، ورائحة عشبة الشاي في شعرها، والبهار الشرقيّ في مساماتها، والذي دعاه لتأليف سيرناد حارّة على شرفها، سمّاها "مسك"، يفتتح بها معظم كونشرتاته.

كانت المرّة الوحيدة التي تغيب فيها نبيلة عن يعقوب، هي في الليلة التي قضتها مع بيريكتش في البحر الميّت. المسّاج الذي منحها إيّاه (دي دي) كان له فعل السحر، وكان كافياً ليغنيها



عن الرجال لسنين قادمات. دلّكها برؤوس أصابعه، وبرموش عينيه أيقظ حلمتيها... كانت تسمع في تأوّهاته مواويل البلقان الحزينة، وحينما تحرّر سخونةُ جسدها سوائلَه، تنتشر رائحة غابات الألب الديناريّة، رائحة توت العلّيق، والصنوبر، والينابيع الساخنة، وكان ماؤه الذي يُراق على جسدها كثيفاً ومختمراً مثل قشطة مصنوعة من حليب ماعز الجبل الأسود. تعود بين يديه إلى أرضها التي ما عرفتها إلاّ في الخرائط، وتتساءل إذا ما كان فلاديمير يشمّ في جسدها أيضاً رائحة البحر والبرتقال، ويتحسّس تلك الموتيفات المؤلمة التي تركها في روحها الاقتلاعُ من الجذور.

كان فلاديمير يشعر، حقيقة، أنّهما متشابهان! لقد سلكا درب التحوّلات ذاته، كلاهما جاء من مُلك عثمانيّ قديم، وكلاهما قاده الاستعمار الأوربيّ إلى درب الشتات والاغتراب، ومثلما فقدت نبيلة أمّها في رحلة التهجير، قضت أمّ فلاديمير في غارة للناتو على سراييفو، ضدّ جيش صرب البوسنة في 1995. إنّها الهيمنة، التي كثيراً ما تصنع من الضحايا عشّاقاً!

* * *

خلال العام الذي قضاه بيريكتش في عمّان، توتّرت علاقة يعقوب بأمّه. كانا قبل ذلك يتشاكلان، مثلما يتشاكل أيّ مراهق مع أحد والديه، لكنّهما سرعان ما كانا يتضامنان، مهما كان سبب النزاع، فثمّة حقيقة يؤمنان بها معاً، وهي أنّ كلًّا



منهما هو الوحيد الذي يحبّ الآخر بلا مقابل. لكنّ يعقوب بحسّ البنوّة الأوديبـيّ، أدرك ما يربط بين بيريكتش ونبيلة. كان قد تعرّف إليه وكرهه منذ اللقاء الأوّل، كره أمّه أيضاً، وكان يلمّح لها دائماً بأنّه يعرف تماماً ما تخفيه، ويستفزّها بالإشارات الملغِزة، وبالأسئلة، وبالمتابعة، وبالصراخ الذي لم يُسمع منه إلاّ في تلك الآونة، والذي تنفلت خلاله كلمات مهينة تتعلّق بالغدر، والخيانة، والعهر، والخداع.... يتوقّف عند ذلك الحدّ، ويجبن عند لحظة المصارحة التامّة بعلاقتها ببيريكتش، يُغلق بعدها باب غرفته عليه، يحتضن مجموعة الدمى الخشبيّة الصغيرة التي كان أبوه يشتريها له من "بادن- بادن"، حينما كانوا يذهبون في إجازاهم إلى الغابة السوداء، ويقيمون في بيت جبليّ يطلّ على حيث ينبع الدانوب. كان الصباح ينبلج وعينا يعقوب مسمّرتان على الساعة الخشبيّة المعلّقة على الجدار، تلك التي اشتراها له يوسف في رحلتهما الأخيرة إلى هناك، والتي يطلّ منها كلّما اكتملت ستّون دقيقة، عصفور صغير، يؤكّد له أنّ أيّامه الجميلة الماضية التي عاشها مع أبويه كانت حقيقة لا وهماً، فينفجر في بكاء مرير.

الليلة التي قضتها نبيلة مع بيريكتش خارج عمّان، كانت مفصليّة في حياهّا، فحينما عادت، لم تجد يعقوب في البيت. خيّم اللّيل، ولم يعد، وانهارت نبيلة! بحثت عنه مثل مجنونة، في كلّ مكان يمكن أن يذهب إليه، وهو لا يذهب إلى أيّ مكان تقريباً. كان في سنته الجامعيّة الثالثة، ولم يسهر مرّة في مقهى أو عند



صديق، أو حتّى عند أهل أبيه الذين يفترض أن يكونوا له بمثابة أجداد، والذين كان يحبّهم جدًّا. نبيلة اعتقدت سابقاً أنّ أقصى عقوبة قد أوقعها بها ولدها كانت حينما قاطعها شهراً كاملاً، ما كلّمها فيه ولا كلمة، لكنّ غيابه شيء آخر! بكت مثلما لم تبكِ في حياتها، كانت حقّاً أتعس امرأة في العالم. لقد هدمت كلّ ما صنعته في حياتها من أجل نزوة، أجل صارت علاقتها بفلاديمير بيريكتش نزوة تستحقّ عليها العقاب. أقسمت أنّه ما أن يعود إليها ولدها سالماً، حتّى تلقي نفسها في حضنه، وتطلب غفرانه، وتنسى عالم الرجال إلى الأبد.

قضى يعقوب ليلته في الجامع المقابل للدار، وعاد في الصباح ثقيل القلب، واجماً، فألفى أمّه وقد كبرت عشرين عاماً، محتقنة الوجه، عيناها منتفختان ومحمرّتان من البكاء، وحينما رأته زأرت مثل لبوة مجروحة، وانهالت عليه ضرباً، فاختلط نشيجهما، وراحا في عناق طويل.

انقضت سنة بيريكتش، وحاول تمديدها فلم يفلح، وكانت نبيلة تدعو الله أن يغادر في أسرع وقت، فكانت تريد أن تتخلّص منه من غير أن تكسر قلبه. عرض عليها أن يبقى ويكونا معاً، أو أن تذهب معه إلى أيّ مكان في العالم، لكنّها رفضت. في قرارة نفسها كانت تعرف أنّ ذلك كلّه إلى نهاية، حتّى في لحظات فرحها العارم أو نشوتها القصوى، لذا قرّرت مسبقاً أنّها ستحبّ إلى حدودها المرسومة، التي ستحميها من أن تتعلّق بأحد، أو أن



تقدّم الكثير، لا سيّما الدموع والحرقات، وبذلك يكون يعقوب قد أنهى الحلم الجميل، فأعاد جسدَها كئيباً، يغيب في ليالي عمّان، التي لا يعرف أحد قسوتها أكثر من النساء الوحيدات.

* * *

غياب يعقوب الطويل في أميركا، حرّر نبيلة. كانت تشعر بأنّ الحياة مدينة لها بالكثير، وأنّها الآن ستستردّ بعضاً من ذلك الدين، وأنّ المكالمات التلفونيّة الأسبوعيّة لا تعني أكثر من أن تتأكّد من أنّه بخير، وأنّه يبني مستقبلاً آمناً. يعقوب الآن ينسرب من بين يديها إلى عالمه الخاصّ، بعيداً عنها أكثر من أي وقت مضى، له انشغالاته وصداقاته، وقريباً زوجة وأولاد، سيفرحون قلبها بلا شكّ، لكنّهم جميعاً ليسوا لها. يعقوب سيكون مع امرأته، والأولاد في أحضان أبويهم. لو ماتت نبيلة في هذه اللّحظة، لن يعرف أحد بموتها، ثمّ من يأبه لفقد امرأة وحيدة، اختارت أن تصير مقطوعة من شجرة، وأن ترسل ولدها إلى أميركا سنوات أربع وأكثر! قياساً على إمكانيّة موتها المونودراميّ، كانت نبيلة، وبعد أسابيع ثلاثة من تعارفهما، قد تزوّجت بالدكتور رشيد شهاب، زواجاً رسميًّا لا ينقصه شيء. لم يفكّر أيّ منهما بنتائج المغامرة، اتخذا القرار بالبساطة ذاتها التي يستقرّ فيها رأي صديقين على تناول غدائهما في مطعم سمك وسط البلد! لقد كلّفها الأمر بضع لحظات من القلق قبل أن تتصل بيعقوب وتعلمه بأنّها قد تزوّجت.



تلقّى يعقوب الخبر بنوع من الارتياح الذي ينمّ على تطوّر كيانه النفسيّ. بكى قليلاً حينما تجلّت أمام عينيه صورة أبيه، ثمّ تمنّى لها حياة سعيدة، وحينما أغلق الهاتف شعر بأنّ عبئاً ثقيلاً انزاح عن كاهله، وأنّ القدر الذي تمدّده طويلاً وقع بلا أضرار، فأطلق زفرة قويّة، وقال لنفسه: بذلك يكون قد صار للدكتور يعقوب زوج أمّ، وابتسم للفكرة التي قبض على الجزء الفكاهيّ منها.

* * *

حينما يستلقي شريف شهاب في فراشه لينام بعد سلسلة من الجراحات التي ينكبّ عليها ثلاثة أيّام في الأسبوع، تندسّ نبيلة بجواره محتفلة بعريّ عفويّ لجسدها الذي يتجاهل الزمن، وتجلس نصف جلسة، تتأمّل بنطلونه الجينز المعلّق على المشجب، وتتحسّس العقد العريضة لأصابعه السمراء الأنيقة، وتلوم نفسها على أنّها أعرضت طويلاً عن الكرم المُغدِق للحياة، الكرم الذي يقبع على ناصية الشارع المجاور، ولا نلتفت إليه! في الحقيقة لم يكن بيت نبيلة يبعد عن بيت رشيد أكثر من شارع، إنّهما يسكنان في الحيّ ذاته، في خلدا، حيث تقيم في العمارة المقابلة لمبنى الروضة التابعة لأكاديميّةساندس الوطنيّة، بجوار كنيسة الناصريّ الإنجيليّة، في حين يسكن هو على التلّة المقابلة لساندس الوطنيّة ذاتها، لكن عند المبنى الرئيس، شرق إشارات "البشّيتي"،



هذا يعني أنّ أوتستراد خلدا فقط هو الذي أجّل لقائيهما طـــوال سبع سنوات. أن تكون نبيلة مع رشيد، فهذا يعني أكثر مـــن أن يكون لديها ولد تهتمّ به، أو أن تعيش معها في البيت روح تؤنس وحدتها، كما يظنّ معظم الناس، والتي يمكن أن تكـــون بـــديلاً لقطّة. لعلّ الأمر مختلف تماماً، حينما تبدأ مـــن جديـــد بعـــد الخمسين، فتجد أنّ الحياة سهلة لدرجة أنّها تستطيع ارتداء ثوب بسحّاب خلفيّ، وأنّها لا تحتاج كرسيّاً لتحصل علـــى شـــالها الموضوع في أعلى رفّ في الخزانة، أو أنّ هناك من يناولها حـــبّتي البندول مع كأس الماء، ويطلب إليها أن تنام قلـــيلاً، ثمّ حينمـــا تستيقظ يسألها بلهفة:

- أحسن؟
- نعم.
- هل نخرج لنتمشّى قليلاً؟
- طبعاً!

لم تكن تلك السيناريوهات في بال نبيلة، نســـيتها تمامـــاً، وعادت الآن لتستذكرها بوعي حادّ، وعي لمعنى أن تتزوّج امرأة برجل، فتلفي شكلاً جديداً للحريّة، يمكن الحصول عليه فقط بعد منتصف العمر. نبيلة حرّة الآن في أن تنام في بيتها أو في بيـــت رشيد، أن تعلن عن اضطراباتها الشبقيّة أو أن تسكت عنـــها، أن تدلّل رشيد أو أن تتدلّل عليه. رشيد كان يفعل أكثر من ذلـــك بكثير، كان محبًّا أصيلاً، وغير متطلّب على الإطلاق، ولم يغيّـــر



شيئاً في حياهما سوى إضفاء الأمن، والسعادة العميقة الهادئة، التي لا ادّعاء فيها. كان كريماً في كلّ شيء، غيّر سيّارهما الفولكس واكن الجولف، إلى فولكس واكن "طوارق"، إذ كانت لا تؤمن إلاّ بصناعة السيّارات الألمانيّة، وأهداها خاتمين أنيقين من الألماس، وكانت تقول إنّ ذلك ليس ضروريًّا، فيقول لها: نبيلة عيني لابدّ، هذا أقلّ شيء!

في المساءات يخرجان معاً، يمارسان رياضة المشي التي اتفقا على حبّها من ضمن ما اتفقا عليه، يذرعان شارع "المعارف" القريب، من السادسة إلى السابعة، ثمّ يقفان مستندين إلى سيّارهما المصفوفة على جانب الطريق، يتأمّلان الشمس البرتقاليّة تختفي بوداعة وراء جامع "الملك حسين" في بساتين "دابوق".

في الشتاء، تحبّ نبيلة أن تقضي لياليها في بيت رشيد، رغم أنّ بيته يقف منفرداً في براح لا تحيط به أبنية تصدّ عنه الثلج والريح، لكنّه أكثر دفئاً. تحبّ موقد الحطب الرخاميّ الذي يلقي رشيد على منصبه المعدنيّ حبّات الكستناء، يلتقطها بملقط الجمر بعد أن تتفتّح، ثمّ يقشّرها بالأصابع ذاها التي يجدّد ها جمال نساء عمّان، ويلقمها شفاه نبيلة المصبوغة بحمرة كرزيّة اللون، واحدة بعد واحدة، فتعتذر قائلة: يكفي، فيه الكثير من الكالوريز....

لا يبالي رشيد بذلك كلّه، يحبّ نبيلة مثلما هي، يحبّ المعنى الحقيقيّ للمرأة فيها، المرأة التي تغرّبت رضيعة عن البحر، واحتفظت نصف قرن بقوّة المجداف! يلفّها بذراعيه اللتين ما تزالان قويّتين:



- نبيلة عيني، شْكِثر تسوين!

تضحك، تحبّ لهجته العراقيّة العميقة...

- تسوين عمري إنتِ، تسوين بغداد، وعمّان، والقدس الشريف بعد!

تضحك نبيلة وهي تغمر وجهها في طراوة رقبته، وتعلن تحفّظها على ورود عبارة "القدس الشريف" في هذا السياق.

لا تخمد نار الموقد إلى ما بعد منتصف اللّيل، حيث ينام رشيد، وتبقى هي مستلقية على الريكلاينر أمامه تقرأ في كتب (أوشو)، وفي قلبها غبطة يُثيرها ندف الثلج الذي يطرق على النافذة، مؤمنة تماماً بأنّها توصّلت إلى معاهدة سلام أبديّة مع الحياة.

حينما عاد يعقوب من أميركا، يحمل تخصّصه في أمراض الدم، لم يسبّب أيّة قلاقل، لقد تجنّب كلّ من الأطراف الثلاثة المواجهات، نبيلة قسمت وقتها بمنتهى الهدوء بين البيتين على طرفي أوتستراد خلدا، وكان يعقوب قد باشر العمل فور معادلة شهاداته في مركز السرطان، ودخل دهاليز الشغل الذي لا ينتهي. في الحقيقة كان الرجلان اللّذان يتشاركان في نبيلة، يبادلان بعضهما البعض احتراماً أكيداً، عزّزته المهنيّة من جهة، والرجولة الحقّة التي نشأ عليها كلّ منهما، والتي صقلتها الحياة العربيّة التي هي سلسلة من الحروب. رشيد يتحدّث عن العراق، و(إنجلند)، ويعقوب يتحدث عن فلسطين و(الستيتس)، ونبيلة تصغي إليهما سعيدة بهذا الوئام الذي استطاعت أن تصنعه.



وقع رشيد شهاب في حبّ يعقوب بغريزة الأبوّة المغيّبة. لم يفكّر في حلاوة أن يكون له ابن، إلى أن رأى يعقوب، يخرج ويدخل، ويعودهما بحنان، مثلما يعود مرضاه بمهنيّة ونبل، فينجح في عمله، ويستقبل التحديات بشجاعة أبناء الرجال العظماء. في الحقيقة كان يعقوب يعترف لنفسه بإعجابه البالغ بتجربة الدكتور رشيد، وبخبرته الطبيّة، وبالمنعطفات القاسية التي مرّ بها، واستطاع الصمود من دون أن يتنازل عن أبّهة الطبيب العسكريّ، لكن هذا لا يعني أن يُحِلّه محلّ أبيه، فيوسف الشريف الذي غادر منذ خمس وعشرين سنة ليس له بديل أبداً، لكنّه لم يكن ليطمح بخيار أفضل من رشيد ليكون زوجاً لأمّه.

لم يكن الدكتور رشيد يعرف أنّ الله قد أحبّه كثيراً، ليضعه في عناية الدكتور يعقوب، إلاّ بعد ثلاث سنوات من الزواج بنبيلة، حين اكتشف أنّه مصاب بنوع شرس من سرطان البنكرياس، والذي لن يمهله أكثر من هذه السنة. نبيلة تعاملت مع الظرف الجديد الذي وجدت نفسها فيه، بروح مناضلة يائسة، تستمرّ فقط لأنّه ليس أمامها خيار آخر، وهي تكلّم نفسها كلّما اختلت بها: "يكفي يعني يكفي"، "لا تسويات مع الحياة"، "الله وحده يعرف لماذا يحصل لي ذلك كلّه"!

كانت تجد في عناية يعقوب برشيد، ردّاً مناسباً على جميل السعادة التي منحها إيّاها خلال هذه السنوات الثلاث، التي عرفت فيها جيّداً معنى أن يمرّ بحياة المرأة رجل نبيل. أغدقا عليه الرعاية



الطبيّة الفائقة، والعطف الإنسانيّ، والحبّ العائليّ، وما كان يمكن لمريض سرطان أن يطمح إلى أكثر من ذلك، وبخاصّة لمريض مثل الدكتور رشيد الذي يعرف أكثر من أيّ شخص آخر مغبّة حالته، ومراحل تطوّرها السريع والمفجع، مثلما يعرف أيضاً أنّ معجزته الوحيدة التي سيكتفي بها هي أن يكون إلى جوار الشخص الأقرب إليه في ما تبقّى من العالم، إنّه يعقوب. كانت المعرفة هذه المرّة قاسية عليهما، ولا سيّما حين بدأ رشيد يستشعر نهايته التي لن يطيق ذلّ آلامها، فنادى يعقوب إلى خلوة لا شهود فيها عليهما سوى الأرض والسماء، وعَيْنِ الذي سوّى الأولى ورفع الثانية:

- يعقوب عيني، أريدك تحفظ آخرتي يرحم أبوك!

هزّ يعقوب رأسه بإذعان، وقبّل جبين الرجل المريض، الذي أصرّ على ألاّ يغادر بيته، فرتّب يعقوب له عناية تلطيفيّة آمنة في المنزل، تضاهي ما يمكن الحصول عليه في أهمّ المراكز الطبيّة.

مثل فارسين خارجين من كتاب سِيَرٍ من القرون الغابرة، عاهد الدكتور يعقوب زوج أمّه على أن يمنع عنه العذاب المهين، ولم يخلف عهده، فبعد أن تثبّت من غيبوبته التي لا رجعة منها، سحب عنه، بمهنيّته المعهودة، أجهزة الوظائف الحيويّة، فخفّف ضغط الأوكسجين، وثبّط عمل عضلة القلب، وأخضعه لما يُسمّى بالموت الرحيم.

جنّ جنون نبيلة، لا للفقد المفجع الذي كانت قد استعدّت له، بل للجريمة الباردة التي اقترفتها يدا وحيدها. أذهلها أن يكون



بين الطبيب والقاتل فرق ضئيل يدّعيه العلم. قالت له وقد علا نحيبها وصار مثل خوار بقرة مذبوحة: ليس في ديننا ولا في قانوننا هذا الإثم الأكبر الذي ارتكبته. كان يمكن أن تنتقم منّي بطريقة أكثر رأفة بي وبك، القاتل يقتل يا يعقوب، وليس لي قدرة على أن أفكّر في أن أفقدك.

كانت تعلم أنّ يعقوب لا ينتقم، وأنها تلقي بالكلام جزافاً مثل المجانين، لكنها خائفة على ولدها من نفسه، ومن عقاب الله، خائفة من الجريمة الكاملة. يعقوب أخذ عزاء رشيد ثلاثة أيّام، واكتفى بالصمت. لا يمكن أن يشرح لها ما حدث، إنّهما الآن عقلان مختلفان في إدارة الأزمة، ومعتَقَدان لا يلتقيان بأيّة حال، ونبيلة لا تعرف السرطان كما يعرفه هو، ولا تعرف ماذا يصنع بأجساد البشر وبكراماتهم، ولا تعرف أنّ ما قام به كان وفاء لعهد بين رجلين شجاعين، وبين طبيبين استثنائيين، وإجراء عاديًّا قام به مراراً في مشافي أميركا.

نبيلة تعيش محنة الفقد، وألم الطعنة الذي لن يطيب أبداً، طعنة الدنيا التي لم تنصفها يوماً، وأجهزت عليها بأن خطفت منها رشيد الذي كان أكثر من صخرة، وأكثر من فرح، وأكثر من عزاء. باتت تخشى حقّاً من أنّ هذه الدنيا التي لا تكفّ عن الغدر، لن تتورّع من أن تحرمها ولدها، الذي صار يرجوها أن تتخلّى عن بضعة أفكار موروثة ليس لها وجود سوى في مغارة خوفها، وأن تبدّلها بما تعلّمته عن هيغل ونيتشه وشوبنهاور، وإلاّ



سيودي بها الرعب إلى مستشفى المجانين. صارت علاقتهما باردة، نبيلة اختبأت خلف جدار اليأس، ويعقوب اختفى وراء صمت كثيف، وكآبة لا تليق برجل أربعينيّ، لكنّه وجد ألاّ طائل من بذل أيّ جهد للتغيير، وأنّ الزمن وحده كفيل بمعالجة هذا الصدع غير المسوّغ إطلاقاً.

في هذا الظرف المرهق، الذي يعيشه الدكتور يعقوب، كانت هانية قد وصلت إلى المراحل الأخيرة في علاجها، وعادت الحياة لتدبّ في جسدها الحلو من جديد.



روليت روسيّ




مكتبة
الفكر الجديد

قالت هانية:

كانت جلسات الكيماوي قد مرّت بكثير من التعب والضيق، بسبب شقاء فكرة السرطان، لكنّني كنت أقاوم، لم أستسلم! خمس جلسات مضنية لم أستسلم فيها ولا لمرّة واحدة. الورم كان في رقبتي، هنا على اليمين.

نظرت حيث أشارت فلم أجد له أثراً!

اختفت كتلتي الصغيرة منذ الجلسة الأولى. في الحقيقة، لم أتألّم كما يصف الناس آلام السرطان، ولم يؤثّر فيّ الكيماوي كثيراً، كما تفرض روايات الآخرين. ربّما لأنّني أخذت قراراً بألاّ أتألّم! الألم هنا، وأشارت إلى رأسها، هنا في العقل.

لا يمكن لرجل أن يقاوم جاذبيّة هانية، إذا كنت أنا امرأة ومريضة، لا أستطيع تحويل نظري عنها كلّما تحرّكت أو تكلّمت! حركاتها رشيقة، وموقّعة، ومتوازنة مثل غزلان البريّة، في حين أنّ حركات بقيّتنا توغل في الفوضى والتخبّط. ملامحها ثابتة وقويّة، زادها تخطّي المرض حدّة، وهناك في الداخل براكين تنفث حممها من حجر العينين، ومن مسامات الوجه، ومن الشفاه الممتلئة الريّانة التي لم يحرقها الكيماوي الموكّل بأن يجفّف الماء في العروق حتّى تضمر.



قالت:

استعدت صحّتي سريعاً، كلّ شيء عاد بعد آخر جرعة، لوني، شعري الذي بدأ ينمو، دورتي الشهريّة... نظرت في عينيّ نظرة عطف مطمئنة: لا تخافي، سيعود كلّ شيء أفضل ممّا كان! هززت رأسي مع نصف ابتسامة، أطلب منها أن تزيد في الحديث، لقد كانت إيجابيّة، وكنتُ بحاجة لسماع الإيجابيّين.

- هل أنت محجّبة أصلاً؟
- لا.
- هل سقط شعرك كلّه؟
- لا أعرف، حلقته قبل أن يسقط.
- لماذا تغطّينه؟ انزعيه، واجهي الظرف واستمتعي بالتحوّلات، اتركي مرضك في عناية الشمس والريح، ذكّري جسدك بالحياة، ليصلح الخلل الذي حدث فيه.

سكتُّ، إنّها محقّة، أخفي رأسي الأصلع عن من؟! لا أحد يعرفني في هذه البلاد، لكنّه النمط، الخشية من النظرات المحدّقة التي تذكّرني بمرضي إذا نسيت لثانية واحدة. المحجّبات يتجاوزن جزئيّاً مسألة الشعر، أنا لا يهمّني سوى ناصر الذي يقول إنّني أبدو أجمل، وأنّ الشعر يصرفنا عن ملاحظة جمال الوجه، ومن تملك وجهاً جميلاً عليها أن تتخلّص من شعرها حتّى في الأحوال العاديّة كي يتأمّل المرء براءة عينيها، وأنفها العنيف، وفمها المحيّر



الذي لا يمكن لنا أن نراهن على كونه من لحم حيّ أم من ياقوت! ناصر يبالغ بشكل مزعج، وأنا لا يسعني أمام كلامه سوى البكاء.

"حنان" المريضة التي التقيتها في إحدى الجلسات الطويلة التي كنّا ننتظر خلالها أدوارنا للقاء الطبيب، كانت محجّبة، قالت إنّها لا تستطيع نزع غطاء الرأس في البيت، لا تريد لزوجها أن يراها، ولا أطفالها، وأنّها استطاعت لمدّة سنة كاملة أن تخفي رأسها الأقرع عنهم جميعاً.

قالت هانية:

الرقص هو الذي أنقذني، الرقص يشفي... تعرفين زوربا؟

- طبعاً.

- زوربا قال: "عندما مات صغيري ديمتري، وقفت هكذا ورقصت، وصار الناس يصرخون: لقد جنّ زوربا! لكنّني أنا في تلك اللحظة لو لم أرقص، لجننت من الألم". هذه العبارة، مدوّنة في مقدّمات كتب الرقص الحديثة كلّها، فبالرقص نقول بأجسادنا ما نعجز عن قوله بأفواهنا. حينما جئت إلى هنا للمرّة الأولى، صادفت شاباً كان قد أنهى علاجه وجاء لمراجعة دوريّة لدى الطبيب، فسألته أسئلة المرضى الجدد ذاتها، قال لي وقد وجدته عفيًّا، إنّ المرض بسيط، أبسط من نوبة حبّ، وإنّ حبيبته التي تركته آلمته أكثر من المرض



بكثير، اللهُ يَرحم، والبشرُ لا يرحمون. مـن يومهـا لم أعد أسأل أحداً، فقد آمنت بالشفاء. إذن، مـا هـو عملك؟

حكيت باقتضاب، فنظرت إليّ بابتسامة متأسّية:

- هذا المرض يختار (الإيليت)، النخبة، يقولون هو حسد، عين!

نظرت بدوري إلى مريضة أخرى تجلس قبالتنـا، وتـتكلّم بتلفونها، ومعها ابنتها، البنت صغيرة في السابعة أو الثامنة. سمعتها تقول لمحدّثها إنّ البنت لم تذهب اليوم إلى المدرسة كي تـأتي إلى المشفى مع أمّها، فالمرأة عمياء! من سيحسد عميـاء لتصـاب بالسرطان يا ربّي!

ما تزال هانية مشّاءة جديدة في مدارج التجربة، مـأخوذة بالفنون، وبكلام مدرّبـي الحياة، وكتب تنمية الشخصيّة، وتريد لجسدي أن يحكي وهو يذوي ويموت! كانت متحذلقة أكثر ممّا ينبغي لمريضة سرطان قد وطئت قدماها هذا العـالم الـذي لا تستطيع حتّى الشمس إنارته، أو أنّني كنـت أبـالغ في آلامـي وبؤسي، لكنّ الطبيب كان يقول في كلّ مرّة، إنّ كلّ حالة قائمة بذاتها، ولا تشبه الأخرى، لذلك لا يسمع أحد عن خبرات أحد شيئاً.





العالم ينقسم إلى فريقين فحسب، فريق المرضى وفريق الأصحّاء، لا معايير أخرى لديّ، لا ثقافيّة ولا ماديّة ولا جندريّة، وأنا أحسد الجميع على صحّتهم، ثمّ أتراجع فأغبطهم.

من الخطوات المبكّرة التي اتخذتها أساساً لهذه المرحلة، اختراعي قاموس الأدعية الخاصّة بي، جمّعته من أدعية الأنبياء والمحتاجين والمضطرّين والشحّادين، وأردّده بلا انقطاع: الله لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين، اللهمّ بحقّ اسمك الأعظم الذي سمّيت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك أو احتفظت به في علم الغيب عندك، أن تشفيني شفاء تامّاً عاجلاً لا يغادر سقماً! وعلّمني ناصر أن أتمّم: فإنّك على كلّ شيء قدير، وإنّك بالإجابة جدير، وإنّك حسبي ونعم الوكيل. اللهمّ اجعلني على البلاء صبورة، اللهمّ إنّي مسّني الضرّ وأنت أرحم الراحمين...

هكذا أستعيد بعض طمأنينتي، لكنّ مراجعات حياتي تمضي بسريّة تامّة بعيداً عن ناصر، أهيّب من أن أحكي هواجسي كلّها فأفقده، وكلّ يوم أسأل: لماذا ناصر معي؟! الأجدر به أن يكون مع امرأة بكامل صحّتها وبهائها، سعيدة ومفرحة، تأخذه معها إلى مركز الحياة حيث الطاقة والقوّة والحبّ، يسافران معاً، يسهران معاً، يذهبان للندوات العلميّة وللتبضّع ولعروض السينما والرقص! لماذ وهو في الخمسين برجولته الآسرة، وعليه أن يجني ثمار جهود طويلة، وصبر، وحياة ماضية غادرها، يرهن ذلك لامرأة في محطة ترانزيت إلى الموت، تقضي اليوم وهي تراقب



خلاياها التي تموت وخلاياها التي تولد، مراقبة الخلايا متعبة، لا يفكّر فيها غيرنا نحن الذين نخضع للعلاج الكيماويّ.

تأتي إجابات ناصر أكبر من أسئلتي التي لا يعلم بها! قال لي مرّة: إنّ من رحمة الله أنّني أصبت أنا بالمرض لا هو! جفلت، ثمّ أدركت أنّ وراء قوله حكاية، قال:

إنّ سلطة الانتداب البريطانيّ كانت في يوم ما، قد منعت الاتّجار بالتبغ، وجرّمت بالحبس والغرامة من ستجد معه علب الدخان، وكان جدّه مدخّناً شرهاً، وقد اشترى في يوم أربعة كروزات من علب السجائر، وحملها في سيّارته، يرافقه ابن أخ له في حوالي العشرين من عمره. أوقفته دوريّة، وفتّشت السيّارة، ووجدت الدخان المهرّب، فادّعى الجدّ فوراً أنّها لا تخصّه بل هي للشاب الذي أخرسته المفاجأة، فهو لم يعهد عمّه، الرجل الذي يحسب الجميع حسابه، جباناً أو كذّاباً أو مدلّساً، ليوقع به. ذهب الشاب إلى الحجز، ولكن ما أن أمسى المساء حتّى كان عمّه قد وسّط معارفه جميعاً فأخرجه من التوقيف ليكون بين أهله على العشاء. عاتب الشاب عمّه غاضباً، فقال له: يا بنيّ! أنْ تدخلَ أنتَ السجن فأعرف كيف أخلّصك، أفضل من أن أدخله أنا فلا تعرف كيف تخلّصني!

لم أكن سأتمكّن من مساعدة ناصر، ولا بجزء ضئيل من القدر الذي تدبّر به أمري، وإنّ كلّ ما يقوله صحيح، أمثولاته كلّها في مكانها، تفيض حكمة، لكنّ أسئلتي تتدافع باتجاه واحد:



لماذا عليّ أصلاً أن أمرض، حتّى يضطرّ ليكون معي؟! لماذا يمرض أحدنا! ألم يكن من الممكن أن نبقى أصحّاء، وما الذي سيخسره أيّ أحد في العالم لو بقيتُ عفيّة بلا سرطان!

الاتصالات التي كانت مقطوعة منذ شهر عن الرقّة عادت، فكلّمتني جود فوراً، قالت:

- ما الذي سيخسره الناس لو بقيت سورية بلا حرب!
- لا أستطيع التفكير بالحرب، أريد أن أتنفّس، أن أقوم من مكاني كما يقوم الناس عادة.
- نحن الآن تحت القصف.
- تتنفّسون، في أجسادكم قوّة كافية لتنقلكم من مكان إلى آخر، من غرفة الجلوس إلى القبو، حيث تلجؤون عند الغارة. أمّا أنا فلو جاء ذبّاح الآن ليذبحني، فليس بي طاقة لأقوم من مكاني، سأخضع لسكّينه فحسب.

* * *

دخل البيت وفي يده أكياس ورق كثيرة، أخرج الأشياء بحماس ونثرها أمامي. كانت ملابس رياضيّة من أديداس وريبوك، بنطلونات قطنيّة، وتي شيرتات، وسويترات، بألوان هادئة، مع حذائين مطّاطيّين أنيقين، أحدهما أسود والآخر أبيض. هي أشياء مفرحة لأيّ شخص في غير مكاني، كان ناصر مثل أب يحمل الهدايا لأولاده، يرغب في أن يرى الفرحة والامتنان في عيونهم:



- أريد أن تسير حياتنا بهدوء يا جمان، وأن تكون أيّامك كما كانت دائماً، مرتّبة وأنيقة ومترفة، ولن نهمل أنفسنا، سنحافظ على هذا الجمال الذي سنحتاجه طويلاً طويلاً، سنأسر اللحظة التي رأيتك فيها إلى الأبد.

أقول في نفسي:

- يااااه يا ناصر كم تأخّرت في مجيئك إلى حياتي، ليتك عرفتني قبل هذه الأشهر السوداء، ربّما كنت ستغدو أسعد رجل في العالم! والآن تريدني أن أواجه موتي بأناقة وترف...

قبّلته في خدّه قبلة امتنان، وأمسكت دموعي، إذ عاهدت نفسي بعد البكاء الطويل الذي ارتكبته في الأيّام الأولى، ألاّ أبكي أبداً، وألاّ أتفجّع، وأن أتوقّف عن رثاء شبابي، فما يجدر بالدكتورة جمان بدران، هو أن تنتقل من مستوى الشكوى إلى مستوى الامتنان، وأن تواجه قدرها مثل فارس اختاره الله ليتبارز مع خصم محتوم، وعنيد. أَمتنُّ أن أرسل الله ناصر، يمدّ لي يديه في هذه الظلمة، التي بدا أنّها ستأخذ وقتاً طويلاً لتنقشع.

حدّثتنا أمّ ماري، جارتنا الأرمنيّة، التي كنّا نناديها بالجدّة، يوم موت زوجها، قالت: الله لن يتركني، لقد كان معي دائماً مثلما كان مع أمّي، فأمّي التي فقدت أهلها في المذبحة، جاءت إلى الرقّة مع قافلة عثمانيّة تسوق النساء الوحيدات، ليصرن سبايا وفاعلات، هربتْ مع بعض رفيقاتها، ووصلن البلدة الصغيرة،



استضافها أهل هذا الحيّ، أطعموها وسقوها. كانت تصلّي طوال الليل، وتقول حائرة: يا إلهي لماذا تركتني! سمع دعاءها أحد المتّقين، فحكى لها حكاية المرأة التي حملها الله، المرأة التقيّة التي كانت تصلي، وتطعم طيور السماء من رغيفها الوحيد، وكانت حين تمشي على شاطئ البحر تلتفت خلفها فتجد آثار أقدام أربعة، وتتساءل عن سرّها، فيأتيها الجواب: إنّ الربّ يمشي معها، ويتابع خطواتها، وحينما مرضت بمرض شديد وابتأست، مشت على الشاطئ ودعته، والتفتت فلم تجد سوى آثار قدمين اثنتين، فقالت: يا ربّي لماذا تركتني في الضرّ، أين قدماك اللّتان كانتا معي وقت السلام؟! لم أتركك، قال لها: أنا هنا، لكنّني أحملك، وتلك آثار قدميّ على الرمل، انظري جيّداً، قدماي لا قدماك. بعد أيّام تقدّم أبي لخطبتها، كان حذّاء فقيراً، لكنّه أحبّها، فَقَدَ أَهْلَه أيضاً في الحرب. عاشا سعيدين، قنوعين، يتناسيان ماضيهما المؤسف في النهار، ليعود في الليل كوابيس حيناً، وحناناً، وعشقاً دافئاً أحايين كثيرة، وفي الأعياد يصير صلوات ورقصات حلوة، وعشت أنا مع (أبو ماري)، ومعكم كلّ هذ العمر، لكن بذكريات أبعد، وفرح أكثر، ورزق أوفر، وفي كلّ حال الله لا يتركنا، لا يتركنا أبداً.

* * *



انعقدت بيننا صداقة قويّة، واستقبلتني هانية مثلما يستقبل بحّار قديم مراكبيّاً مبتدئاً، لم يبتعد كثيراً عن الشواطئ، يعلّمه قراءة مزاج الموج، وخرائط النجوم، ومواسم الريح. صداقات مرضى السرطان عتيدة، فليس وراءها غاية أو مصلحة، هدفها تخفيف السابقين لآلام اللاحقين، والأخذ بيدهم، وطمأنتهم. كلّما اعتراني اليأس كنت أهاتف هانية، وكلّما طرأ تغيّر على حالتي أكلّمها:

- هل كان نظرك يتأثّر، ترين الأشياء متداخلة؟
- طبعاً، الكيمو يفعل كلّ شيء، يؤثّر في النظر وفي السمع، وفي الروح أيضاً. لا تصغي إلى جسدك الآن، فكلّ الإشارات التي يرسلها خاطئة، اتركيه يتفاهم مع الدواء، وبعدها سيجد الإيقاع وحده.
- متى سأشفى؟
- عندما ينتهي العلاج.
- وسأصير مثلك، أمشي بلا دوار، بلا شياطين تضرب في رأسي، وأتنفّس من غير أن أفكّر بالشهيق والزفير، ورئتي ستتخلّص من الآفة التي لا تتوقّف عن عضّها ليل نهار؟
- ستصيرين أفضل منّي أيضاً!

أريد أن أصل مرحلتها لا أطمع بأكثر، فقد بلغت المنتهى، كلّ شيء فيها طبيعيّ وصحيح.



- هل قال لك الدكتور يعقوب شيئاً عن وضعي؟
- لا طبعاً، يعقوب لا يتكلّم عن مرضاه إطلاقاً. ثمّ إنّه لا يخفي عنك شيئاً، إذا قال لك إنّ وضعك في المسار الصحيح، فهو يعني ما يقول حقّاً.

هانية لا تشبهني، مطمئنّة وهادئة، الطبيب شخصيّاً معها، يهتمّ بها، وينام إلى جانبها، ويجيب عن أسئلتها، ويحيطها كلّ الوقت بعنايته الفائقة، في حين تأكلني الهواجس، ولا أجد إجابات شافية، وفي المرّات القليلة الدوريّة التي يمكنني فيها أن ألتقيه، أسأله سؤالاً واحداً يفضي إلى آخر: هل سأشفى تماماً؟!

- إن شاء الله.
- هل سيعاودني المرض ثانية؟!
- نأمل ألاّ يفعل.

جواب يحيي، وجواب يقتل، في حين تستطيع هانية أن تنتزع منه الجواب الذي تريده، فأعود إلى ناصر لآخذ جلسات تأمّليّة عن أساطير الخلق، وأسرار الأرض والسماء، أستنبط منها إجابات غير شافية أشبه بالتأويلات. أريد من يقول لي: سأشفى تماماً، ولن أمرض ثانية، وسينتهي هذا الكابوس وسيصبح ذكرى. "تامي" الخادمة وحدها التي تقول لي ذلك.





بعد الجلسة السادسة بأسبوعين، أجريت الصورة الطبقيّة، وذهبت إلى موعدي المعتاد مع الطبيب. دخلت غرفته، على كرسي الجلد الأسود أمام طاولته. كلّ شيء من الحجم الصغير حتّى الطبيب نفسه، لكنّ الأمل يكون كبيراً. يجعلني دائماً أنتظره، يدخل متأخّراً قليلاً، وبطريقة احتفاليّة! لا يهمّ فليحتفل بأناه المتضخّمة، فهي تستحقّ حينما يحمل لنا البشرى، بل سأحتفل بها معه، في هذا المكان الذي أراه مثل زنزانة منفردة لنزيل محكوم بالإعدام، تفوح من زواياها رائحة الموت، وعلى ستارتها الرماديّة تُعرض صورٌ لعذاب القبر، لكنّ هانية تراها مقصورة عشق، تعمّرها قبلات نهمة، وملامسات حارّة. أريد أن أسألها عن التفاصيل، وعن كيف يفرّق الطبيب بين جسد يعالجه ويحبّه في آن معاً، لو سألتها ستحكي كلّ شيء، فهي غير متحفّظة تجاه ذلك أبداً، لكنّني أتوقّف، فالآلهة إذا هوت لا تقوم ثانية، وأنا لا أريد للطبيب أن يكون بشريًّا، كي أضمن على الأقلّ خيالاً للشفاء.

الشحّادة التي تقف خارجاً، صاحب عربة القهوة على رصيف المركز، الزبّالون، العابرون، المعثرون، كلّهم يراهم مريض السرطان أوفر حظًّا منه، ويعود ليسأل: ما الذي فعلته يا إلهي لأستحقّ هذا الابتلاء! ويأتي الجواب من الذين لم يكتووا بنار التجربة: امتحان، لا تضيّعوا أجره، حسنات، تكفير سيّئات... أيّة سيّئات هي التي تصير ورماً قاتلاً!



بعد ذلك نكتشف ما استعجلنا الحكم عليه، إذ يرى المريض الرحمة كلّ حين تنبجس من الأرض، أو تنشقّ عنها السماء، وتحيط به من كلّ جانب، ولا أحد غيره يشعر بها.

نظر في تقرير الصورة أمامه، شعرت به مرتبكاً لكنّه سعيد، مثل من ربح مقامرة، قال لي: الورم الذي كان عندك، انتهى.

أحبطته بطريقة تلقّي الخبر، ففرحتي كانت مختلفة، إذ لا يعني انتهاء الورم نهاية درب الآلام، هذا هدف مرحليّ، وأمامي أشواط أخرى، لكنّني سأتابع العلاج باطمئنان، أناور على الغموض، على أيّة خليّة مخاتلة اختبأت في مكان ما من صدري، لذلك قرّرنا أن آخذ جرعتين إضافيّتين، أي اثنان وأربعون يوماً من الجحيم، ستمرّ كما مرّ ما قبلها، لكنّ الأشواط الأخيرة هي التي تفصح عن المعنى الحقيقيّ للصبر، والمفاجآت المحتملة ستكون مريعة.

* * *

قالت هانية: أصبت بالسرطان، ووقعت في الغرام، وضحكت ضحكتها المغوية...

أنا أيضاً وقعت في حبّها، وصرت أشتاق إليها، وأنتظر لقاءها، فهي من بقايا الحياة الجميلة التي تخلّت عنّي. جلسنا في صالة المبنى الرئيس الواسعة، الصالة الزرقاء التي تصطفّ فيها المقاعد الجلديّة السوداء، متقاطعة طولاً وعرضاً. ركّبت كلّ منّا إبرة (كانيولا) في الوريد النافر على ظاهر الكفّ الأيمن، وجلسنا نتناول زجاجات الماء



المرّ، وعلى كلّ منّا أن تنهي زجاجتها في غضون ربع ساعة، قبل أن تستلقي تحت جهاز التصوير الطبقيّ، الذي يشبه أرجوحة في مقبرة: تنفّسْ بعمق، واكتم أنفاسك... يمكنك التنفّس الآن...

ثمّ يأتي المختصّ ليسكب في الإبرة المركّبة في اليد قطرات المادّة الملوّنة، بمجرّد أن ينتهي يكون ماء النار قد أحرق الحلق، وعروق اليدين، وأعضاء التناسل.

الإبرة تؤلم الأطفال فحسب، يصرخون، يبكون لأنّهم لا يدركون ما ينتظرهم، لا يدركون فداحة الخطوة التالية، وفكرة الموت غير واضحة في عقولهم. المعرفة مؤلمة، والأهل معذّبون بأولادهم. شكرت الله أنّني بلا أطفال، وأنّ ماما ماتت قبل أن يكون مرضي سبباً لشقائها. حتّى الآن لم أعالج فكرة الحرمان من الأمومة، سأفكّر بها لاحقاً، فالفكرة المحوريّة بالنسبة إليّ هي الشفاء، وعودة النَّفَس الطبيعيّ، ثمّ عدم معاودة المرض، وبعدها يمكن التفكير بإصلاح بقيّة الأضرار، لكن أن يكون الكيماوي قد أحرق مبايضي، وقضى على دورتي الشهريّة، وحرمني الحمل والولادة، فتلك خسارة فادحة، سأتفجّع عليها مستقبلاً لو حصلت. كنت أحلم بأن تكون لي طفلة بضفيرتين بنيّتين، وولد أوديبيّ يغار عليّ من أبيه!

لينا السيّدة الأربعينيّة التي التقيتها في واحدة من ساعات انتظار المعاينة، قالت لي: إنّ أقسى ما واجهها هو فكرة حياة بنتها الوحيدة بعدها، بنتها ذات السنوات العشر:



"البنت بحاجة إلى أمّ تحنو عليها، وتقدّم لها وصفات جاهزة للحياة، من سيذاكر لها دروسها بطريقتي الجادّة والمفصّلة، التي أجعلها بها تتجاوز إخفاقاتي السابقة! ومن سيحدّثها عن البلوغ، وكيف ستتصرّف حينه بلباسها، ونظافتها، وكيف ستداري نهود ثدييها وأردافها، وماذا عليها أن تأكل أو تتجنّب لتحافظ على الحديد في جسمها، من الذي سيهتمّ بخذلانها ويأسها وعواطفها... فكّرت في أن أكتب لها وصايا، أو ملاحظات، لكنّني في النهاية وجدت سبيلاً لأواجهها بهذه التفاصيل كلّها. حدثتها عن كلّ ما رغبت بقوله، جلسات طويلة قضيناها في شفافيّة متناهية، شرحت لها كيف تتجنّب التنمّر والتحرّش، عليها أن تملأ الدنيا صراخاً، وتبلّغ ضدّ المعتدي، وقبل ذلك ألاّ تأمن لأحد، وتتجنّب الأماكن المنعزلة، والملابس المكشوفة، والممرّات بين رفوف السوبر ماركت، وأن تتجنّب الملامسة الجسديّة مع البنات مثلما تتجنّبها مع الأولاد، ويمنع منعاً باتّاً المبيت خارج البيت عند أيّ كان... لكنّ الحياة كريمة، إذ سمعت وساوسي، ومكّنتني من أن أشهد لحظة بلوغها، وأن أكون معها. لقد بلغت باكراً، وفي تلك المرحلة ذاتها. مرّ على ذلك سنتان، وأنا الآن أفضل، وأرجو ألاّ يعاودني المرض لأكون معها دائماً، أرى الحياة في عينيها، وأسندها كلّما احتاجت إلى ذلك، المرض مع الأولاد أقسى وأمرّ!

يمرّ الوقت وأنا أراقب الجلوس، ثمّ أنتبه إلى ملامحي متشنّجة، ولو نظرت في مرآة لوجدت وجهي في غاية البؤس. السرطان



مربوط بالموت، الجميع يصرّ على تأكيد الفكرة. أنظر إليهم واحداً واحداً، كلّهم أشقياء: المؤمنون، والمستسلمون، والمتذمّرون، والكفرة، والرجال، والنساء... وأبدأ في ممارسة لعبتي الإجبارية، من سيموت منّا قبل الآخر، من الأقرب إلى الهاوية، من سينجوا! لكلّ منهم حياة وعائلة وأحبّة، ماذا يفعلون حينما يعودون إلى البيت؟ أنظر إلى ملابسهم البائسة، كلّهم لبسوا على عجل، جلابيب صيفاً وشتاء في الغالب، أو بيجامات رياضيّة، النساء يغطّين رؤوسهنّ، ومن لا تفعل يمطرها الجالسون بالنظرات ليخمّنوا إذا ما كان الشعر طبيعيّاً أم مستعاراً، وإذا ما كانت الحواجب مرسومة، أم ما تزال صامدة، ولا يجرؤ كثيرون على الاستفسار. المتمرّسون لا يسألون، المبتدئون هم الذين تراودهم الأسئلة، فالسؤال قد يعني أملاً، بالاحتماليّة نفسها التي قد يعني فيها ألماً وخيبة. مقعدي هنا بين الذين اصطفاهم الله للألم، المتآزرين، الذين طهّرهم التجربة من خبائث العالم، يحبّون بعضهم، يحترمون عذاب بعضهم، ويؤمنون بأنّ الله اصطفاهم لأنّ فيهم سرًّا كامناً، وليسوا بشراً عاديّين.

الذين يضحكون أو تعلو أصواتهم، ليسوا مرضى بل مرافقين. المرافقون وقحون، متبجّحون، ينظرون بشفقة، ويستعيذون بالله سائلينه المعافاة ممّا أصابنا، يفعلون ذلك في وجوهنا، ويدعون لنا بالشفاء بوقاحة، لا يعرفون الحسرة التي تسكن كلّ خليّة من خلاياي التي تتأهّب للموت، وبعد يومين أو



ثلاثة ستموت، لكنّها ستورّث ذاكــرة الألم للخليّــة الوليــدة الجديدة.

حينما يرنّ هاتف أحدهم، ويجيب وأسمع صوته، تعتلــيني دهشة. هل يردّ الموتى على التلفون! لكنّه لم يمت بعد. سمعــت امرأة، جاءت لتراجع الطبيب، تحدّث ابنها عن وليمــة أعــدّتها بالأمس لأقرباء، ذهلت، وسألته:

- هل شفيت والدتك؟
- منذ سنوات ثلاث، الحمد لله.
- الحمد لله.
- تعاني فقط من آلام المفاصل بسبب الكيماوي.
- الحمد لله...

اعتراني جذل غريب، مثل الجذل الذي يبدو على وجه رجل اعترف للتوّ لامرأة بأنّه يحبّها، ومضى في طريقه غير آبه بالردّ.

* * *

وجدتها بائسة، أوّل مرّة أرى البؤس على ملامحها، هانيــة جميلة حتّى في بؤسها:

- لماذا تصرّين على إبقاء شعرك إبريّاً هكــذا، مادمــت شفيت فعليك أن تتخلّصي من مظاهر المرض!
- هكذا أحلى، "تريندي" أكثر، حتّى إنّ كلّ الــذين لا يعرفون وضعي تذهلهم جرأتي كما يقولون، وإنّ قصّة



الشعر هذه تحتاج إلى امرأة تثق جدّاً بجمال وجهها، خاصة حينما أرقص...

- خائفة من الصورة؟ قلقة؟
- أكيد، أقلق في كلّ مرّة، أستعيد التجربة من أوّلها، وكلّما رأيت وجوههم تذكّرت وجهي، وأنت أيضاً حينما تشفين، وتأتين لفحوصك الدوريّة، سيعتريك القلق، لكنّه سيتبدّد بعد قليل، ويعود عند كلّ نزلة برد، لنكن واضحين: سيرافقنا القلق دائماً... نخشى المرور بالتجربة مرّتين، ليس القلق وحده، أشياء كثيرة ستعترينا، نحن بعد السرطان لسنا كما كنّا قبله، لكن لا تخافي لن يعاودنا ثانية.
- أرجو ذلك. إن شاء الله. أريد أن أشفى أوّلاً، بعدها سأفكّر بالخطوة التالية، معاودة المرض أو الخلاص منه نهائيّاً.

لم أسألها إذا ما كنّا سنكون أفضل أو أسوأ بعد التجربة، كلّ ما أعرفه أنّني أمقت التجربة، وأتمنّى لو أنّها حادت عن طريقي.

- حالتي مختلفة، متعبة، الورم يكبّل نفسي، والصراع الناتج عن العلاج يزيد حدّة المعركة في رئتي التي قالت عنها طبيبة الأشعّة إنّها صغيرة، لو كانت أكبر لكانت أرض المعركة أوسع! وأنت معك الدكتور يعقوب لحظة بلحظة...



- وأنت معك الدكتور ناصر لحظة بلحظة، ثمّ إنّ يعقوب لم يكن معي منذ البداية، تقاربنا قبل جلسة الكيماوي الأخيرة بقليل، حينما ظهرت ملامح الشفاء، وبدأت أتفاعل مع الحياة من جديد. كانت معي أمّي، بعدها رجوعها أن تعود إلى سان فرانسيسكو، لديها عمل، وأنا بتّ مرتاحة، عندها أخذ ظلّ يعقوب بالتمدّد في حياتي...

قالت: يعقوب! وعلت ملامحها ابتسامة مطمئنّة، فصارت تشبه باقة زهور تلتفّ على بعضها من الشغف.

- لماذا مرضنا؟

- لأنّنا استجبنا لنداء الجسد.

- طعامي كان صحيّاً، وأمارس الرياضة بانتظام!

لوت شفتيها إشارة إلى الحيرة:

- السرطان بطاقة إنذار أخيرة يرفعها الجسد في وجه صاحبه. قبل ذلك نبّهك مرّات وبطرق ألطف، فانشغلت عنه، وتركته تحت سيطرة إهمالك وقسوتك، فتمرّد. لم نفكّر به وحده، اهمكنا بالآخرين، بأجسادهم، وبرغباتهم.

- أنت الراقصة، الرشيقة، ألم تخدمي جسدك!

- ليس من أجله، من أجل الرقص، من أجل معايير الآخرين. لم أفكّر يوماً أن أمكث في البيت من أجل



جسدي، أن آكل من أجله لا من أجل أن يحملني، أن أحتفظ به جميلاً من أجل حبيبـــي، أو من أجل إرضاء أنوثتي لا من أجله هو! ألا تقضين الوقت في المخيّمات من أجل أجساد الآخرين...

تذكّرت المرّات التي لم أنم فيها، لم آكل، المرّات التي بكيـــت فيها، قلقت، فقدت أعصابـــي، خفت، انبجس شيء في صـــدري من الذعر، هل يمكن لفرد أن يعيش في عالمنا فلا يمرض من القهر!

* * *

مرّت الجلسة السابعة على خير، وبعد الخضوع للجرعة الثامنة بأسبوع، انطرحت في الفراش، وارتفعت حرارتي، و لم أعد أتمكّـــن من الصمود. استسلمت لعنف حصان الموت بعد أن قفزت الحاجز الأخير. حملني ناصر مساء إلى غرفة الطوارئ، وقد جاهدت كـــلّ تلك الأشهر محتملة الآلام والوهن والمعارك، كي أبقى في بـــيتي ولا أدخل الطوارئ، لكن لابدّ ممّا ليس منه بدّ. لم تكن غرفة الطوارئ مخيفة كما تخيّلت. معظم المرضى يبحثون عن مسكّنات ومغذّيات للتخفّف من أعراض العلاج الكيماويّ، والذين تأخّرت حالتـــهم يرقدون في الأسرّة. أجريت صورة إكس راي ســـريعة، طبيـــب الطوارئ أشار إلى أنّ ترافق الليمفوما مع الحرارة أمر مقلق، لكـــنّ ناصر أكّد لي أنّ الليمفوما انتهت، وأنّها أعـــراض الكيمـــاوي، لا غير، ولن نقلق حيالها، وأنا لا أصدّق إلاّ ما يقوله، بل إنّ ما يقولـــه



هو ذاته الذي يؤكّده الدكتور يعقوب دائماً. كان المكان مزدحماً بسكّان السماء المحتملين. أجلسوني في كرسي لأنني متماسكة، وبجانبي على بعد خطوتين مريض في سرير، ستارته مزاحة، وجسده مكشوف. رجل قد تضاءل، وبان هيكله من عزم المرض.

حلّ الليل، وكان على ناصر أن يذهب إلى ابنته، رجوته أن يفعل وكان يرفض، يعيش بين نارين، هذا المسكين! اطمأننّا على التحاليل السريعة، والصورة. كان ذلك الانهدام الجسديّ بسبب تراكم الكيماوي في جسدي. سيعطونني محاليل مغذّية حتّى الصباح، توسّلت لناصر أن يتركني في عنايتهم، ففعل.

الرجل الذي بجانبي كان متعباً جدًّا! معه رجلان: عشرينيّ يبدو ابنه، وآخر خمسينيّ، أخوه ربّما. غفوت للحظات على كرسيّي، فأيقظني ضجيج باهت، تجمّع طاقم العمل حول الرجل، ثمّ انفضّوا على مهل. نظرت إليه وهو يهمد، وفاضت روحه حولي، شعرت بها تخرج حارّة، ثمّ دخل هواء بارد وكأنّ أحدهم فتح الباب، مع أنّنا كنّا في أوّل أيلول. بكى الشاب بكاء مكتوماً، وأصوات تتمتم بـ "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"... غطّوه على عجل، وسحبوه من جانبي على سرير متنقّل. الدموع خرجت من مكان سحيق في قلبي أستدلّ عليه للمرّة الأولى، وأريد أن يتوقّف العذاب هنا وفوراً، لأنّني لم أعد أحتمل يا ربّ، فارحمني بحقّ اسمك الأعظم يا ربّ!





تحاملت على نفسي وذهبت إلى استوديو الرقص. كان عليّ أن أحتفل بانتهاء جلسات العلاج الكيماويّ بطريقة ما، حتّى لو لم أشعر بالشفاء. بالكاد أمشي، مهدودة، جسدي لا يحملني، وفي نفَسي ضيق، ومكان الورم يؤلمني، وشيء هورمونيّ يجعلني أكره الحياة.

ناصر قال إنّ علينا أن نفرح كثيراً، بقي القليل، بقي تعزيز الشفاء بالأشعّة:

- متألّمة، متهافتة، أما لهذا الألم من نهاية؟ كلّ شيء يؤلمني، ولا أعرف كيف أحدّد شكل الوجع أو مكانه!
- آلام الشفاء، إنّها آلام الشفاء يا حبيبتي، الثلج يذوب، وليلة ذوبانه تكون أبرد من ليلة الهطول ذاتها، إذ يتخلخل فيها تماسك العناصر التي تشبّثت بالأرض، ثمّ عليها أن ترحل، والرحيل مؤلم! نحتاج بعد الثلج إلى شمس حادّة لتسلك الحياة في الدروب من جديد، ولتكوي الرطوبة التي عشّشت في أجسادنا وزوايا بيوتنا، لا بدّ من الشمس لتمنع السوس من أن ينخر في خشب النوافذ. اذهبي باتجاه الشمس.
- كيف؟
- اذهبي مع هانية، واستمتعي بالرقص.

ناصر يُفقدني أعصابي، إجاباته أبرد من الثلج الذي يتحدّث عنه. أعرف أنّه متعب منّي، سئم من الهمّ الذي حمّلته



إيّاه لاشكّ، كلّ ما يفعله حمل عليّ شخصيًّا، لكنّني لا أستطيع إلاّ أن أمضي في حاجتي إليه، وأن أمتنّ. سمعته يحدّث ابنته التي غادرت إلى أميركا لتتابع دراستها عند أمّها، بعد أن أنهت الثانوية العامّة هنا، قالت إنّها لا تستطيع التكيّف، تشعر باكتئاب، بغربة، وإنّها غير منسجمة مع أمّها، فردّ عليها:

- اذهبي مع أصدقائك يا صغيرتي وتناولوا البيتزا، ستشعرين بأنّك أفضل!

قلت في نفسي: غريب ناصر، غريب، لم أتمكّن من فكّ شيفرته إلى الآن. غريب وشركائي فيه كثر، ما أجمل أبوّته! تمنّيت لو كنت ابنته أنا أيضاً، وقارنت بينه وبين بابا الذي غاب عنّي كثيراً ليعيش ملحمته الخاصّة في خضمّ الحرب.

يقع الاستوديو في بلازا كبير، تحت الأرض، أنزل إليه بسلّم كهربائي، وأعبر الباب الشفاف، الذي تغطّيه صورة كبيرة مرسومة بقلم أسود لثنائيّ لاتينيّ راقص، نحو ريسبشن صغير وخلف الكاونتر سيّدة أوكرانيّة، تسجّل المنتسبين الجدد لتدرّبهم على رقص الهيل (Heel) هيب هوب، الهيب هوب بالكعب العالي. في صالة بابها إلى اليمين، أجد هانية تقف أمام (سي دي بلاير) ضخم. الصالة واسعة، وأرضيّتها من الباركيه البنيّ المشقرّ، وجدرانها مرايا.

تنقل هانية عن زوربا: "لقد تعبت قليلاً وأنا أعترف بذلك، لكن ما الضرر! لقد قاتلنا أيّها المعلّم، ولقد انتصرنا، فأنا



سعيدا". ثمّ تزيد: يعقوب يقول عن هذا المرض رحلة، وعن الدواء إنّه مثل أيّ دواء آخر، نأخذه لنطيب.

- يعقوب لم يحترق بنار التجربة.
- ما أدراك أنت، لقد عاش يتيماً!
- كلّنا أيتام أنا وأنت وهو. لكنّني أقصد تجربة الموت الذاتيّ، ألم تفكّري في قبرك، وماذا سيحدث في الليلة الأولى! لا تقولي لي: كلّنا سنموت، أعرف، لكن هناك مرشّحون أقوى حظّاً، إنّهم نحن. يعقوب ما يزال أسير الحياة، والضعف، وآلام الآخرين التي يراها كلّ يوم، لكنّه منها على مسافة، يقف على عتبة النار يمرّر الناس منها وإليها، وفي الوقت نفسه يرتعب من شكلها. نحن احترقنا بها ونداوي حروقنا، تذكّري كيف عرفت أنّك مصابة! وناصر يراقب النار أيضاً. المرض يحرّر أليس كذلك؟ المرض جزء من الموت، يحرّر!
- قد يشفى الإنسان من السرطان، لكنّه لا يشفى من اليتم أبداً! أنت لا تعرفين يعقوب، ترينه رجلاً آليّاً يحفظ درسه جيّداً، بصدريّة بيضاء شاحبة، ووجه تصعب قراءته للغاية، لكنْ وراء نظّارتيه السميكتين عينان لم يرث جمالهما عن أحد، لقد صارتا جميلتين لأنّه بكى بهما كثيراً، لا تعرفينه أبداً.



أردت أن أقول لها: اسكتي، أنا التي أعرف، أعرفه قبلك، رأيت عينيه قبلك، رأيت دموعهما البكر، دموع الطفل المقهور، المراهق المستفَزّ، رأيت وجهه الحقيقيّ البريء قبل أن يتحوّل إلى قالب شمع، واشتريت له حلوى الجيلاتي، وأنت لم تكوني معنا في بورتوفينو يا فيتنامية.

غِرتُ من هانية، تسرق معارفي ومستحقّاتي، وتنسبها لنفسها. **إنّها تفشل في التعبير، لأنّها تعجز عن الشعور بالصدق، فعيناه** عميقتان لدرجة تستطيعان فيها أن تغرقا بضعة آلام من الكيماوي، لكنّها لا تجيد التعبير، آلامها أيضاً كانت محدودة.

سعدت بغيرتي لأنّها مؤشّر للحياة، ومازال بإمكاني أن أشعر، لم يحرق الكيماوي كلّ شيء إذن. غرت منها مرّة أخرى، وهي تأخذ دور معلّمة أو خبيرة في الحياة، لا لأنّها سبقتني إلى المرض بأشهر، بل لأنّها حبيبة الطبيب. أهرب حيناً عن وهني باللجوء إلى علاقتهما، أتخيّل تفاصيلها، فتعيدني إلى الحياة. قالت لي: إنّ الخوف أجبرها على أن تسعى وراءه مثلما يسعى كلب بوليسيّ وراء رائحة المخدّرات، كان ذلك بعد شفائها، خافت من أن تعود خطوة باتجاه الموت. الارتكاس أكثر ما يخاف منه مريض السرطان، يخاف من أن يفلت حبل الحياة من يديه بعد أن ذاق طعم النجاة. الحياة بعد انتهاء العلاج لها وجه آخر، وجه أمّ عادت من سفر طويل.

- شعرت به يجاهد ليكون معي حياديًّا، مثل الآخرين، لكن بدأ يتركني أنتظر، لأدخل للقائه بعد أن ينتهي



المرضى جميعاً، لنتحدّث عن أميركا، عن سان فرانسيسكو، عن لوس أنجلس... كان يحنّ إلى تاريخه المحبّب في لغتي، ومدرستي، وجامعتي هناك، وهذا المشترك هو الذي جعلني أعبر إليه. ثمّ زارني في الاستوديو، أَحَبَّ عالم الرقص، لا يشبه عالمه أبداً، بعدها صار يأتي باستمرار، أحياناً كلّ يوم!

تخطئ هانية في تقديراتها، حنّ يعقوب فيها إلى جذوره التي ما زالت هشاشتها تؤلمه، يبحث في تاريخ أبيها الشيوعيّ الفلسطينيّ الرفيق أبو هانية، عن البطولة التي حرم منها، وحرم منها أبوه من قبله، عن القدر المقاوم، وعن فتنة الأحزاب. ساقته هانية بتاريخ والديها النضاليّ الذي عزّزته ببضعة أوشام، إلى أسئلته الشائكة، وأنا ماذا أفعل بين هذين الفلسطينيّين المرتهَنين للتاريخ؟ ترى ماذا فعل حينما رأى وشم الكلاشنكوف عند سرّتها! قالت:

- مسح عليه كمن يزيل الغبار، ثمّ ضغط على الزناد!

ورنّت ضحكتها في صالة الرقص الممتدّة، لأسمعَ صداها في المرايا المحيطة، ولا أعرف كيف أصف مشاعري بين الغيرة، والاستهجان، والودّ، والامتنان للحياة، إذ بدأت أنتبه لتلك المفارقة التي جمعتنا كلّنا أنا وهي ويعقوب وناصر، وسعدت بانتباهي، فهو يعني أنني أهتمّ بشي آخر غير المرض، وتلك إشارة جيّدة أيضاً.

- ألم أقل لك إنّني أستطيع أن أفكّك البارودة الروسيّة (الكلاشن) بدقيقة، وأركّبها بدقيقة؟! أستطيع أن أفعل ذلك بوقت أطول، وأنا معصوبة العينين.



- واووو! لا أصدّق.
- كلّ أبناء جيلي تعلّموا كيف يفعلون ذلك. ثماني قطع سهلة الفكّ والتركيب. تدرّبت عند تلّ على مشارف المدينة. أعرف كيف أصوّب جيّداً، تدرّبت في عقلي كثيراً، والتدريب العقليّ يساوي الواقع كما قال المدرّب. أصوّب بين الرأس والصدر حيث لا خوذة ولا درع، فتكون الطلقة قاتلة عند الحنجرة أو الوجه. الكلاشنكوف التقليديّة تحيد نحو اليسار قليلاً عند الإطلاق، لذا عليّ أن أحرفها إلى يمين الهدف قليلاً، وأن أمارس قوّة مقاومة فاعلة حين ترتدّ على كتفي. أحتضنها بين ذراعيّ وكتفي الأيمن، أحرّر العتلة من وضعيّة الأمان نحو المستوى الأوسط، ثمّ بعدها بطقّتين إلى الأسفل، تكون في وضعيّة الدِراك، أو الإطلاق نصف الآليّ: تنكّب، استعد، حرّر، أطلق، نار...
- هل ذهبت إلى الحرب؟
- لا، كنت أتخيّل أنّني سأذهب، وأحارب إسرائيل. أوّل مرّة رأيت فيها إسرائيليّاً وجهاً لوجه، كان في فندق في شرم الشيخ، حيث ذهبنا لحضور عرس ابن صديق للعائلة. كان يجلس في اللوبي، نحيل بشاربين ولحية، وقلنسوة. ارتعدتُ لرؤيته، وشعرت بالبباب، ولم يكن معي كلاشنكوف، كنت أرتدي فستاناً ورديّاً وبيدي حقيبة صغيرة ذهبيّة اللّون!



- تجاهلي الحرب الآن، وتذكّري أنّك في نورينكو، استوديو رقص، لا ساحة معركة.

لا أريد أن أؤجّل معرفة تفاصيل علاقتها بيعقوب، لقد حان وقت البوح وأريد أن أعرف كلّ شيء عنهما. كنت أؤجّل لأشفى، لأكون جاهزة لسماع قصص الحبّ ولأنفعل بها، مثلما يتشوّق أطفال خيمة إفريقيّة لسماع قصّة قيلولة الظهر في نهاراتهم القائظة، ينتظرون أن تفرغ الأمّ من عملها، من رشّ التراب بالماء، فتسري الرطوبة، لتحكي لهم. أريد أن أحصل على الشفاء، كما حصلت عليه هانية، ووقتها سأقرّر إذا ما كنت سأفتك بهذا العالم، أو أدعه وشأنه.

تقول هانية:

ستعشق المرأة الرجل الذي يشبه أحبّتها جميعاً، الرجل الذي له حنان أمّها، وجبروت أبيها، وضحكة أختها، وعطف أخيها، وشجاعة حبيبها الأوّل، وتمنّع الثاني، وقسوة الثالث، وحضن الرابع...

فكّرت بناصر، ففكّكت صورته: له الملامح الجادّة ذاتها لجار خالتي الذي لم يعبأ بوقوفي ساعات على الشرفة، حيث كان غارقاً في قراءة "بيساوا". لناصر الابتسامة الحانية لذلك الصديق البعيد الذي كان قد أمسكني يوماً حينما أوشكت أن أقع على درج كليّة العلوم الإنسانيّة، أمام جموع الطلبة الغفيرة! يشبه حقّاً الكثير من أحبّتي، الذين ضاعوا منّي، أو هربت منهم. تتابع:



في العقل خريطة للحبّ، تبدأ بتجميع صور من نحبّ منذ ولادتنا، وتستمرّ في فرزها عبر تاريخنا الشخصيّ، وفي لحظة ما يكتمل (الكولاج)، ويظهر الحبيب.

كانت مغوية، عضلات ساقيها، وفخذيها واضحة، ويمكن ملاحظة بداية العضلة ونهايتها، والإمساك بها مثل التماثيل الإغريقيّة. لونها باهت قليلاً! رحت أبحث عن عيوب جسدها، لم أجد. قالت:

كنت أدفعه إلى أن يكون معي، وكان يرغب بشدّة، ويتوقّف عند نقطة الانزلاق، لا يريد أن ينزلق الطبيب في حبّ مريضته، لكن بالنسبة إليّ، كلّما خطا باتجاهي هذا يعني أنني أقرب إلى النجاة. أريد أن أنهي المرحلة، وأتحوّل إلى مريضة سابقة، ثمّ أصير حبيبته فقط. كان يعرف متى يتوقّف. يعطي، ويمنع بعدل. المنح والمنع يوزنان بميزان الذهب، وهذا ما يجهله جلّ الرجال! لا تطلب المرأة أن يغدق عليها الحبّ يمنة ويسرة، لكنّها حينما تكون على شفير هاوية الألم أو الخوف أو الضعف، فعليه أن يجعلها تجده، وألاّ تحتاج إلى سواه، وألاّ تنتظره كثيراً أيضاً، فهناك نقطة ما، إذا بلغتها المرأة وتمكّنت من تجاوزها، فستعجز أعنف تعويذة في التاريخ عن إعادتها إلى الخلف.

لا أستطيع أن أكون مثل هانية، فأنا أقف عند حدود النظريّة، وهي تعيش التجربة. أغلّف متعتها الحارة بالمصطلحات الباردة التي لا أتقن غيرها:



- يحبّ فيك نفسه، قدرته، مثل بجماليون.
- لا أعرفه.
- أسطورة.
- أحبّ الأساطير.
- اذهبـــي إلى غوغل.

ضغطت على شفتي بسبابتها، وكأنّها تفعّل زرًّا في لوحـــة المفاتيح، فتتصل بغوغل.

- بجماليون كان نحّاتاً يكره النساء، ومرّة نحت امرأة جميلة من العاج، فعشقها، وطلب إلى فينوس أن تحييها، فكان له ذلك، وامتلك جسدها. حكايته تحوّلت إلى تفســـير لعقدة عاطفيّة لدى الشخصيّات التي تصنع من العـــدم شيئاً فاعلاً، مثل مخرج يحوّل فتاة عاديّة إلى نجمـــة، ثمّ يعشقها ويحتكرها بصورة مرضيّة، في الحقيقة هو يعشق قدرته على الخلق، وهي ترضي الـــــ (إيغــو- ego) المتضخّمة عنده. يعقوب يعشق قوّة الحياة التي استطاع أن يبثّها فيكِ. يعشق ذاته.
- لقد عالج عشرات أخريات، بل مئات! كـــلام غـــير منطقيّ.
- لا يُشبهْنك. فروقات في إظهار قوّة الحياة.
- أعتقد أنّ لديه مشكلة مع النساء فعلاً. حين رآني أرقص هنا في الاستوديو للمرّة الأولى، أخذني إليه. كان هادئاً،



يقوم بذلك بآليّة، بعدها تحوّل إلى ممسوس، خفت منه، ثمّ اعتدته. عندما يخرج منّي يبكي وينادي أمّه...

صعب عليّ أن أسمع هذا الكلام منها، أريد طبيباً قادراً على اجتراح الشفاء، لا رجلاً ممسوساً يبكي حين ينام مع امرأة، وينادي أمّه! تابعتُ ملاحظاتها الناقدة، والتي حرّضتها الميثولوجيا، وخطرت في بالي أسئلة لن أحصل على إجاباتها: ماذا فعلت نبيلة بأفرهولاته الصغيرة التي استفرغ الحليب عليها مراراً؟ ولمن أعطت قبّعاته البيضاء الملوّنة بالأزرق؟ وهل احتفظت بأحذيته المطاطيّة الصغيرة لأولاده كما تفعل الأمّهات! فكّرت أيضاً كيف تلقّى خبر موت أبيه؟ وكيف عاد من المقبرة، وتركه وحيداً تحت التراب، ثمّ كيف قضى ليلته الأولى بلا أبّ!

- يبحث فيكِ عن الـ (مادونا هورن) القدّيسة البغي، تصلحين لتمثيل هذا النموذج، خلطة من نساء بَتوليّات، وشلّة عاهرات في الوقت ذاته.
- هههههههه، (ثانك يو)، أحبُّ ذلك حقّاً! لكن ما دام معي فأنا في أمان، ووضعي الصحيّ سليم، فلا يمكن لرجل أن يحبّ امرأة مقبلة على الموت، ولن يلثم الأعضاء التي يعرف أنّها بعد أيّام ستكون قُوت الدود.
- هل رأيت جسداً ميّتاً من قبل؟



- لا، كنت صغيرة حينما اغتيل أبـــي، كلّ ما أذكره من موته الصندوق الملفوف بـــالعلم، وأكاليـــل الزهـــور، والازدحام الشديد.
- يحشون فتحات الجسد بالقطن، ويلفّون حول الـــرأس شاشاً كي يبقى الفكّان الرخوان مطـــبقين، ثمّ يلفّـــون الجسد كلّه بقماشة بيضاء.
- لماذا بيضاء؟ ستتسخ بالتراب فوراً!
- مم، ليس لديّ جواب دقيق، ربّما أملاً في مواجهة نقيّة مع الذنوب، إعلان السلام من الدنيا...
- في فيتنام غالباً يحرقون الأجساد. بوذيّـــون، يجمعـــون رمادها في جرار ثمينة، أو يسمّدون بها حديقة الدار، أو يحوّلونها إلى بلّورات زجاجيّة توضع كقلادة، وربّمـــا يذهبون بها إلى صائغ ماهر، فتصير خاتماً ثميناً، وقد تصير ألعاباً ناريّة! أهل أمّي يتّبعون الدفن السماويّ، يضعون الجثّة في مكان عالٍ، كقمّة الجبل، لتأكلها الجوارح، إنّه كرم أخلاقيّ ينبـــي عن تشارك المخلوقات، وفي هذه المراقي تتناسخ الأرواح، فتحلّ روح المتوفّى في كـــائن آخر من الكائنات. إنّه منتهى النبل، التبرّع بـــالأرواح، شيء يشبه التبرّع بالأعضاء.

أحاول دائماً أن أسحب الحديث باتجاهه، وهي تطـــاوعني، تستجيب لتلصّصي، وتغريني به أكثر، ليس بقصد أن تغـــيظني،



فهي تخلّصت مثل كلّ مرضى السرطان من هذه النوايا التافهة، لكن لديها رغبة في أن تسمع صوت حكايتها، حتّى تتأكّد من أنّها تعيشها، من أنّها شفيت تماماً.

رفعت قدمها إلى كرسيّ بلاستيكيّ صغير، وانحنت تثبّت إبزيم حذائها الفضيّ ذي المقدّمة المدوّرة والكعب المربّع متوسّط الارتفاع، وهي تنظر في ساعة معلّقة على الجدار. أنا حتّى الآن لا أستطيع الانحناء والقيام بسهولة، فترسّبات الكيماويّ في أنسجتي ما زالت تثقل عضلاتي، وكذلك أفقدني الاستلقاء المستمرّ في الفراش رشاقتي السابقة.

كانت ترتدي كولوناً سميكاً نيليّاً، وفوقه تنّورة قطنيّة رياضيّة سوداء قصيرة، تعلو الركبة إلى منتصف الفخذ، وبلوز قطنيّة سوداء أيضاً ضيّقة، بكمين طويلين، صدرها محفور بنصف دائرة، وكذلك ظهرها، ويَبين لون جسدها الأبيض المصفرّ مثل لون قلب سفرجلة، وشعرها الأسود القصير الذي نما في موجات صغيرة، ملتصقاً بجلدة رأسها، يلمع مثل شعر المواليد الجدد، يكشف عن عنقها الحلو المشدود، المزيّن بالوشم، عاطلة من أيّة زينة أخرى أو إكسسوارات سوى جمال الشفاء. لماذا يتزيّن الناس وينهمكون بالاهتمام بالألوان، والأصباغ، والحليّ التي تثقل أجسادهم، أجمل زينة هي العافية التي تنضح من جسد هانية كأنّها لم تحترق بالمرض يوماً!

دخل شاب عشرينيّ، رَبْعُ القامة، حنطيّ البشرة، وبشعر بنيّ غزير، يطول ليغطّي رقبته، وقد أزاحه عن وجهه بقوس



بلاستيكيّ مسنّن، كالذي تستخدمه البنات، فبانـــت تفاصـــيل وجهه القويّة. يرتدي زيّاً رياضيّاً بلون رماديّ، أضيق من أن نراه على رجل، حيث يفصح عن أعضائه المحشورة تحـــت، وعـــن عضلاته البارزة بافتعال. قالت هانية: أكرم، صديقي، وشريكي في العمل، مدرّب الرقص رقم واحد في عمّان.

سلّم عليّ بحياد، لاحـــظ أنّـــني لا أنتمـــي إلى عالمهمـــا، وربّما خمّن أنّني خرجت للتوّ مـــن قـــبري، صـــفراء باهتـــة، والعمامة ما تزال على رأسي، وبنطلوني الجينـــز أوســـع مـــن جسدي وإن كان من ماركة ليفايس. العالم هنا يقف عند حدود المظاهر.

ضغطتْ على الريموت كونترول، فراحت تنمو إيقاعـــات على مهل، فاستيقظ في روحي شيء كان في غيبوبة طويلة. كان تمريناً للتانغو، وكانت موسيقى (لاكومباريستا)!

تؤكّد لي هانية أنّ قوّة الحياة ليست خيالاً، وهـــي امـــرأة واضحة ومنطلقة، وتعرف كيف تدلّل ذاتها، فذاتها أوّل أولويّاتها، ومن ثمّ يأتي العالم، ذلك أنّها لا تنتظر من أحد شيئاً، تعطي بقدر ما تأخذ، وغير ذلك تعدّه سخرة، وتقول إنّ عهد السخرة ولّى منذ زمن طويل. أعترف أنّني معجبـــة بشخصـــيّتها، لكـــنّني لا أستطيع أن أكون مثلها، أنا أكثر جدّية منها، بل أكثر تراجيديّة!

كلّما شعرت باليأس، كنت أشحن بطّاريّتي بلقائها. قالت لي في ذلك المساء:



إذا كان رجلك فوق الأربعين، فراقصيه الفالس، ستمنحينه الوقت ليكتشف عمقك، وأنوثتك، وأناقتكِ، وهذا كلّ ما يريده. وإذا كان تحت الأربعين، فراقصيه السالسا، ستحرقينه بحرارتك، وجنونك، وحيويّتك، وهذا كلّ ما يريده. سألتها: وأنا في أيّ عمر عليّ أن أكون؟ ليس لديّ وقت. قالت: لا يهمّ، المرأة التي تعرف كيف ترقص، لا عمر لها، وهذا كلّ ما تسعى إليه نساء العالم، وسيكون أمامك وقت طويل!

تستسلم هانية لقيادة شريكها، والاستسلام ليس رضوخاً كما كنت أقنع نفسي طيلة الوقت، فلم أستسلم للضعف، ولا للفشل، ولا للتسلّط، مثلما لم أستسلم للحبّ. كنت يقظة دائماً، أقيس المسافة إلى حافّة الهاوية، وأتوقّف عندها، وتلك اليقظة كانت تسلبني المتعة، وتمنعني من الذوبان حتّى النهاية، لذلك ظلّت معارفي في كلّ ما اختبرته ناقصة. لو عرفت قبلاً أنّ الحياة قصيرة إلى هذا الحدّ لاخترت سيناريوهات أخرى لتاريخي، فماذا لو ذاق المرء طعم الإخفاق، أو الخنوع، أو الضعف! ومن سيموت عنه لو مشى في التجربة حتّى نهايتها المرّة أو السعيدة؟ ومن سيهبه من عمره ساعة، لو أحرق أوراقه كلّها!

الرقص يشبه - بناء فوقعة، ثمّ الخروج منها، انطواء وانفتاح اختياريّان، وبناء فواقع للآخرين وإخراجهم منها أيضاً!

- فوقعة! كلمة صعبة، لماذا كلّ هذا الإرهاق لجهاز النطق! SHELL أسهل. ممكن، يعقوب بنى فوقعة



سميكة، أنا أخرجته منها، وأعرف كيف أدخله إليها ثانية!

خطرت في بالي حلزونات بيتنا في الرقّة، التي اختفت، و لم ننتبه إلى اختفائها!

- كان متحفّظاً جدّاً، حتّى في أكثر لحظاتنا حميميّة لم يكن يبتعد كثيراً عن قوقعته، تغيّر فيما بعد، صار متوهّج الرغبات، يعرضها مثل دبلوماسيّ عريق، يحكي في أثناء المتعة، ويشتم، ويسمّي الأشياء بأكثر أسمائها سوقيّة، وبالعربي....

سألته مرّة: كيف عرفت كلّ هذه البذاءة؟! قال إنّه حينما كان يزور أهل أبيه في البيت القديم كان يسمع الأولاد يتشاتمون في هدأة الليل، وقد أحبّ مفرداهم كثيراً، واحتفظ بها في ذاكرته!

حينما أرقص أستطيع أن أجمعه بيديّ وأرميه في قوقعته من جديد، أن أمسكه من لحيته، ههههه، للحيته ملمس مقشعر، مثل ملمس خيوط العنكبوت، هل لمست مرّة بيت عنكبوت، والتصقت خيوطه الواهنة على أصابعك الدبقة!

أقبلت صورة ماما، وجود وسلمى الصغيرتين، وهنّ يلعبن على شاطئ بورتوفينو بالرمل، بمايوهاهنّ الصغيرة الملوّنة، "مايو" جود أزرق منقوش بقلوب ورديّة، ومايو سلمى بنيّ منقوش بقطط برتقاليّة، سألتها:



- هانوي! هل عنده فطريّات في أظافر قدميه؟

- من؟ يعقوب؟! لماذا؟!

فكّرت قليلاً وهي تبتسم، ثمّ انقلبت الابتسامة إلى نظرة غير مريحة، اتهام أو عتاب...

- أجهل ذلك، لكنّ ظفْرَي إصبعَي قدميه الكبيرين أصفران، وملتويان.

يا الله يا ماما! كنت تعرفين كلّ شيء في العالم!

* * *

العلاج الإشعاعيّ يمثّل مرحلة نقاهة بالنسبة لعذابات الكيماويّ، لكنّه ليس بالسهولة التي كنت أتصوّر. الأمل الآن يكاد يبلغ منتهاه، وحين أشرف من قريب على خطّ النهاية، أراه واضحاً، وعليّ الآن أن أقتحم شريط السلوفان بجسدي الذي أثبت صموده في هذا الماراثون الطويل.

استغرق إعداد الخريطة الإشعاعيّة شهراً، يحدّد فيه الفريق مكاناً دقيقاً لضربات الأشعّة على مكان الورم مباشرة، كي تقتل أيّة خليّة خبيثة محتملة، من غير أن تسبّب ضرراً لبقيّة الأعضاء. إنّه الشهر الأوّل بعد رحلة العلاج الطويلة، الذي مرّ بلا جرعات، وبلا حبوب كورتيزون. بدأ شعري فيه يأخذ فرصته للنموّ من جديد. الخضوع للأشعّة بحدّ ذاته عمليّة غير مؤلمة، أخلع عمامتي، فيفاجئني بياض جلدة رأسي وقد نبتت فيه إبر سوداء، لن تسقط



ثانية، يتعرّى جذعي العلويّ، فيؤلمني عريي في المرايا، لماذا تحتّم على جسدي أن يواجه هذه التقلّبات المُهينة! أستلقي على طاولة، يضعون رأسي في قناع معدنيّ واق، أعدّوه حسب مقاساتي مسبقاً، يغلقونه بإحكام، فتصدر عنه قعقعة، وأغمض عينيّ فلا أرى تفاصيل غرفة التصوير الواسعة، وأتنفّس من فتحتي الأنف مجاهدة الثقل في أنفاسي، والذي سيخفّ يوماً فيوماً، وأبدو مثل فارس من القرون الوسطى، قد استعدّ لمعركة. يخرج الجميع، يطفؤون الأضواء، ويتركونني مسترسلة في صلاة، بعيدة عن جسدي، أخلد في ظلمة عميقة مثل جَنين داخل رحم غريب، لا يحمل أيّة أسئلة، أو مثل بذرة في باطن الأرض تبدأ بالإنبات حيث لا يراها أحد. عشر دقائق، ويعود الضوء، مع أصوات الفنيّين، أرتدي ملابسي، وأخرج، وقد سقطت ورقة يوم من العلاج النهائيّ، الذي سيبلغ عشرين جلسة يوميّة، واستراحة في الجمعة والسبت. لا بأس! شهر سيمرّ كما مرّ ما قبله. الأشعّة تستنفد ما تبقّى من طاقة في الجسد، تهدّه كما تفعل مطرقة صغيرة في حجرة من الكلس. عظامي كلّها تؤلمني، ودوّامات دائريّة تلفّ دماغي، قيء، وجفاف يهاجم فمي وحلقي، لا يرويه ماء. سعال يعاودني بين حين وآخر، والألم مكان ورمي لا يبارحني، حتّى إنّني لا أستطيع أن أثني جسدي. قالت لي الطبيبة المشرفة على علاجي الإشعاعي: قد يكون التهاباً شعاعيّاً بسيطاً، وإنّ الألم سيبقى لفترة. الضوء يحرق الخلايا الحيّة عند قلبي، حتّى إنّ الجلد تحت



ثديي الأيسر قد اسودّ وتقشّر. أكّدتْ أنّ هذا طبيعيّ، مثل أيّ حرق يسببه مصدر حراريّ، والمهمّ في الأمر أنّ رئتيّ قويّتان، وستقاومان وطأة الجلسات العشرين، وأنّ حياتي مع الأشعّة ستكون أفضل. سألتها عن الشفاء التامّ. فقالت إنّ شفائي الكامل وفق الفحوصات كان بالجرعات الكيماويّة، وهذا علاج مساند، يخفّف من احتمال عودة المرض.

- هناك احتمال ليعود.
- الاحتمالات قائمة دائماً.

تحبطني هذه الإجابات، والإحباط يأخذ شكل موت مجّانيّ في ذروة الفرح، كأنْ ينجو المرء من مركب غارق، فيتزحلق بقشرة موزة، وتدقّ عنقه.

ألقيت بكلامها في درج النفايات الذي ركّبته في مؤخّرة رأسي. لقد طلب إليّ الدكتور يعقوب ألاّ أسمع كلام أحد في العالم غيره، وأنا أحبّ واحديّته المتطرّفة، تهبني سكينة مثلما يهب إله إغريقيّ محبّ قدراً مبشّراً لواحد من أبطال الملحمة.

انتظرت دوري أمام صيدليّة المركز لأصرف وصفة شراب للسعال، ومرطّبات للفمّ ضدّ فعل الأشعّة، جلست بجانب رجل يرتدي لباس شيخ جامع، بيده بطاقة الدور لصرف وصفته، ويبدو مطمئنًّا، وعلامات المرض لا تبدو على سحنته الخمسينيّة. كان لديّ مزاج لأفتح حديثاً مع أحد، أؤكّد به لنفسي أنّني أسترجع شيئاً فشيئاً علاقتي بالحياة على أكثر من صعيد. المصادفة



الجميلة في هذا المكان الذي تتنافس فيه عوامل الكآبة على السيطرة، هي أنّه قد خضع لعلاج مثل علاجي تماماً، الورم كان في الغدّة بين الرئتين أيضاً، لكنّ جلساته أقلّ لأنّ الورم أصغر. كان ذلك منذ خمس سنوات. قال: نسيت الموضوع كلّه، آتي فقط للفحوص الدوريّة أو حينما أصاب بعارض لا علاقة له بالسرطان، نزلة برد مثلاً، لأنّني خاضع للتأمين في هذا المركز. الله كريم، سيشفيك مثلما شفاني، وستصير الحياة أفضل، بعد شفائي تزوّجت بامرأة جديدة وأنجبت أولاداً آخرين!

أُنهي الجلسة في التوقيت ذاته كلّ يوم، أخرج من المركز، تقابلني عند الباب الرئيس، تحت شجيرات الجزيرة التي تقطع الطريق، سيّارة دفن الموتى، يقف سائقها بنزق مستنداً إلى الباب بانتظار الجثّة التي تكفّن في الداخل، لتتجه مباشرة إلى المقبرة. لن تمرّ الجثّة ببيتها، لن تودّع فراشها، وزوايا الذكريات، الأهل سيلحقون بها جميعاً إلى حيث ستوارى، يتمّون مهمّتهم بضمائر مرتاحة، يتبادلون التعازي التي تقول: ارتاح أو ارتاحت من العذاب، ويغرقون في حياتهم. السيّارة التي تشبه سيّارة الإسعاف، كُتب على بابها الخلفيّ الذي يدخل منه الموتى ويخرجون، بخطّ أسود عريض: "كلّ نفس ذائقة الموت"، وعلى جانبها كتب بالخطّ ذاته مؤسّسة "سدرة المنتهى" الإسلاميّة. في أيّام علاجي الأولى كنت أصطدم بكلماتها من بعيد، فأصاب بكآبة لا قرار لها، فأعرض عنها، وأمشي على الرصيف الثاني، فيدفعني شيء في



عقلي نحوها، أقاومه، فيأتي ناصر بسيّارته (الجالنت) الرماديّة، ألقي بنفسي على المقعد بجانبه، وأنجو. ظلّت سيّارة سدرة المنتهى واقفة، لكنّ شعوري بها الآن أقلّ حدّة، صارت المسافة بيننا أبعد، ويبدو لي أنّه قد تمّ تأجيل موعدي معها حتّى إشعار آخر.

* * *

أزف يوم الجلسة الأخيرة، أردته يوماً عاديًّا، تمضي أموره على خير، في نهايته ستفرغ أجندة المواعيد، لا جلسات كيماوي ولا أشعّة، ولا بأس باحتمال صورة طبقيّة بعد شهر، ثمّ أخرى، وثالثة، وإن مضت الأمور كما هو مخطّط لها، سأخضع لمراجعات دوريّة كلّ ثلاثة أشهر، وفي السنة التي تليها ستكون الفحوصات كلّ ستّة أشهر. لديّ أمل كبير في أن يتّعظ جسدي ويكفّ عن خياناته. سأعود اليوم لأستلقي في فراشي، أتابع قراءتي في كتاب "التأمّلات" لماركوس أوريليوس، كتاب يبعث على السلوى: "أيّتها النفس، أما آن لكِ أن تقنعي بحالك الراهن، وتجدي متعة فيما هو الآن بين يديكِ؟"! بتّ أقدرَ على القراءة، ستتحسّن علاقتي بها حينما تعود هورموناتي لتعمل جيّداً، وستكون من الأشياء القليلة التي سأحتفظ بها من حياتي السابقة.

طلبت إلى الله أن أودّع قناع المحاربين إلى الأبد، وخرجت ملوّحة لطاقم الفنيّين الذين تمنّوا لي السلامة. لمرضى السرطان أيضاً أفراحهم الصغيرة، وأجواؤهم الاحتفاليّة.



قابلتني هانية عند بوّابة منطقة الأشعّة، جاءت لتأخذني معها نتغدّى في الاستوديو بمناسبة الجلسة الاختتاميّة. مشينا باتجاه سيّارتها، كنت أتحامل على الألم في صدريّ، والوهن في جسدي، وأحاول أن أقنع نفسي بالشفاء، وبأنّني مثل أوديسيوس خرجت من عالم الموتى، وما تبقّى هو نقاهة وترميم وصلوات. فوجئت بيد هانية تمتدّ إلى رأسي، تخلع عنه العمامة الرماديّة، فينفرد قماشها القطنيّ الطويل، ربطتها بخفّة بلاقط لاسلكيّ (أنتين) منتصب لسيّارة على جانب الطريق، همّ بالتحرّك، لم ينتبه سائقها، انطلق مسرعاً، وعمامتي ترفرف مثل راية خلفه، فوجدت نفسي أواجه العالم عارية إلاّ من حقيقة التجربة، كخروف جزّوا صوفه في موسم الربيع. قالت هانية: والله شعرك جميل، بعد شهر ستضطرّين لاستخدام المشط.

دخلت في هاجس عودة المرض، أسأل ناصر، لماذا أتألّم؟ لماذا أسعل؟ يفترض أنّني شفيت! ناصر الذي يعيش لحظاته السعيدة بنجاح علاج طويل وشاقّ، تمّ تحت رعايته، يقول: لا يهمّ، تألّمي، إنّها آلام الشفاء.

اتصل بابا، لم أسمع صوته منذ شهرين، إذ انقطعت الاتصالات عن الرقّة، وصعب التنقّل إلى مراكز هواتف "الثريّا" الفضائيّة، بسبب عمليّات القنص التي كثرت في الآونة الأخيرة، لا يستطيع أحد أن يخبرني: مَن يقنص مَن، نتكلّم في التلفون بالرموز خوفاً من داعش والنصرة والنظام والجيش الحر وأولياء الله الصالحين...



ما يهمّني أنّ أهلي ما زالوا على قيد الحياة:

- إيه جمان، حبيبتي كيفك؟ خلّصتِ

- بابا، لماذا تخليتم عنّي!

- شو؟ لا أسمع!

- بابا أنا بخير، الحمد لله، خلّصت جلسات.

- خلاص، الحمد لله، الحمد لله، ربنا رحمنا، صار كلّ شيء من التاريخ، انسي.

- بابا تعبانة.

- معليش، طبيعي، عمليّة الزائدة يبقى ألمها لسنة، فكيف بكلّ هذه العلاجات، والله ستعودين مثل الحصان، ستّ الصبايا.

- كيفكم؟

- نحن بخير، الأمور ستتحسّن، ستنفرج إن شاء الله. ماذا يقولون عندكم؟

- يقولون الوضع أفضل.

- أكيد أكيد، "تيمورلنك" مرّ، "غورو" مرّ...

- إن شا الله إن شاء الله بابا. عندكم أكل؟

- إيييييييييه، عندنا كلّ شيء، ممكن أن نرسل لك إذا أردتِ.

جود تتناول السمّاعة:

- جمان كيفك؟

- تعبانة!



- المهم خلصنا، ستستعيدين عافيتك بالتدريج.
- خائفة من أن يعود.
- لن يعود، كلّهم شُفوا، كلّ الذين في مثل حالتك: أبو فرح، ورهف، وكلوديا... السرطان انتهى و لم تنته الحرب.
- جود تعالي.
- والهمّ الذي برقبتي لمن أتركه! سيمنع سفر النساء بلا محرم. الله يحبّك، أبعدك عن هنا، ويحبّ ماما، لأنّه أخذها قبل أن ترى هذه الظلمات، الطائرات تقصف من فوق، والمسلّحون يقتلون على الأرض. ماتت العمّة سويداء (san culottes)!
- لا...
- والله.
- كيف؟
- تعبتْ، سرطان مثانة، والعلاجات صعبة، أجرت عمليّة في دمشق، وماتت بعدها بشهر.

هزّتني من جديد كلمة "سرطان"، ففهِمتني جود:

- ما علاقتك أنت! أنت طبتِ، خلاص.
- مسكينة العمة سويداء!
- طبعاً مسكينة، حمدتُ الله على أنّ ماما ماتت بعزّ! سويداء لم يستطيعوا دفنها بسبب القصف، دفنوها في



حديقة دار أخيها، وبعد أسبوع نقلوها إلى المقبرة، لقد ذاقت المرار، الذي يموت لا يجد قبراً. الناس يبحثون عن ستر جثث أهلهم كي لا تأكلها كلاب الشوارع.

أُغلق الخطّ، أشكر الله على سلامتهم، وأرمي كلامها في الدرج الخلفيّ لرأسي، وأتفرّغ لآلامي، كأنّني لم أعرف العمّة سويداء يوماً، ولم آكل من سكاكرها.

* * *

أنتظر الزيارة الدوريّة إلى الطبيب بقلق يعجز الوقت من الانتصار عليه. زنزانة الدكتور يعقوب صارت أكثر ألفة، وذاب الشمع من على وجهه، صار يضحك، نتحدّث لبعض الوقت، ننظر في وجوه بعضنا، ونخفي سؤالاً عالقاً في زاوية ما، ينتظر دوره للمرور، ولا نتحدّث عن هانية، وكأنّها ليست موجودة في عالمنا. اللّحظات الأولى للزيارة هي الأشدّ حدّة، ينظر في تقرير الصورة الطبقيّة على شاشة الكومبيوتر أمامه، وندخل معاً أنا وهو في لعبة "روليت روسيّ". في يديه المسدّس المحشو بطلقة في واحدة من الحجرات الست، يدوّر الأسطوانة، وأنتظر ألاّ تخرج الرصاصة من بيتها فتقتلني، يقول لي: الفحوصات سليمة، فأكسب الجولة، لكنّني سأصير رهينة لهذه المقامرة مدى الحياة، كلّما جاء موعد الزيارة، بعد شهر، بعد ثلاثة، بعد ستّة، سأدخل مع يعقوب في جولة "روليت روسي" جديدة.



جاء رمضان، سأصوم من جديد، لم أتمكّن من الصيام في رمضان الماضي، لأنّني كنت تحت العلاج. وصل أولاد ناصر الثلاثة من أميركا ليقضوا معه شهر الصيام، كان منهمكاً في تحضيرات استقبالهم، طلبت إليه أن يأخذ "تامي" لتعدّ لهم كلّ شيء. لم أعد أحتاجها، تمنيت لو أنّني قادرة على مساعدته ومشاركتهم الاحتفال. فضّلتُ أن أبقى بعيدة، أنا بعيدة فعلاً، هم عائلة، من أنا!

اعتذر ناصر عن اضطراره للانشغال بهم، رجوته ألاّ يفعل، فأنا التي عليّ أن أعتذر كلّ لحظة عن إشغاله بمرضي وهواجسي وآلامي، لن أطمع بالمزيد، هذا القدّيس قدّم لي ما عجز عنه أبي. أريده أن يكون أسعد رجل في العالم، وبالطريقة التي يختارها، وأنا سأكتفي بجسدي الذي يتعافى.

رغم وحدتي استأنست برمضان، بعد العصر فتحت الفيسبوك، لم أفعل ذلك منذ أربعة أشهر، فليس لديّ من أهتمّ بالتواصل معه سوى أهلي، الذين انقطعت عنهم خدمات الإنترنت وقتها، كما أنّ ناصر كان يتوسّل إليّ ألاّ أسمع أخبار البلاد، ومناوشات مراهقي السياسة على الصفحات الإلكترونيّة. تصفّحت قليلاً، مررت بعبارة لواحد من شباب الرقّة، تركتها لثانية، ثمّ عدت إليها، استوقفتني حروف مألوفة فيها: "اختطاف المهندس سهيل بدران من أمام منزله"! أعرف أنّها لم تكن مزحة، بل حدثاً أكيداً، ومتوقّعاً.



قالت سلمى: أخذوه في سيّارة زجاجها مظلّل، من أمـــام البيت، رآه أحد الجيران، فأشار إليه أنْ يخبّر البيت. كانت الساعة في حوالي السابعة مساء، اتصلوا بعد منتصف اللّيـــل، وطلبـــوا خمسين ألف دولار فدية.

سلمى وجود كانتا قد استقصيتا عن حـــالات الخطـــف المشابهة، والأقرباء شكّلوا ما يشبه خليّة للأزمة، حدّدوا الجهات الممكنة، وبدأت الوساطات العائليّة. حين تمكّنت من التواصل مع سلمى كان عقلي قد رسم الســـيناريوهات المحتملـــة جميعهـــا، واستسلم لقسوة قدر هذه العائلة التراجيديّـــة. أختـــاي كانتـــا قويّتين، وطلبت إليّ جود أن أتماسك، فالمسألة لن تأخـــذ وقتـــاً طويلاً. شعرت أنّها مطمئنّة على غير عادتها في مواجهة المصائب. سلمى أعلنت أنّها ستغامر بحياة بابا، وأن تتمهّل في دفع الفدية، وقرّرت التفاوض مع الفصيل المتطرّف الذي استوثقنا من هويّته.

لم أتّصل بناصر، تركته يـــنعم بأحضـــان أولاده، ألقيـــت جسدي على الكرسيّ ذاته الذي استقبلت به خبر ثبوت مرضي قبل سنة ونصف، وضعتُ يدي عل خدّي، وأضـــأت شاشـــة الماسنجر أنتظر خبراً. الحزن أيضاً يحتاج إلى طاقة، وأنا لا أملكها لأتألّم، لقد استنفد السرطان طاقتي كلّها. بقيت على حالي حتّى الصباح، أستقبل صورة بابا وأودّعها. ذلك المهنـــدس العظـــيم، النقيّ، الأنيق، النبيل، الذي وقف وحيداً مثل صفصافة، تظـــلّ الجميع، ولا يسندها أحد. ماذا يفعل الآن بين أولئك السفّاحين،



والعصابيين، والحاقدين، الذين صاروا يحكمون جزءاً من البلاد بشرع وهميّ، ويقتلون بشرع وهميّ، وتغيب الدولة تماماً بشرعها الوهميّ، الدولة التي لحم أكتافها من خيرنا نحن المواطنين. بنيناها بالحبّ، والعرق، والحرمان، والأحلام، واختفت في غضون أيّام. عدتُ إلى أيام كان يحملني صغيرة ونغنّي معاً "سالمة يا سلامة"، و"ون واي تيكيت"، و"سوريّة يا حبيبتي أعدْتِ لي كرامتي، أعدْتِ لي هويّتي. تم تتم تتا...". بعدها يحدّثني كيف غيّر هنري فورد وجه العالم، بناء على احتياجات الناس، قال: لو سألت الناس ماذا يريدون، لقالوا لك خيولاً أسرع!، وبعدها قال لي إنّ أجمل ما تنتجه الحرب، الرومانسيّة ورقصة الفالس. رأيته يفرد مخطّطاته، ويحدّثني عن منتجع سياحيّ على النهر، و"كامب" صغير لعمّال النفط، وبيوت صحيّة لمحدودي الدخل، وهنا حزام أخضر يمنع العجاج. عمارته كلّها صديقة للبيئة ونظيفة، أنظف من أن يحتملها الزمان الذي عاش فيه.

قلت لسلمى: أرجوك، ادفعي لهم ما يطلبون، سأرسل لك كلّ ما تحتاجين. "جون" سيحوّل لي أيّ مبلغ ناقص. طلبت إليّ أن أهدأ، وقالت إنّني بعيدة، وأجهل الأعراف التي باتت متّبعة، فالعالم في الرقّة الآن، ليس كما تركته قبل ثلاث سنوات. قالت إنّ الله لن يتركنا. وأنا أكّدت لها أنّه لن يتركنا.

الخبر الذي جاء بعد ثلاثة أيّام أشار إلى أنّ بابا بخير، وأنّهم قد أحضروا له أدويته اليوميّة، الخاصّة بالقلب، وذلك منحنا



فرصة أكبر للثبات. بعد يومين سمعت سلمى صوته عبر الهاتف، كان قويّاً في أوّل كلمتين، ثمّ أجهش بالبكاء. الرجل الذي تناول منه السمّاعة وكلّمها بلهجة سعوديّة محوّرة، قال إنّها إن لم تدفع المبلغ المطلوب سيقطعون لسانه. تخيّلت عذاباته، تخيّلته يحدّثني بلا لسان، كيف سيقول: جمان، سورية، أخلاق الفرسان، حبيبتي، لا يصحّ إلاّ الصحيح....

سلمى تؤكّد أنّها حرب أعصاب، وإنّ الذين يطلبون المال، يحرصون على حياة ضحيّتهم، ويَقبلون أخيراً بأتفه مبلغ ممكن. أنا أعرف أنّ سلمى قويّة، لكنّني لم أتخيّل يوماً بأنّها قادرة على مفاوضة أخطر جماعة إرهابيّة في العالم، بأعصاب باردة! أوصلت المبلغ إلى خمسة عشر ألفاً، قالت للمفاوض من طرفهم إنّنا لا نملك غيرها، صرفنا مالنا على علاج أمّي التي ماتت بالسرطان، ثمّ علاج أختي المصابة بالمرض نفسه. قال لها لديكم أملاك كثيرة، قالت له: تعال وخذها. حدّدوا موعد التسليم، وطريقته. قبل الموعد بساعتين كان بابا قد عاد إلى البيت بهيئة مزرية، ذقن طويلة، ووزن أقلّ، لكنّه كان سليماً معافى. هذه المرّة جود هي التي كانت وراء عودته المظفّرة، قالت إنّ شخصاً يعمل معهم في المطبخ الإغاثيّ، ساعدها في تحريره، لكن علينا أن نبقي الأمر سرًّا.





حينما اشتدّ القصف على المراكز الكبرى للدولة الإسلاميّة في الرقّة، والتي هي عبارة عن مدارس، ومباني دوائـر الدولـة الرئيسة، والفيلاّت الفخمة في الأحياء الجديدة، انسرب المقاتلون وعائلاتهم إلى الأحياء داخل البلد القديمة، واقتحموا بيوت الناس، ليقيموا فيها. كان القصف الجويّ قد شرذمهم. قالت سـلمى: طُرق الباب في المساء، فتحت، وإذ بامرأة طويلة بـرداء أسـود ونقاب، واجهتني بالرشاش الذي في يدها. جفلت، أرخت نقابها، فتأكّدت من أنّها امرأة، وعربيّة، خلفها رجل أحمر، شيشـانيّ، بلباس طالبانيّ يحمل طفلاً وبيده طفل يمشي. دفعـتني بفوّهـة السلاح، أردت أن أكلّمها، لكنّني لم أجد صوتي. بابـا كـان ورائي، طلب إليّ أن أتركهم ليمرّوا. بعد قليـل لحقـت بهـم عائلتان على نفس الشاكلة. حزمنا شيئاً من أغراضنا وخرجنا من بيتنا.

حيّ الثكنة، غرب المدينة حيث مكتب بابا، لم يكن حالـه أحسن، مع ذلك انتقل أهلي إليه. جود أكّدت أنّهم لن يطيلـوا المكوث في مكان مأهول بالأقارب، ومعزول عن قياداتهم. كان لدى جود معلومات تكتيكيّة غريبة عـن تفكيرهـا، وكلّهـا صحيحة، فقد خرجوا من بيتنا، بعد أن أحدثوا دمـاراً هـائلاً. كانت سلمى تحكي على التلفون وهي تضحك، وتردّد أنشودة مدرسيّة عن فلسطين، من كلمات سليمان العيسـى: وجـوهٌ غريبة.. بأرضي السليبة.. تبيع ثماري وتحتلّ داري....



أخذوا كلّ ما خفّ حمله وغلا ثمنه، كراسي الـــ "لــوي كانز" صارت في خبر كان، تفوح منها رائحة بــراز، وخزانــة الكتلة الوطنيّة تحوّلت إلى "نمليّة": زيت وزعتر، ومربّى، وفتـــات خبز. لكنّ الخراب الأكبر حلّ بممتلكات أولاد عمّي يوســـف، احتلّوا المستشفى العائد إلى ولديه الطبيبين، وأجبروا طاقمه على العناية بجرحاهم. صاح الدكتور عليّ ابن عمّي، والمختصّ بجراحة الأعصاب: ما نجا من تأميم الاشتراكيّة، أخذه الإسلام الجديد!




مكتبة
الفكر الجديد

ملح القراصنة




مكتبة
الفكر الجديد

لم تكن أختي سلمى تحبّ قراءة الروايات، لا سيّما العربيّة، وذلك الجفاء بينها وبين الرواية حدث نتيجة صدمة عاطفيّة مبكّرة، ففي صيف سنتها الثانية عشرة، أمسكت برواية نجيب محفوظ "خان الخليلي". كانت تقريباً الرواية الأولى التي أقبلت عليها بعد قصص الفتيان. أجهزت عليها بيوم واحد، وبقيت تبكي على مصير بطلها "رشدي" الذي مات بالسلّ، ثلاثة أيّام متواصلة، حتّى إنّها انهارت من النشيج، واستقبل بابا ردّ فعلها بعنف بالغ، في غير محلّه، قرّعها، ووصفها بالمجنونة، لأنّه عندما وجدها منهارة من البكاء، ظنّ أنّ حادثاً ما قد وقع لأحد أفراد الأسرة. بعدها قرّرت سلمى مقاطعة الروايات إلى الأبد. راحت تقرأ سير المشاهير، وقصص النجاح، واتجهت في فترة من حياتها إلى الاهتمام بالباراسيكولوجي. كبرت سلمى صبيّة جميلة، وجهها مدوّر، وشعرها كستنائيّ، وعيناها لوزيّتان عسليّتان، وبشرتها ذهبيّة، وكان أصدقائي يقولون إنّها نسخة مطوّرة عنّي، وطبعاً يبالغون، فهي أجمل بكثير! حينما تكون منهمكة في إعداد طبق طعام، أو تصفّح كتاب، أو مشاهدة برنامج تلفزيونيّ، أتأمّلها، وأعجب بها كثيراً، فكلّ تفاصيلها على أحسن تقويم، أنفها الكرويّ، وشفتاها الممتلئتان، وقوامها الأميل إلى القصر،



والمناسب لنعومة تكوينها، ورشاقتها، وخفّة دمّها، كنت أغبطها دائماً، وأسعد بأنّها شقيقتي.

سارت حياتها هادئة بلا مشاكل أو عقبات، وبلا أيّة تجلّيات مبهرة. كانت تحاول أن تحافظ على حضور قويّ، غير دعائيّ، وتنجح على مهل، وتخاف من الحسد. درست الاقتصاد، وتخصّصت في إدارة الأعمال في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وكان لديها طموح للنجاح في حقل العمل، فبحثت حال تخرّجها عن فرصة في الخليج، وجاءها ردّ سريع من شركة استثمار سياحيّة بريطانيّة، لديها مشروعات في "عُمان"، فسافرت من فورها.

لم يكن لسلمى مشاعر عاطفيّة عنيفة تجاه الآخرين، ولم يُعرف عنها أنّها أحبّت رجلاً ما، ما كان يربطها بالناس وجهات نظر لا عواطف، لذلك استطاعت النجاح في عملها، كضابط ارتباط بين الشركة التي تعمل فيها، والسفارات الأجنبيّة في مسقط.

المنعطف الأوّل الذي واجهته سلمى حتّى ذلك الوقت، كان وقوعها في حبّ قرصان، تماماً كما يحدث مع أميرات الحكايات، وأنا لم أكن أتصوّر إلى أن حكت لي أختي، أنّ ثمّة قراصنة على قيد الحياة.

ذهبت سلمى آنذاك في عمل لصالح شركتها إلى شبه جزيرة موسندم في إقليم صحار، والتي يطلق عليها أيضاً اسم جزيرة الزبد، بسبب ضربات الأمواج التي ترتطم بصخور شواطئها



شديدة الانحدار، مكوّنة زبد البحر، وهي أوّل أرض عربيّة تشرق عليها الشمس كلّ يوم. ما تزال الجزيرة منطقة بكراً، وقد أخذت شركتهم امتياز استصلاحها سياحيًّا، إذ كانت محميّة عسكريّة مغلقة حتّى سنوات قريبة، وذلك لقربها من شواطئ إيران التي تبدو مثل خصر يستقبل خنجراً عربيًّا على بعد أربعين كيلو متراً.

قالت سلمى إنّها حين تأمّلت المشهد أدركت خديعة المسافات!

قالت أيضاً: لم يكن هناك مرافق سياحيّة، فاستأجرنا بيوتاً صغيرة بيضاء عند أقدام الجبال الشاهقة، تشبه شاليهات البحر، وتعود لسكّان محلّيين، على مقربة من الميناء البدائيّ، الذي ليس أكثر من رصيف متحرّك ترسو عنده قوارب بخاريّة لمهرّبين بين موسندم والشواطئ الإيرانيّة. المكان على فطرته ساحر! شواطئ ذهبيّة عذراء ممتدّة، ووراءها باتجاه اليابسة أدغال النخيل المهيبة. البحر الحبريّ يروغ ضيّقاً بين الجبال، ثمّ ينفتح نحو أفق متكاثف باتّجاه المحيط، عالم لا يمتّ للمتوسّط بصلة قرابة. من على الشاطئ يمكن لشفافيّة الماء أن تفصح عن أسماك ملوّنة تعوم بمرح، حمراء، وذهبيّة، وكذلك كائنات لم أعرف ماهيّتها بالضبط، أهي سلطعونات أم سحليّات ماء ببطون زرقاء وورديّة، تخرج جماعات إلى الشاطئ المخضرّ من كثافة الطحالب. في ذلك الهواء النظيف الذي لا رائحة له، ولا رطوبة ضاغطة، بل بخار كتله موزّعة بطريقة إلهيّة مريحة، اشتهيت الماء، ولم تكن السباحة ممكنة، فلا شواطئ مُعدّة، ولا سبّاحين، ولا نساء عاريات، بل



بضعة أطفال بدشاديشهم البيضاء، وبنات صغيرات بأثواب مزركشة، تختفين خلف عباءات أمّهاتهنّ السوداء، اللّواتي يحملن قففاً من القشّ فيها أسماك وخضراوات.

قلت لنفسي أتنزّه في الماء، ولا أبتعد عن الشاطئ، مستخدمة طَوف أحد المهندسين الذين كانوا معنا. طَوف أو فرشة بحر منفوخة برتقاليّة اللّون، أصغر من التي نرميها في مسبح بيتنا. أتمدّد عليه ببنطلوني الجينز الذي كنت قد قصصته إلى ما فوق الركبة، وتي شيرت أبيض، ولا شيء آخر. دخلت في الماء، واستلقيت، ونظري غائب في الزرقة التي شعرت أنّها أبديّة. قضيت وقتاً في هذا السكون الجبّار، وأغمضت عينيّ، وغفوت لما ظننته لحظات، كنت ما زلت أتهادى فيها قريبة من الرصيف، لكنّ الوقت كان أطول من ذلك، لأنّني حينما فتحت عينيّ كنت في عرض البحر، متجاوزة الممرّ الضيّق المحاط بالجبال القريبة. دخلت عالماً من القلق المتجاوز إلى حدّ الخوف، الشاطئ اختفى وراء المضيق، وليس حولي أي أثر لبشر، لا سفن، ولا حتّى جزر قريبة، ولا أحد يعرف بمكاني أو سيشعر بغيابي. استسلمت لنهايتي التي باتت قريبة، إمّا فريسة لكائنات البحر المتوحّشة وإمّا الغرق. وبدأت بالابتهال والدعاء، معرضة عن الجمال الفريد الذي أُبحر في قلبه. لم يكن ثمّة أمواج تدفعني، فالبحر ساكن، ولسنا في وقت الرياح الموسميّة، إلاّ أنّ طيور السماء حلّقت على ارتفاع منخفض، كانت كبيرة، صقوراً على الأرجح، لكنّها تجاهلتني،



وما أن تنفّست الصعداء، حتّى شعرت بحركة مائيّة قريبة من حولي، وتقافزت الدلافين التي لم أرها قبل ذلك إلاّ في مجلاّت ناشيونال جيوغرافيك التي كانت تصل إلى بابا بانتظام من أميركا. كنت أعرف من قراءاتي فيها أنّ الدلافين صديقة، لكنّها ستقلب الطوف الذي أستلقي عليه، وسيحدث معي كما حدث مع سيّدنا يونس، سيبتلعني الحوت، لذا هرعت إلى دعائه الذي تردده جدّتي دائماً: "لا إله إلاّ أنت، سبحانك إنّي كنت من الظالمين!". يبدو أنّ حركة الدلافين كانت بشارة الخلاص، إذ حرّضها قارب كان يندفع عكس اتجاه الشاطئ، من الشمال إلى الجنوب، فتتقافز من حوله. وصل صوت محرّكه إليّ فتهلّلت، وصرت ألوّح بيديّ حتّى كدت أنقلب إلى الماء الذي تحتي. كانت سفينة تقليديّة قديمة بأشرعتها المثلّثة، لكنّها بمحرّك بخاريّ، وبدأ الكرب ينجلي. أُطفئ المحرّك، واقتربت السفينة منّي وعلى متنها رجلان، مدّا أيديهما ليتناولاني، لكن لم يكن لديّ قدرة على التسلّق، ارتخى جسدي بعد أن اطمأنّ لحتميّة إنقاذه. أحدهما مدّ لي سلّماً من حبال، صعدت عليه، وتلقّفني الآخر، وصرت على ظهر المركب.

- أوووووو! الحمد لله على السلامة، كيف لم تخبرينا بهذه الحادثة، لقد كتب الله لك عمراً جديداً!

ومضيت في توبيخها: كيف تتهوّرين، كيف تلقين بنفسك إلى الموت....؟



وقتها ابتسمت ابتسامة المنتصر. كانت فخورة بنفسها، إذ تعلم أنّ أحداً منّا لن ينال في يوم ما حظوة مغامرتها تلك.

قالت: هنا تبتدئ الحكاية يا ست جمان! كنت متماسكة حين جلست على الدكّة الخشبيّة، أحاول تنسّم ريح الحياة من جديد، لكن بعد قليل انخرطت في البكاء، وذلك حين وجدت نفسي وحدي مع رجلين غريبين في البحر.

سارع الأصغر بينهما، والذي لا يبدو أنّه تجاوز الثامنة عشرة إلى داخل القمرة. كان مفتول العضلات، أسود البشرة، وله حلاقة شعر غريبة، كنجوم كرة القدم، صواعد ونوازل في شعره الأجعد. يرتدي شورت جينز مثل الذي أرتديه، وفوقه تي شيرت أخضر ممزّق، ويرتفع فوق البطن، كتب عليه بالأصفر: peace!

بقي الرجل الآخر واقفاً قبالتي، صامتاً، حائراً ببكائي. كان في حوالي الخامسة والعشرين، ليس أكثر من ذلك، وربّما أصغر منّي بقليل. طبعاً هذا ما بدا لي من نظرته، لأنّ جسده كان أكبر من ذلك بكثير. بشرته خلاسيّة، وعيناه رماديّتان شفّافتان، كعيني قطّ متوحّش. عضلاته نافرة، تكاد تخرج من جلده الصقيل. كان عاري الصدر إلاّ من شعيرات متفرّقة، وجذعه السفليّ ملفوف ببقايا دشداشة بيضاء، بدت كوزرات البحّارة العرب، وشعره المنسدل الأسود، تختفي جذوره تحت شال عُماني أحمر مزركش بنقوش الكشمير الصفراء.



حاولت أن أسكت نفسي، لكن حينما تفرّست في وجهه عاودتني نوبة البكاء، وخفت من الاغتصاب، والإيدز، والتعذيب...

فأدار محرّك القارب، وعبر الماء باتجاه المضيق. لحظات التفّ فيها حول الجبل، فبان الشاطئ الذي انطلقت منه. أطفأ المحرّك، وقال بالإنكليزيّة: اهدئي، إنّك قريبة من البيت، لقد انطلت عليك حيلة الطبيعة، الشاطئ هنا مجرّد رصيف ضيّق مغمور بالماء، بعدها تنزلين إلى هوّة سحيقة. هذه الأعماق ليست متدرّجة كما هي في المتوسّط الذي أتيتِ منه.

- ما أدراك أنّني متوسّطيّة.

- الوجوه لا تكذب!

عاد جعفر الشاب الآخر بأكواب شاي تفوح منها رائحة الهال والمطيّبات الاستوائيّة، فناولني "إبراهيمو" الكأس وقال: ستشعرين بتحسّن، هذا شاي عُمانيّ.

كان طعم الشاي لاذعاً، شعرت براحة، لا سيّما حين وسمه بالعُمانيّ.

- هل آخذك في جولة أم أذهب بك إلى الشاطئ فوراً؟

وبدلاً من أن أنجو بنفسي، اخترت التجوال مع الغريب!

* * *

انطلقت سفينتنا السندباديّة، تمخر البحر مثل سيف يشقّ الماء، لا زبد ولا قشور، ليس غير الزرقة الداكنة، وكنت مثل من



أغمض عينيه لثلاث دقائق، فانتقل بإكسير سحريّ ثلاثة قرون إلى الخلف، ولولا الموتور الذي يختفي في علبة خشبيّة، لما وجد أيّ دليل للحداثة في هذا العالم، الذي اقتصر على ثلاثتنا. قال إبراهيمو الذي لا يعرف من العربيّة غير بضع كلمات، إنّ جدّه كان برتغاليّاً، ولد على سفينة من أسطول جاء غازياً لشواطئ زنجبار في القرن التاسع عشر. وقعت السفينة في أسر قراصنة عرب، لم يقتلوا الوليد الذي ربّته امرأة فقيرة من قبيلة المهرة العربيّة، كواحد من أبنائها. لّما شبّ عشقته إحدى سليلات القبيلة الحاكمة، أغواها شقار شعره وزرقة عينيه، فتزوّجته وهربت به إلى مومباسا. عاشا هناك من تجارة البحر، فولِد أبوه تاجراً، وتزوّج بامرأة من مومباسا، رسّامة شهيرة، تلك التي صارت أمّه. درس إبراهيمو في معهد مهنيّ لصناعة السفن، أمّا جعفر، فيدرس الأدب الإسبانيّ في جامعة دار السلام الوطنيّة في تنزانيا.

بعد أن روى لي ذلك كلّه سألته ببلادة، ببراءة ربّما:

- هل أنتم قراصنة؟

ضحك إبراهيمو، فبانت أسنانه المنضودة كلؤلؤ، فاتضح اللّون الورديّ لشفتيه:

- هذا ما يقوله عنّا أهل الشواطئ، ويرعبون به أطفالهم!

سرت في بدني رعدة خوف موروث، سرعان ما بدّدها نظّارة الـ (فورد) التي وضعها على عينيه، فتأكّدت من أنّني



لست في حكاية من حكايات التاريخ. كنّا قد وصلنا إلى مجموعة من الجزر المتّصلة، التي سنرسو على إحداها:

- هل فيها سكّان؟
- طبعاً، صيّادون وتجّار، وهناك - حيث أشار بيده- جبال إيران، إنّها قريبة!

وتبدّت أمامنا مرتفعات جبليّة كأنّها انبجست من قعر البحر الساكن، قال:

- هذه جزيرة ميمزر، سكّانها عرب، وفيها الكثير من السحرة...

لكنّ المكان لم يبدُ لي سوى كتل صخريّة مصمتة:

- أين يعيش السحرة؟!
- هذه منازلهم، الجبال! بيوتهم ليست مفتوحة على البحر، الأبواب والشبابيك من الجهة المقابلة، إلى الداخل.
- ههه! هل ثمّة بلاد بحريّة تدير ظهرها للماء؟!
- أرادوا اتّقاء القراصنة والغزاة، ففتحوا منافذهم على الداخل، بحيث تبدو للمقبلين جبالاً لا بشر فيها، وأشاعوا أنّ السحرة أخفوا المكان وقاطنيه....

اقتربنا لنرسو، فدخل إبراهيمو القمرة، وخرج بمظهر آخر، يفوح منه عطر حاد من العنبر، وعليه شورت مشجّر بنقوش هاواي الزرقاء، وقميص من الكتّان الأبيض الناصع، بكمّين طويلين، وقد طرح الشال عن رأسه، فتجلّى شعره المسترسل



حتّى كتفيه، والذي يبدو أنّه ورثه عن جدّه البرتغاليّ لا عن جدّته الإفريقيّة.

نزلنا، وقال: لنتجوّل في الجزيرة قليلاً، فعاودتني الرهبة، وأفكار سوداء كثيرة، وسيناريوهات هوليوديّة، بدّدها صوت الأذان الذي تردّد من حنجرة حيّة، بلا مكبّرات صوت، فسكنني إحساس بالجذل والطمأنينة، ونسيت أنّني جئت من عالم فيه دمار، وقتل، ونشرات أخبار صاخبة. صادفت ولداً يركب حماراً أسود ببردعة، فانتابني فرح مضاعف، وتذكّرتك!

- بسبب الحمار!

كنت تحكين عن الفرق بينه وبين الحصان، بعيداً عن سمة الصبر أو البلادة أو الذاكرة، قلتِ: لا تكوني كالحمار، فهو سريع الامتثال، ولا يتردّد في منح ظهره للجميع، يركبه الراكب، فيحرّكه بنقرة عند الرقبة، ويوقفه بنقرة مثلها. أمّا الحصان فلا يمنح ظهره إلاّ لصاحبه، ولا ينطلق إلاّ بجهد، ولا يتوقّف إلاّ بجهد، ويتطلّب لأيّة حركة فروسيّة أصيلة!

قال لي جعفر إنّ العبيد الذين كانوا يُشترون من إفريقية الشرقيّة، يجمعهم التجار هنا في هذه الجزر، قبل وصولهم إلى شواطئ الخليج، وكانت هنا حيث نقف، أسواق نخاسة عامرة. مررنا ببناء كبير، مثل قلعة عمانيّة تقليديّة، فقال: هنا في هذه الأقبية، يتمّ عزل العبيد المرضى، وحرقهم. تردّد صدى كلماته في الفضاء، وأصابني بقشعريرة مزعجة، فانكمشت، وتراءت لي



لوحات (ماتيس) في الكتاب الذي حملتِه من باريس في أوّل رحلة لك إليها. رأيت طقوس النخاسة، والأرواح الذليلة، والأجساد الفاتنة، والمقرّحة من الأمراض، وضرب السياط، وأردت العبور إلى طريق آخر، فاستمهلاني قليلاً ليقيما صلاة الظهر، وقد ترك لي جعفر ثمرة بابايا، وثمرة جوز الهند، التقطهما طازجتين وقشّرهما. أراحتني صلاتهما من وطأة الهواء الثقيل المسكون بأرواح الضحايا، ودموعهم، وهمهماتهم.

غادرنا. كان جعفر قد أعدّ عدّة الغداء، وبدأ إبراهيمو بالطهو، قال إنّه سيذيقني أطيب طعام سأعرفه في حياتي على الإطلاق، وهذا ما كان. حقًّا استطاع أن يحطّم أسطورة ماما في الطبخ! طبخَ الأرزّ بحليب جوز الهند والكاري، ووضع فوقه الصلصة التي طبخ بها ثمار البحر، والمكوّنة من شرائح البصل مع عصير البندورة، ومسحوق الذرة، وبعد أن رقّدها في طبق من الميلامين الأزرق والأبيض، صفّ فوقها الكلماري، والجمبري، وبلح البحر، وسمك الكينغ المقطّع، وجاء بمطربان زجاجيّ مربّع صغير، فيه قطع من البلّور الشفّاف الملوّن بألوان مائلة إلى الوردي والأزرق والأصفر. أخرج بلّورات قليلة ونثرها فوق السمك، ودعاني إلى الطعام. أمسكت المطربان بيدي، وحرّكت البلّورات، فأحببت تماوج لونها، وأنا لا أكفّ عن عبّ رائحة الطعام المشهّية:

- ملح هرمز، ملح نفيس، يمنح السمك طعماً ممتازاً، هيّا جرّبيه...



والله يا جمان، كانت الأشياء تكتب تاريخها من جديد بطريقة إبراهيمو الهادئة والواثقة، مشتبكة بمصيري الشخصيّ. حتّى الملح، ما هو الملح سوى ذرّات كلور الصوديوم البيضاء التي تتكتّل مع الرطوبة، أو أخرى خشنة تغرف منها ماما بملعقة الخشب لتصنع المخلّلات! لكن مع إبراهيمو صارت للجزيئات رواية أخرى، ووجهات نظر أخرى.

وجلسنا نتحدّث ونفتح قلبينا للبحر والريح...

كان الرجل الأقرب إلى حقيقة الحياة، بلا أقنعة، بلا بهرجة، يضحك بلا حسابات، ويقطّب بلا ادّعاء، وله جمال الحيوانات المتوحّشة وفطرتها، ومعه أسقطت كلّ ما تعلّمته من نظريّات الاقتصاد، معه حاجات الإنسان تنتهي، وموارده غير محدودة، وهو رغم قوّته الراسخة، فيه هشاشة غير ملموسة، لها علاقة بأصوله ربّما، لا أعرف كيف أسمّيها!!

- تقصدين.. جرح اللّون، السواد؟!
- تماماً، دائماً لغتك هي الأعلى يا جمان.
- لا أعتقد أنّ لديه مثل هذه المشاعر، هذا في خيالك فحسب، موروثك الفكريّ، الصياغة المتعالية الإمبرياليّة التي تمّ تلقينك إيّاها في الجامعة الأميركيّة!
- ههههههه...

قال إبراهيمو إنّ عليه أن يعيدني إلى صحار، إذ يخشى أن ينحسر المدّ سريعاً، فتنغرس السفينة في الرمل، فيصعب عليّ



المرور إلى الشاطئ. لماذا على الجمال أن ينقضي هكذا سريعاً! ولماذا حينما تسري روح الألفة بيننا وبين الأشياء نبدأ بفقدها؟!

عموماً، لم تنته حكايات إبراهيمو بإعلان العودة، فحينما قام ليدير المحرّك، شعرت بأنّني بحاجة إلى أن أضمّه، وكان البحر المشجّع الأكثر حماسة، ادّعيت بيني وبين نفسي أنّ عليّ أن أشكره لأنّه أنقذ حياتي، ولأنّه عرّفني على هذا الجمال كلّه، ولأنّني مضطربة في عرض المحيط الهنديّ، المهم كان لديّ مسوّغاتي الكثيرة لأضمّه إليّ، فاحتضنت خصره من الخلف، وألصقت وجهي بجلد ظهره البنيّ، فملأت أنفي رائحة البخور الحادّة، وكدت أفقد توازني. كان إبراهيمو ينظر نحو خطّ سير المركب، ولم يبد حراكاً، أعتقد أنّه لم يكن يريد أن يفزعني، واستفزّتني صلابته أكثر، ورغبت في أن يطوي جسدي، فأمعنت في دفعه نحو حافّة المركب، إلى أن استجاب لي، وأرخى جسده، وضمّني إلى قلبه، فسمعت طقطقة مفاصلي...

يااااه يا جمان، أرجو أن تحظي بما حظيت به! السواعد السوداء لا تشبه غيرها، أنضجتها الشمس، وصقلتها الريح الموسميّة، واحترق بها جسد أختك!

- السافلة طبعاً!

ضحكت سلمى، وبهتُّ من عمق إحساسها وجرأتها، وأردتها أن تتوقّف عن الوصف، ورحت أحاول أن أمنع خيالي من رسم صورتها مع رجل، إنّها في النهاية أختي، طفلتي الصغيرة البريئة!



أطلّ جعفر وهو يحمل آنيتين ملوّنتين في كلّ منهما قشّة للشراب، ناولنا إيّاهما. كانت الآنية نصف يقطينة مجفّفة، قلبها محفور، وعليها نقوش إفريقيّة تقليديّة ملوّنة بالأخضر والأسود والأحمر، فيها شراب المانغا المبرّد.

ما أردت أن أفارق إبراهيمو، تمنّيت أن أبقى في قبضتيه الآسرتين، وأن أسمع المزيد من حكاياته الملوّنة بألوان السحر والخوف والأشواق. أمضينا بقيّة الوقت في أحضان بعضنا البعض، نتأمّل من حولنا البحر وطيور النورس، وجعفر متشاغل عنّا بترتيب المركب.

قال إبراهيمو إنّه ليس في متناوله شيء ليهديني إيّاه، وبلا تعمّد وقعت عيني على اللؤلؤة البيضاء التي تتدلّى من رقبته، معلّقة بخيط أسود، كبيرة الحجم بشكل مبهر، ولها شكل إجاصة، بل شكل الأجنّة المُجهَضة، ومن فوره أمسكها وقال بحزم: لا يمكنني إعطاؤك إيّاها، إنّها هديّة من حوريّة البحر. تحميني من الأهوال.

وكان عليّ أن أصدّق الحكاية مثلما صدّقت ما حدث لي منذ أوّل النهار:

كان وجعفر يغوصان في أعماق قريبة، يصطادان المحار، وفي واحدة من الجولات، وجدا أجمة مرجان، فهرعا إليها. قال: ما أن وصلنا حتّى وجدت جعفر قد شرع يسبح نحو السطح بحركة مباغتة، بلا أدنى إشارة، التفتّ إلى يساري، وإذ بامرأة بيضاء جاثمة وراء شعبة المرجان الأحمر، شعرها من لونه، وتحاول تخليص



يدي وليدها العالقتين بين أذرع المرجان المتشابكة. تماسكتُ، واقتربتُ منها، وكان طرفها السفليّ ذيل سمكة فضيّة. قطعت بسكّيني أذرع المرجان، فسحبت الجنيّة طفلها، وأنا أتحاشى النظر إليهما، حدث ذلك في دقيقتين أو ثلاث، وبعد أن أنهيت مهمّتي صعدت إلى المركب. كان جعفر ينتفض من الزعب، وقد انعقد لسانه. وبينما جلست أنا الآخر لألتقط أنفاسي وأتمكّن من التفكير بما رأيت، كانت يد بيضاء صغيرة قد خرجت إلى السطح، ورمت لي هذه اللؤلؤة النادرة، التي لا يجود البحر بمثلها كما قال لي تجّار الشواطئ. لا أستكثرها عليكِ، لكن أخاف إن منحتك إيّاها أن تغار جنيّتي فتؤذيك...

قلت له:

- هل عليّ أن أصدّق حكايات الحوريّات؟

- أنت حرّة في ذلك.

كان على يقين تام بما حدث معه، وقد أحببتُ يقين هذا البطل، الطويل العريض، بحكايات الجنيّات، وأكثر من ذلك أنّني صدّقته، وأعطيته سلسلة الذهب التي تحمل "آية الكرسيّ"، التي أهدتني إيّاها ماما عند تخرّجي.

- قلت إنّك أضعتها، وجعلتنا جميعاً نحزن لفقد تلك التحفة المحفورة باليد، والتي أهداها جدّو لماما عند ولادتك! وحملت لقاءها مطربان ملح، وكأساً من اليقطين. مقايضة بائسة!



- لو أنّه طلب منّي الرحيل معه ساعتها لفعلت، وفكّرت: ماذا لو نزل إبراهيمو عن عرش البحر إلى اليابسة، هل سيفقد سحره وسلطانه؟! ولو ارتدى ثياباً عاديّة، بدلة رسميّة أو معطفاً شتويّاً، أيّ تحوّل سينتابه! وحاولت أن أتخيّل صورته طفلاً رضيعاً بحفّاضة وأوفرهول، ثُمّ ولداً في صفّه الأوّل الابتدائيّ، يراقب أمّه وهي تجلس إلى لوح الرسم. تمنّيت لو اقتنيت واحدة من لوحاتها ذات الألوان الحارّة، لو عرفت أكثر عن جدّه القرصان الأكبر...

- لم لم تسأليه عن ذلك كلّه، ما دمتما قريبين إلى هذا الحدّ؟!

- لأنّني ارتكبت خطأ فادحاً، وثقت بالوقت!

طلب إليّ أن أنتظره بعد يومين على الشاطئ، سيحمل لي شيئاً سأحبّه، وسيأخذني إلى أماكن لم يعرفها بَشَر... لحظة الوداع قبّلني في عنقي قبلة طويلة، وأتبعها بقبلات لاهثة متقطّعة. الشفاه العريضة الممطوطة لها وظيفة زائدة على وظيفة الشفاه عند بقيّة البشر، أثرها أبقى. شعرت بأنّ رحمي يهبط، وسائلاً يدفق بين فخذيّ...

وضعت يدي على فمي، وكتمت شهقتي، وصمتنا أنا وسلمى...

- وماذا حدث بعد ذلك؟



- لا شيء، أنت اتصلت بـــي في اليوم التالي، وقلتِ إنّ ماما مصابة بسرطان الكبد، وستموت بعـــد شـــهر، فحزمت حقائبـــي وعدت إليكم في حلب.

سكتنا لبرهة، تستعيد كلّ منّا بطريقتها تلـــك الأوقـــات الموحشة...

- أما من عنوان للسؤال؟

- لا، القراصنة لا عناوين لهم.

* * *

أنا على يقين تامّ بأنّ الساعات الأجمل التي قضتها سلمى في حياتها، هي ساعاتها مع القرصان إبراهيمو، ومنذ أن حكـــت لي حكايتها صرت أناديها بالقرصانة سلمى. في الحقيقة، أنا وبابـــا، عرفنا إبراهيمو شخصيّاً، لكنّنا لم نقل لها شيئاً، لم نرد أن نفطـــر قلبها. لقد زارنا إبراهيمو في حلب، بعد أن استقصى عن سلمى في الشركة التي عملت معها في مسقط.

جلس القرصان إلى مائدتنا، وقلنا له إنّ سلمى قد تزوّجت بعد موت ماما. وحتّى ذلك الوقت، وبالرغم من كلّ ما قالته لي عنه، كنت أتخيّل إبراهيمو رجلاً ضخماً، بلحية حمـــراء كثّـــة، وبرقعة جلديّة سوداء على إحدى عينيه، لكنّه كان أعذب بكثير ممّا وصفته، وفي غاية الأدب، وفي عينيه صبر الشراع على الريح، وكان ببدلته الزرقاء الـــ slim fit، والتي أجـــزم أنّهـــا بتوقيـــع



"آرماني"، مثل أمراء العرش الإسبانيّ لا مثل قراصنة البحار، وأعتقد أنّه من رحمة الله عليها أنّها لم تقابله بعد أن نزل عن عرش البحر كما قالت، وبعد أن سارت في دربها. طلبنا إليه المكوث في حلب قليلاً لنقوم بواجب ضيافته، لكنّه فضّل الرحيل لإتمام رحلته إلى إسطنبول، وسألني أن أوصل إليها هداياها: لوحة صغيرة بتوقيع أمّه التشكيليّة "مُلحة محمود"، فيها بيوت صغيرة يركب بعضها فوق بعضها الآخر، وكلّ بيت مشكّل بلون من باليت الألوان الأساسيّة، أحمر، وأخضر، وأزرق، وأسود، وبنفسجيّ، وأصفر، على ساحل داكن الزرقة، يعكس صورها على مائه، فتبدو مرسومة مرّتين، مرّة واقفة، ومرّة مستلقية على صفحة الماء. الهديّة الثانية كانت شمعداناً من المرمر الأزرق، برأس واحد، وقاعدة من البرونز المعتّق، منقوشة بوجوه صغيرة لاتينيّة الملامح. قال إنّه أحد الموجودات التي كانت مع جماعة من القراصنة، الذين هاجموا سفينة من أسطول كريستوف كولومبوس في القرن الخامس عشر، عند عودته من أميركا إلى إسبانيا.

* * *

حينما عادت سلمى إلى الرقّة بعد وفاة ماما، كانت البنوك الخاصّة قد شرعت تفتح لها فروعاً للمرّة الأولى في مدينتنا القصيّة، وتبحث عن موظّفين بمؤهّلات لائقة، وطبعاً لن يجدوا في



هذا المكان الموسوم بريفيّة مطعّمة ببداوة، أكثر أهليّة من سلمى، في علمها، وحضورها، وذكائها، فاختاروها مديرة لفرع البنك اللّبنانيّ السوريّ. كلّنا اعتبرنا ذلك حظّاً أصاب العائلة، ذلك أنّها ستبقى مع بابا، فتخفّف من ثقل الفراغ المرعب الذي تركه رحيل ماما، وفي الوقت ذاته يمكنني أن أستغلّ وجودها لأتنقّل بين حلب والرقّة لأغراض عملي الأكاديميّ، فأدرّس في الجامعة في حلب أيّاماً أربعة، وأقضي معهم الثلاثة الباقيات. بعد أقلّ من سنة على موت ماما عرفت أنّ سلمى تفكّر بالزواج. لقد حدث تقارب بينها وبين أحد العملاء الذين يتردّدون إلى البنك. مهندس زراعيّ تخرّج في جامعة دمشق، ورغم صغر سنّه الذي لم يجاوز السابعة والعشرين، كان قد كوّن خلال خمس سنوات من العمل في دبيّ ثروة معقولة. اشترى أرضاً على الفرات، وحوّلها إلى مزرعة للأشجار المثمرة، تفّاح، وخوخ، ودرّاق، وبنى فيها فيلاّ صغيرة، وحين تعرّف إلى سلمى كان يتابع معاملات قرض صناعيّ تقدّم للحصول عليه لإنشاء معمل للأجبان والألبان في هذه المنطقة الغنيّة بثرواتها غير المستثمرة بالشكل المستحقّ، بسبب إهمال الحكومة المتعمّد لها، لذلك يأتي اللبن من حلب وحمص فاسداً بسبب سوء النقل والتخزين.

كان "نسيب" ابناً لمعتقل سياسيّ سابق، من الاشتراكيّين، الذين سجنوا لمعارضتهم ضمّ حزبهم إلى أحزاب الجبهة الوطنيّة منذ السبعينيّات، لذلك حينما تقدّم لخطبة سلمى، تردّد بابا كثيراً



في مباركة الزواج. بابا يكره الإديولوجيا في نسختها العربيّة تحديداً! قال لسلمى: ستكون ظروفه صعبة بسبب إرث أبيه السياسيّ، وستقف فروع الأمن كلّها في طريق خطواته، لكنّها أصرّت على أنّ وضعه الأمنيّ ممتاز، وقد مكّنه من الحصول على تراخيص تجاريّة وصناعيّة، لا يستطيع غيره الحصول عليها، وأنّه عند الحاجة يدفع كثيراً. كنت أثق بقرارات سلمى العمليّة، وبصياغاتها الواضحة، وكذلك كان بابا، فتمّ الزواج.

عاشت مع "نسيب" حياة مستقرّة، وأنجبت بنتين خلال ثلاث سنوات، إلى أن حلّ الخراب بالرقّة. انسحب الجيش، ومظاهر الحكومة السابقة، ودخلت الجماعات المسلّحة التي انتهت إلى تنظيم الدولة الإسلاميّة في العراق والشام، الذي أرعب العالم، واتخذ من مدينتنا، ولاية الرقّة، على حدّ تعبيره، عاصمة له. استولى نفر من الهيئة الشرعيّة على فيلا سلمى ومزرعتها، وجعلوها مقرّاً لهم، فعادت مع أسرتها الصغيرة للعيش مع بابا، وكانت تواسي نفسها فتقول: في النهاية سيخرجون، لا أحد يأخذ معه جدراناً، وعوضنا على الله.

كان الجيش النظاميّ يرمي براميل متفجّرة على أماكن تجمّعات أفراد الدولة الإسلاميّة، ومقارّهم، وغالباً ما تخطئ تلك الضربات هدفها، فتقتل المدنيّين، لكنّها هذه المرّة أصابت مقرّ الهيئة الشرعيّة، بيت سلمى، والذي هو مركز اعتباريّ متقدّم للدولة الإسلاميّة، وسوّته بالأرض. تحمّلت أختي رزءها بقوّة، لا



أعرف كيف كان شكلها أو ردّ فعلها الحقيقيّ، فأنا بعيدة. كنت أقول لها على التلفون إن توافرت الاتصالات: إنّ الصحّة هـي الأهمّ! وأعرف أنّها كانت تنظر إلى مرضي، وتحمد الله، والغـل يتقطّر في قلبها من الذين كانوا سبباً في خراب بيتها.

"نسيب" كان يحسب خساراته، لقد تحوّل فجأة من شاب يفوق أقرانه، يملك الكثير، وتضحك له الدنيا كلّ يوم، إلى ربّ أسرة، وأب لبنتين، لا يملك شيئاً. ظلّ صامتاً وقتـاً طـويلاً، ثمّ قرّر اللجوء، ونشبت حرب أخرى، لكن هذه المرّة كانت بينـه وبينها:

- سأموت هنا، ولن أتحوّل إلى لاجئة، أنا أعرف تماماً مغبّة اللّجوء. سيعود النظام، وسيُمنع اللاّجئون من العودة إلى بلادهم، واستعادة أوضاعهم السابقة.
- السويد تمنح اللاّجئين أوراق إقامة رسميّة، ولكلّ واحد عشرة آلاف يورو، تمكّنني من أن أبدأ من جديد في ظلّ الأمان والكرامة. هنا في الرقّة لا أحد يسأل عنّا، لا من قبل ولا من بعد، بل تركوا شرذمة من المجرمين يفتكون بأرواحنا كأنّنا قمل في الأرض، ثمّ يقصفوننا من فوق. سأذهب وأرتّب أمورنا، ثمّ تلحقين بـي مع البنتين.

اشترطت سلمى عليه أن يسجّل أملاكه، المعلّقة أصلاً بـين فكّي الشرع الجديد، باسمي البنتين. هكذا هي سـلمى، تُعمـل عقلها حتّى في الطريق إلى الهاوية.



سافر نسيب إلى مصر، وأبحر من الإسـكندريّة إلى ليبيـا، حيث اتصل بها قبل خروجه من هناك. بعد أربعة أيّـام كانـت البحريّة الإيطاليّة قد تعرّفت إلى أوراقه الثبوتيّة مـع مهـاجرين غرقى، قبالة سواحل لامبيدوزا...



فارس قلعة يوركشاير




مكتبة
الفكر الجديد

على عكس سلمى، كانت "جود" البنت التي لا يثق برأيها في البيت أحد. لقد أفسدتها عمّتي ليلى بتدليلها المتجاوز لها، فكلّما قرّعتها ماما، أو تشاجرت مع إحدانا، تنسحب إلى غرفة عمّتي ليلى التي تعيش معنا، وتبيت في سريرها. غرفة عمّتي مثل مغارة سحريّة، فيها كلّ شيء، مجوهرات ثمينة، ومرايا من بلاد بعيدة، وعطور باذخة، ومكاحل عربيّة، وكريمات مصنّعة محليّاً من الغليسيرين وعصير الليمون، وصور لها في فندق الملك داوود، حينما ذهبت مع والديها في رحلة مقدّسة للصلاة في المسجد الأقصى في العام 1960.

بسبب من هذا الدلال تأخّرت جود عنّا في دراستها. كانت تحبّ متابعة التلفزيون في مساءات الشتاء، ممسكة بسيخي نسج الصوف، وبكباكيب ملوّنة، مقلّدة عمّتي التي أحضرت لها خصيصاً أسياخ ثخينة من البلاستيك الأحمر. في السابعة من عمرها بدأت جود بحياكة كنزة من الصوف الأخضر لـ "ربيع الخولي"، المطرب اللبناني الذي كانت مغرمة به، تتابع أغنياته، وتعبّر عن افتتانها برموشه الطويلة وعينيه الخضراوين، اللّتين جعلتاها تختار اللّون الأخضر للكنزة. استمرّ العمل في حياكتها ثلاثة مواسم أو أربعة من الشتاءات، وقد صار لقطعة الصوف



شكل غريب، ممطوط، غير مؤطّر هويّة. كانت كنزة ربيع الخولي مثار تندّر الجميع في الحيّ، بسبب عمّتي ليلى التي نشرت خبرها بين الأقارب والجيران، وحين استطالت قطعة النسيج كثيراً، صارت عمّتي تقول إنّها أشبه بسروال داخليّ، فتبكي جود من الإهانة، وبكت أكثر حينما علمت أنّ حبيب قلبها ربيع الخولي، اعتزل الفنّ، ودخل إلى الدير، وصار راهباً. لكنّها سرعان ما قالت إنّه الآن سيحتاج الكنزة أكثر، لأنّ الأديرة غالباً ما تكون باردة، وأنّها ستظلّ تسمع أغنياته القديمة. ماما أشارت عليها أن تصغّر قياس الكنزة، لأنّ الرهبان لا يأكلون كثيراً، ويفقدون وزنهم، وكنّا جميعاً ننتظر أن يذهب أحد إلى بيروت، ليحمل معه كنزة ربيع الخولي التي اتخذت أخيراً شكل لفّاحة، وهذا أقصى ما يمكن لجود أن تفعله!

كانت لها آراء متطرّفة في الأشياء، فكانت تعرض عن شرب الحليب، لأنّه بول البقرة، ولا تعرف كيف يمكن للناس أن يشربوا البول! وحين أخذها فلاّح مزرعتنا ليريها كيف يحلب الضرع بعيداً عن البول، جلست تحت البقرة، التي بركت بدورها عليها، وكادت تقتلها، فاعتبرت البقر حيواناً مفترساً وقاطعت منتجاته إلى الأبد. وكانت تعتقد أنّها إذا ابتلعت بذرة برتقالة أو تفّاحة، أو عنبة، ستنبت شجرة في بطنها، وتخرج من فمها، وكانت حينما تفعل ذلك عن طريق الخطأ، تبكي وتؤرّقنا طوال الليل. أحبّت الموسيقى، ولم يكن في الرقّة معلّم واحد يمكن أن



يعلّمها العزف والنوتة، لكن كرمى لعينيها جاء لها بابا بمدرّس موسيقى من مدينة طرطوس، شاركه في تأسيس مركز صغير لتعليم العزف، وأعطاه شقّة صغيرة في واحدة من العمارات التي يملكها، ليقيم فيها. وكانت جود تدرس معه كلّ يوم ثلاث ساعات تقريباً، حتّى أتقنت الصولفيج، وانتقلت إلى العزف المتقن على الأوكورديون، وصار بيتنا منذ ذلك الحين صندوق أنغام، يتوقّف أمام شبابيكه العابرون، يستمعون إلى مقامات جود الشرقيّة في المقدّمات الطويلة لأغاني أم كلثوم، مع فالسات عبد الوهاب، وتانغو فريد الأطرش. نضجت شخصيّتها، وصارت أكثر مسؤوليّة وصفاء، ولا سيّما مع قراءاتها لسير الموسيقيّين العظام، فصارت ترنو إلى السفر إلى عواصم الموسيقى لتتعرّف إلى آثارهم عن قرب.

كبرت جود، وكانت، وفاقاً لمعايير الذوق التقليديّ، أجملنا. بيضاء ناصعة، طويلة، وممتلئة، وشعرها الأسود الكثيف يصل إلى منتصف ظهرها، ولها حاجبان مثيران، مزجّجان بيد الله، تحتهما عينان سوداوان، فيهما يقين بريء ومستفزّ كيقين الملائكة، ومنذ يفاعتها كان لها سمت النساء المتزوّجات، لكنّها كسولة، ومستسلمة، وجبانة، وأرأف بها من أن أصفها بالمعثرة، لكنها كانت كذلك. فما أن اطمأنّت لوجود هاني أستاذ الموسيقى في حياتها، والذي أدمنت العزف معه في حوارات موسيقيّة باذخة، جعلتنا نخشى من تعلّقها به كمراهقة، حتّى غادر. ذهب في



إجازة إلى أهله في طرطوس، وعلمنا أنّه هناك قد قتل زوجة أخيه، وقد يحكم بالإعدام! انهارت جود غير مصدّقة، وعادت إلى أحضان عمّتي ليلى، لكنّ عمّتي الخمسينيّة تركتها وهربت مع الدكتور صادق، الذي لم يكن طبيباً، كنّا فقط نناديه بالدكتور لأنّنا لم نجد لقباً يناسب تخصّصه، لقد كان مدلّكاً.

كانت عمّتي ليلى قد أصيبت بآلام في الرقبة والظهر، والمفاصل، وشخّص لها الأطبّاء آلامها بما يعرف بالمناقير، فوضعت حول رقبتها طوقاً طبيّاً، وخضعت لجلسات مسّاج يوميّة. المدلّك الوحيد الذي كان في البلد هو صادق، الذي لا نعرف إذا ما كان قد درس العلاج الفيزيائيّ في معهد ما، أو امتهنه بالتعلّم والخبرة، لكن كلّ من خضع لمسّاجه كان يقسم على أنّه ارتاح واستطاع نوم اللّيل، ولمّا كانت آلام رقبة عمّتي مبرّحة ولا يمكن احتمالها، كان لا بدّ لها من صادق، الذي يعدّ بنفسه الزيوت العطريّة التي يستخدمها في التدليك، وكانت رائحتها تسبّب دواراً واختناقاً لمن يعاني من حساسيّة أو مشكلة في الجهاز التنفّسيّ مثل بابا، فكان يغادر المنزل بمجرّد دخول صادق حاملاً حقيبته المعدنيّة الخضراء، محتفلاً بجسده المكوّن من مربّع كبير، يعلوه مربّع أصغر بمثابة رأس، فيما كانت عمّتي تستلقي في سريرها على بطنها، وتغطّي جسدها بدثار كبير جدّاً، وتستسلم لكفّيه بأصابعهما المسطّحة، وأظافرهما ناصعة البياض، وتبدأ بالتأوّه والصراخ، ونتحلّق حولها أنا وجود وسلمى، لنشكّل كتيبة حراسة، تهتمّ بعريها.



حين تزوّجت عمّتي خلسة به، استغرب بابا تصرّفها المباغت. قال إنّها لو أخبرته برغبتها في الزواج من صادق أو غيره، لما تردّد لحظة، فهي بالغة راشدة، ولها إرث كريم من والديها يجعلها مستقلّة ماليًّا. كان سيبارك زواجها، ويقدّم لها هديّة لائقة! لكنّ ليلى لم تبارح عادتها في تمثيل الأدوار السينمائيّة المثيرة، كان عليها أن تبقى تلك الأرستقراطيّة التي ستحبّ الرجل الذي لن ترضى عنه العائلة. لم تستطع أن تتقبّل أنّ الزمان الأوّل تحوّل، وكان عليها أن تهرب مع سائقها أو خادمها أو مرافقها، لذا هربت مع مدلّكها.

وجدت جود بعد ذلك نفسها بلا مصدر دائم للإطراء، وبلا من يتحمّل دلالها وكسلها. حاولنا إحاطتها بمحبّتنا واهتمامنا، لكنّها غرقت في أنانيّة مفرطة. حصلت في الثانويّة العامّة على مجموع أكثر من توقّعاتنا، ودخلت كلّية التعويضات السنيّة في جامعة حلب، حيث تتمّ صناعة المستلزمات المخبريّة لأطبّاء الأسنان. في الجامعة وجدت نفسها. كانت أخرى مختلفة، محبوبة من قبل الجميع، ومرحة، ومثابرة. كنّا دائماً نخاف ردود أفعالها: حين مرضت ماما، لم نعلمها بحقيقة مرضها، خشينا عليها من الصدمة، تركناها في عملها في الرقّة، وبقينا أنا وسلمى الصغيرة، التي جاءت من عُمان، نعتني بماما حيث مكان علاجها في حلب. قلنا لجود: لا تغلقي مخبرك، وتؤخّري شغلك، ستشفى ماما سريعاً، وسنعود إلى البيت. جود كانت تعرف أنّ ماما



ستموت، لكنّها تخادع نفسها بسلامتها، هكذا هي دائماً، تهرب من الواقع إلى النوم، أو إلى التجاهل، ولا تواجهه أبداً. وحين ماتت ماما، فكّرنا جميعاً بجود، واحتضنّاها، واطمأننّا إلى أنّها لن تنهار من الصدمة. نجح بابا في منعها من الزواج بشاب يدرس معها، كانت قد أحبته. كان ربيب أب غنيّ، صاحب وجاهة اجتماعيّة، يعمل مديراً لإحدى مؤسّسات الدولة التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعيّة، تعنى برعاية المسنّين وبالتكافل الاجتماعيّ، وكانت جود تقول: لو لم يكن نبيلاً لما أدار هذا الموقع الإنسانيّ، ولما عيّنوه أصلاً رئيساً له، وكان بابا يقول لها: الجزاء في هذا البلد ليس من جنس العمل بل هو عكس العمل. كان وجه بابا محتقناً حينما حكى مع جود في هذا الموضوع، فهو لا يحبّ فتح الملفّات القديمة، لقد عوّد نفسه على الصمت، يراقب انهيارات العالم من حوله مثل بوذيّ ينتظر السلام الموعود، ويهزّ رأسه وهو يجد تحليلاته المنهجيّة وأحكامه على البشر والظواهر التي يشتركون في تشويهها، تصيب ولا تخيب. حياديّ وصامت مادام العالم ينقلب بعيداً عنّا، لكن حين يقترب الخراب منّا، يتحوّل بابا إلى مقاتل عنيف ومنتصر دائماً. قال لجود إنّ الرجل الذي تتغنّى بنبله، والذي سيصير حماها، وجدّ أولادها، كان قد قاطع أباه الذي عاش متسوّلاً لصدقات أهل الخير، فكيف يمكن لمن نأى بحمل أبيه، فرماه في الطريق أن يحمي ضعفاء المجتمع كلّهم، ويضفي على حياتهم الأمن والوئام! كلّ ما في الأمر أنّ الوظيفة



شغرت، فرشّحه الرفاق في الحزب لشغلها، ونالها مثل أيّ منصب يناله حزبيّ في بلد يحفل بالمتناقضات. جود وقتها خرجت عن الحدود التي اعتدنا أن نقف عندها في خطابنا مع بابا تحديداً، أرادت أن تدافع عن حبّها، وطلبت إليه أن يكفّ عن احتكار أخلاق الفرسان، وسلبها من الآخرين، وازدرائهم، وتقييمهم على أنّهم رعاع: هذا مرتشٍ، هذا خائن، هذا بخيل، هذا متملّق....

حين سمع بابا إعلان الثورة المفاجئ، علا صوته، وبدأت كلماته تتداخل، وعيناه خرجتا من مكانهما وارتفعتا إلى وسط جبينه في مظهر مخيف. دفع جود نحو باب البيت بيده، وقال لها: هيّا اذهبي إليه، اذهبي إليهم، وعيشي في ظلّ التكافل الاجتماعيّ، فربّما يسكنك في الملجأ أو في الميتم....

فما كان من جود إلاّ أن تحرّكت بالاتجاه الآخر، نحو غرفتها وانهارت بالبكاء، ولا نعرف إن كانت قد تركت حبيبها مقتنعة بتقييم بابا أم ممتثلة لقراره.

* * *

مياه كثيرة مرّت تحت جسريّ الفرات، القديم والجديد، وحلّ الخراب بسبب الثورة وفوضاها، والقصف المستمرّ لأماكن تجمّع الفصائل التي تعدّدت، ولم يعد أحد يميز الداخل من الخارج، وأغلقت جود مخبرها، لأنّ المرأة لا تعمل، ولا تخرج من



البيت إلاّ بمحرم في شرع الحكومة الجديدة. كانت وحـــدها في البيت تعدّ العشاء، سمعت صفير صاروخ يعلو شيئاً فشيئاً، قرب الصوت، ولم يمكنها هول رعدة القضاء المحتّم مـــن النـــزول إلى الملجأ. التصقت بزاوية المطبخ بين الحوض وغسّالة الصحون، لو استطاعت أن تحفر الجدار وتختفي فيه لفعلت. لا تعرف إذا مـــا كانت قد صرخت أم لا، لم تسمع سوى صوت سكون، وأحد المارّة يصيح:

- بنت عمّي.. طيبين أم ميتين!

أدركت أنّها على قيد الحياة، وراحت في ضحك وبكاء...

عاد بابا من موعده لدى الطبيب، ومعه سلمى وبنتاها، كان في حالة ذهول إذ قالوا له في الطريق إنّ الصاروخ قد سقط حول البيت. كان زجاج النوافذ قد تحطّم، وتصدّعت جدران القصر، الصاروخ سقط فوق البقّالة المجاورة، على بعد عشـــرة أمتـــار. عشرة أمتار فصلت بين موت جود وحياها. لم تقل لأحد إنّهـــا كانت قد أرسلت محمود ابن الجيران إلى البقّالة ليأتي لها بعلـــب التونة للعشاء. محمود الولد الأحمر السمين، بأعوامـــه العشـــرة، تشظّى، ولم يعثر له على باقية. بعدها قالوا إنّهم قد عثروا علـــى رجله على بعد خمسين متراً، تعلو برج ساعة المدينة، البرج الذي كان فوقه قبل دخول المسلّحين، رجل يحمل شعلة تمثّل شـــعار ثورة الستينيّات. لم يعرف أبوا محمود لماذا كان ولدهما في البقّالة، وهو لا يملك قرشاً ليشتري به شيئاً، فالرواتب لم تصل منذ ثلاثة



أشهر! صاح منتحباً: يا الله! لم نقتل، لم نسرق، لم نقطـع رزق أحد، ماذا فعلنا؟ شربنا كأساً انتشينا بها، ولهونا مع بضع نساء، جعلنا حياتهنّ أفضل!

كنّا نحبّ محمود، وكان يحبّنا جميعاً، وكنت دائماً أسـأله: محمود، ما هي أمنيتك في الحياة؟ وكان يقـول: سندويشـة لا تنتهي، ومعها كازوزة لا تنتهي.

بعد الصاروخ، وضعت جود الحجاب، وقرّرت العمـل في المطبخ الإغاثيّ. وجدته مكاناً تصنع فيه شيئاً مهمًّـا، فتشـعر بالجدوى، وتحدث فرقاً. تساعد في إعداد وجبات للأسر المحتاجة، والتي غالباً ما انخرط أحد أفرادها في الفصائل المقاتلة ضدّ الجيش النظاميّ، والتي لم تعد وافدة بالضرورة، بل من المكـان عينـه، حيث جاع الناس نتيجة الفوضى والحصار والقصف المسـتمرّ. رفض بابا خروجها في هذا التوقيت الصعب، وتعاملها مع نـاس من مشارب مختلفة، وهم في معظمهم ليسوا من أهل البلاد، منهم متطرّفون، ومنهم عناصر من التنظيم المسلّح، شيشان وأفغـان، وتونسيّون، وسعوديّون، أولئك يجب ألاّ يـروا جـود، فثمّـة اختطاف، وسبـي، ورجم، واختراعات أخرى غريبة عن طبيعة حياتنا المسالمة والمتمدّنة. انسلخت عنّا تماماً، وكأنّها ليست مـن البطن التي حملتنا. كنّا في كلّ مرّة تخرج فيها جـود، نحسـب حساباتنا في أنّها لن تعود لأيّ سبب، رغـم أنّ معهـا صـبايا كثيرات من بنات الرقّة، وفيهنّ بنات أعمام لنا، لكنّهنّ لسـن



بجمالها، ولا برقّتها. كانت تذهب إلى المطبخ الإغـــاثيّ بســـيّارة رينج روفر، قد خصّصها المتبرّعون لتنقّلات المتطوّعين، وطبعـــاً كانت ترتدي الأسود، العباءة، وغطاء الرأس، والنقاب الـــذي يغطّي الوجه. يجتمعون هنـــاك في مطـــبخ النســـاء، يعـــدّون للمحتاجين، وللمشرّدين، وجبات الأرزّ ويخنة الخضار والدجاج، والجزر مع البطاطا المطبوخة بصلصة البندورة وكرات اللّحم، أو الفاصولياء البيضاء، أو الباميا، أو الفول، وكلّ ما يصلح ليكون وجبة مشبعة للمقاتلين، ولأسرهم. عاش كلّ من بابا وســـلمى حرباً أخرى مع جود، حرباً لمنعها من الخروج إلى هذا الأرخبيل القذر من تجمّعات الفصائل العسكريّة، المتأسلمين، والزعـــران، والفاشلين، والمرضى النفسيّين، وكلّهـــم يحملـــون الســـلاح، ويشكّلون هدفاً لقصف النظام الذي لا يهمّه وجـــود مـــدنيّين بينهم، فهذه حرب ليس فيها حقوق لأحـــد، أو مواثيـــق، أو معاهدات تخصّ الأسرى والنساء والأطفال، القيم فيها معطّلة.

* * *

عندما أسّس بن لادن القاعدة في العام 1988، لم يكن "روح الأمين" قد ولد بعد. ولد في العام الذي يليه، في بيت قرميديّ لا تتجاوز مساحته خمسين متراً، لكنّه محاط بجنينة صغيرة، مزروعة بأشجار الخوخ والليمون، في نورثـــالرتون، عاصـــمة مقاطعـــة يوركشاير، شمال شرق إنكلترة. عاش ولداً وحيداً، وبلا أصدقاء،



إذ لم تكن العائلات تحبّذ اختلاطه بأولادها، ولا سيّما حين كانوا يلاحظون ذقن أبيه، وعباءة أمّه التي كانت بخلاف أمّهاتهم، محجّبة. كانت أمّه كاثي الإنكليزيّة صديقته الوحيدة، وقد تحوّل اسمها إلى آيشة، أو عائشة بعد زواجها بأبيه شريف خان، الذي كان طبيب طوارئ في مستوصف الحيّ المعزول نسبيًّا في طرف المدينة. أحبَّ التنزّه معها، وكان مكان نزهاتهما المفضّل قلعة نورمنديّة عتيقة، مبنيّة على رابية قريبة من بيتهم، كان يحلم دائماً أن يكون أميرها. في سنته السادسة عشرة، أخذه أبوه إلى لندن، حيث اصطفّ مئات المسلمين داخل مسجد ميدان فاينسبري، ممتدّين إلى الخارج، يستمعون إلى خطبة أبي حمزة المصريّ، محاطين بعناصر الشرطة البريطانيّة. لقد أدهشه الرجل الذي جاء منذ السبعينيّات ليدرس الطبّ في بريطانيا، فصار خطيباً بليغاً، مقطوع اليدين، وبعين واحدة، إذ فقد أعضاءه وهو ينزع الألغام التي زرعها الروس في أفغانستان، بلده هو، لا بلد المصريّ، في حين غادر أبوه شريف خان المكان الذي عليه أن يكون فيه، وهرب إلى هنا، إلى بلاد الكفّار.

ينحدر شريف خان من مدينة فارياب، في الشمال الأفغانيّ، حيث يشكّل البشتون أقليّة بالنسبة للطاجيك والكازاخيّين، لذلك غادر أجداده الشمال، نحو الجنوب الشرقيّ، واستقرّوا في محيط قندهار، ملتحقين ببقايا عرقهم، ولا سيّما أنّ وشاة الطاجيك كانوا قد أبلغوا البريطانيين، أنّ (الروح الأوّل)، الجدّ، انضمّ إلى



مقاتلي الجبال الذين أوقعوا بجنود الإمبراطوريّة العظمى، عند عبورهم السلاسل من الهند إلى أفغانستان.

درس شريف خان الطبّ في جامعة كابول، وشارك في محاربة السوفييت، طبيباً ميدانيّاً، ثمّ حاملاً للسلاح، وبعد أن نجا من أكثر من موت وشيك، غادر إلى بريطانيا، التي رعت رحلته إلى معسكر الحديبيّة في الفيلبّين، بمساعدة من المخابرات الباكستانيّة، وبتمويل سعوديّ. عاد إلى لندن، بعد أن تلقّى وزوجته عائشة فصلين دراسيّين في الجهاد الحديث، وانضمّ إلى مكتب للإرشاد، بهدف توحيد طاقات الشباب المسلم للجهاد خارج المملكة المتّحدة. كان روح الأمين مغرماً باللّعب بالقطار الذي قدّمه له أبوه حينما أتّم حفظ "جزء عمّ"، تلك هي الهديّة الوحيدة التي حصل عليها، لأنّه فشل في حفظ بقيّة أجزاء القرآن الكريم. يفكّك السكّة، ويعيد تركيبها عشرات المرّات في اليوم، ثمّ يترك العربة الوحيدة التي بقيت سليمة من الكسر، تنطلق بأضواء خضراء لا توقفها قواطع، وهو يحملق في الشبابيك التي تظهر خلفها رؤوس لمسافرين من كرتون، يلوّح لهم، ويبتسم، ويحلم في أن يمتدّ الطريق إلى أبعد من هذه القضبان الصغيرة المنغلقة على دائرة.

كانت جود رغم إنكليزيّتها الضعيفة، قد أغرمت بكلام روح الأمين عن صلادة رجال البشتون، الموازية لوعورة جبالهم، وعن حميّتهم الملتهبة على مرّ الزمان، وعن براعتهم في استعمال



السلاح، ثروتهم الوحيدة التي أخرجوا بها الإنكليز والروس والأميركان من بلادهم، وذادوا بها عن حياض الإسلام. رقص أمامها رقص الـ (أتن)، رقصة رجال البشتون الأحرار، وقال إنّه قد غادر عيشته الراغدة في أوربة، وجاء هنا ليعرفها، وهذا مخطّط له في السماء، سرّ من أسرار المجرّات المكتوبة في اللّوح المحفوظ، وليس لأحد من البشر أن يردّه لا بقول ولا بعمل.

حين دخل "روح الأمين" بيتنا، لم يكن يشبه المقاتلين الأجانب الذين كانت شاشات التلفزيون تعرض صورهم في كابول وبيشاور. كان معتدل الطول، قويّ البنية، بشرته إلى بياض، وعيناه خضراوان ضيّقتان، شعره أشقر منسدل حتّى كتفيه، وقد ربطه بشكل ذيل فرس، وأطلق لحية كثّة تدلّت تحت ذقنه بضعة سنتميترات.

لا يبدو على محيّاه الشرّ، ولا يحمل أيّة إشارة عنيفة سوى بندقيّة الكلاشنكوف التي لا تفارق كتفه، ورغم برودة الجوّ كان يرتدي بنطلوناً من الكتّان الأسود، وقميصاً مثله، ينسدل فوقه، بياقة إيرانيّة، وحذاء عسكريّاً خاكيّ اللّون، بدا النسخة الأكثر رصانة لـ كارل لاغرفيلد، المدير الملهم لدار شانيل للأزياء.

حين رآه بابا لا يرتدي الثوب الطالبانيّ، هدأ قليلاً، في حين كانت سلمى ترتجف من الخوف والظلم، وتسأل: كيف وصل هؤلاء الغرباء إلى سورية؟ ما الذي أتى بهم من البلاد البعيدة؟ ولماذا تركوا دمشق واللاّذقيّة وحلب وجاؤوا إلى الرقّة!



كان بابا يحبّ أن يرى في بيتنا رجلاً تكون الإنجليزيّة لغة أصليّة له، فيشبع لديه النوستالجيا إلى بوسطن، حيث قضى أجمل أيّامه، والتي لم يطفئ الوقت جذوتها، لكنّه لم يفكّر مطلقاً بمثل هذا السيناريو، أراد أن يجلسا معاً، ويتكلّمان في السياسة والثقافة، وهما يتناولان كأساً من الويسكي أو البيرة على أقلّ تقدير، أما أن يأتي صاحب اللّسان الإنكليزيّ على شكل مجاهد!

سأله سؤالاً واحداً:

– لماذا أتيت إلى هنا؟!

كان جالساً على كرسيّ الـ "لوي كانز" المنجّد بالساتان الأزرق، ينظر في صورتنا الموضوعة على الكونسول الرخاميّ بجانبه، صورة التقطت لنا في عرس أحد الأقارب، ماما وبابا، ونحن الثلاثة نرتدي فساتين "ديكولتيه"، تبدي أكتافنا العارية، فما كان منه إلاّ أن قلب الصورة بيده، فغابت وجوهنا في بياض الرخام. حوّل نظره إلى الأرض، وقال بأدب جمّ:

– المكان الذي جئت منه شوارعه مستقيمة وواسعة، ليس في يوركشاير أو لندن مكان يشبه زوايب "السبع حارات" الملتفّة وراء هذا القصر. هل تعرف أيّها "السيد"! إنّ قصرك هذا يشبه القلعة التي كنت أتجوّل حولها كلّ يوم حينما كنت صغيراً، أمسك بيد آيشة أمّي، ونرتقي الدرج الكبير. أمّي ماتت، قتلها السرطان، لأنّ أميركا لم تسمح لها بالدخول إلى أراضيها للعلاج،



قالوا إنّها إرهابيّة. تخيّل: آيشة التي علّمت اليتميمات الصغيرات الصلاة، والحياكة، والتطريز، إرهابيّة!

إنّ بلدكم تشبه وطني، تشبه قندهار، حيث القطارات حرّة، لا تأبه للوقت الإنكليزيّ المرهق، تتأخّر، أولا تأتي مطلقاً!

لم ينم بابا طوال اللّيل، وكذلك سلمى، ظلّ يقرأ القرآن، وهو يفعل ذلك فقط حينما يكون ثمّة مصاب جلل.

سألتُ سلمى: كيف! لماذا لم يحبسها بابا، لم يربطها!

- لأنّنا جميعاً استسهلنا الموت. لم يتبادل معها أيّة كلمة، فهي حتّى لو رجعت عن موقفها، سيأخذها الأفغانيّ بقوّة السلاح، فالدخول في هذا المستنقع ليس كالخروج منه إطلاقاً، أنت بعيدة، لا تعرفين الحرب، في الحرب لا أحد يملك مصير الآخر.

بكى بابا كثيراً، بل انهار. قالت سلمى إنّه بكى أكثر من يوم موت ماما، وأكثر من يوم علم بمرضي، وأكثر من يوم غرق نسيب. كان يعلم أنّه لن يرى جود الصغيرة ثانية، وكان يتضرّع إلى الله، ويسأل لماذا ابتلاه بقهر الرجال!




مكتبة
الفكر الجديد

كاميكازي




مكتبة
الفكر الجديد

أعلن الآن عن نفسي، وقد عدت إلى الحياة من جديد، أقاوم فكرة عودة المرض ثانية، وأحتفل باللّحظة الراهنة، وبأنفاسي وهورموناتي التي استعدها بعد مرور سنة ونصف على نهاية العلاج الإشعاعيّ، بمساعدة الوقت، وبجهود كبيرة بذلتها بالرياضة، والتغذية، والتفاؤل.

كان مساء الجمعة، وقد دعتني هانية لحضور أمسية راقصة لمتدرّبيهم في الـ "تريدر فيكس"، نادٍ ملحق بفندق ريجنسي عمّان، الواقع قرب دوّار الداخليّة. ارتديت ثوباً قصيراً من الموسلين الأسود، بياقة تكشف قليلاً الصدر، وبلا أكمام، فظهرت أوشامي، أو شاماتي الجديدة. إنّها النقاط الثلاث التي تقع على مستقيم واحد، من الذراع، فمنتصف الصدر، فالذراع الأخرى، والتي رسمها رجل الأشعّة، ليحدّد مكان الضربات العلاجيّة، والتي ستبقى إلى الأبد، لتذكّرني بأنّ العذاب مَرّ من هنا. لقد تجاهلتها على أيّ حال. شعري لا يحتاج إلى تمشيط، علّمني المرض أن أتركه قصيراً مثل شعر الأولاد، ومثل شعر هانية، بل أجمل، لأنّ سواده أحلك، وموجاته أصغر. وضعت قدميّ في حذاء بيج بكعب مربّع، اشتريته خصيصاً لأنسف فكرة الكعب العالي، إنّني أريد حياة بلا أيّ نوع من أنواع المعاناة. اكتفيت من الزينة بعقد من اللؤلؤ في رقبتي، محتفلة بألواني الطبيعيّة التي استعدها من جديد.



نزلت الدرجات إلى النادي، فوصلتني أصوات موسيقى بوب غير مميّزة، ممّا يشير إلى أنّ السهرة لم تبدأ بعد. قابلني وجه الدكتور يعقوب وسط العتمة المواربة، فارتبكت! أوّل مرّة، منذ عرفته قبل ما يقارب السنوات الثلاث، أراه خارج غرفة التعذيب. كان يشبه تماماً الولد الذي رأيته في بورتوفينو، وحيداً على طاولة مربّعة صغيرة، مضاءة بمصباح صغير، يتأمّل في مملحة من الخزف الأبيض أمامه، ويبدو مثل من يفكّر بخطّة جهنّميّة. ترددت في الاقتراب منه، استذكرت طفولتي القريبة من يفاعته آنذاك. ليس ثمّة محل جيلاتي لأمنحه كوزاً، فنوقف لعبة الاختباء وراء الزمن. رفع رأسه، فألفاني قريبة منه، حيّاني بتلويحة، ودعاني، فذهبت كطفل يصالحه أبوه بعد أن أشبعه ضرباً. وقفت عند الطاولة فقام وعانقني، وترك كرسيّه إلى الاتجاه الآخر، وأجلسني إلى جواره على الأريكة الحمراء، مواجهَين حلبة الرقص. كان شخصاً آخر مختلفاً، رائقاً وأنيقاً، ببدلة سفاري من الكتّان الرماديّ، وقميص أزرق. وحذاء غامق يكاد أن يكون رياضيًّا. حطّ علينا الصمت بعد أسئلة المجاملة، كلّ منّا كان يختلس النظر إلى الآخر، ثمّ يغضي بابتسامة، لقد كان يعرف أنّني أعرف بعلاقتهما. شعرت بأنّه قريب جدًّا، أخي الذي لم يأت إلى العالم مثلاً، أو صديقي العتيق الذي عاد بعد غياب، بل أكثر من ذلك، إنّه يعرف تاريخي، ونقاط ضعفي، ودموعي، وأوجاعي، وأطوار جسدي الذي انتقل من منتهى القبح إلى



ريعان العافية. شعرت به مغتبطاً بـــي، إنّني صورة مـــن صـــور انتصاراته في الحياة.

دخلت مجموعة من الرجال والنساء، متتابعين، بينهم صــبايا وشباب، وعجائز وكهول، أثاروا جلبة في المكـــان، وجلســـوا إلى طاولات متقاربة. كلّهم احتفلوا بمظهرهم، ملابسهم أنيقة ومريحة، لم أتميّزها لوهلة، فيها الكثير من اللّمعان، الشباب أكثرهم بـــالجينز، والقمصان الكلاسيكيّة، والنساء بأحذيـــة الـــرقص اللاّتـــينيّ ذات الكعوب العريضة، والوجوه المدوّرة الصـــغيرة، ارتـــدين فســـاتين هفهافة، قصيرة، بقصّة (الكلوش)، أو بطبقات متراكبة، الظهـــور عارية، والنهود مشرئبّة، وبينهم تلمع هانية، بثوب مـــن جورســـيه الساتان أبيض اللّون يلتصق بجدعها العلويّ، وينفرد من عند الخصر بطبقتين من الموسلين إلى منتصف الفخذ، تزيّن صدره المقصـــوص على شكل نهديها حبّات من الكريستال، ويمسكه خيطـــان بلـــون الفضّة معلّقان بكتفيها، يشتبك أحدهما في عراك مع التنين المستلقي على رقبتها، فيبدو الأخير هارباً منه. الحذاء الفضيّ الذي في قدمها يؤكّد حرفيّتها البالغة، وقد شدّ الكولون الذي له لون جلدها ساقيها الممتلئتين، فظهرت العضلات أكثر وضوحاً، ترتخي وتتقلّص وفاقـــاً لحركتها. أقبلت علينا، عانقتني، ثمّ أطالت في عناق يعقوب، الـــذي بدا متحفّظاً قليلاً، ربّما بسبب وجودي، لكنّهما كانا سعيدين جدًّا.

ذلك هو العرض الأوّل الذي تخرج فيه هانية على الملأ، بعد أن أنهت علاجها، وقامت بتـــدريبات في حلقـــات مغلقـــة في



الاستوديو. ليس عرضاً رسميًّا بقدر ما هو عرض تفاعليّ مع المتدرّبين، وروّاد النادي الذين هم في معظمهم قد تعلّموا الرقص أو احترفوه في مكان ما من العالم. يعقوب كان ينظر إليها بشغف، وقد احتضن كتفيها العاريين بذراعه. ما زالت أظافره مهملة! عيناها الصغيرتان المبطّنتان بثنيتين جلديّتين، ترسلان نظرات تواطؤ باتجاهي، أستقبلها بابتسامة. غرت منها بشدّة، شعرت بأنّها قهرتني، إذ سطت على ورقة سريّة من أوراق طفولتي، وتركتني مثل الجنيّة التي أنقذت الأمير من الغرق، فوجدته فتاة أخرى على الشاطئ، وادّعت بأنّها من أنقذته، فأحبّها. لكنّ هانية أنقذته حقّاً، وصلت إلى السراديب التي حفرها لنفسه في الداخل، وأضاءت العتمة والرطوبة بشعلة الحياة التي تمسك بها، ومدّت قنواته نحو العالم. يستحقّ هذا الرجل الذي خلّص مئات المرضى من عذاباتهم أن يكون سعيداً، وتجهل هانية أنّ قيامها بإسعاده أشبه بمهمّة رسوليّة. أسرق بضع نظرات إليه، أرأف بوحدته، وأتخيّل طفولته السعيدة التي مضت سريعاً في حضن أبويه، لا بدّ من أنّه كان ولداً هادئاً، لم يجرّب يوماً أن يتسلّق الزحليقة من الاتجاه المعاكس، ولم يحظ بمتعة أن يهتمّ بأخ صغير أو أن يذوق عطف أخ أكبر، ولا يعرف المدى الذي عليه أن يغطّ فيه الكعكة بالحليب كي تلين، ثمّ يرفعها إلى فمه قبل أن تتفتّت. نبيلة لن تسمح له بمثل هذه الممارسات التي تخصّ مجموعة من الأولاد الأشقياء، لا فرداً هادئاً مستسلماً لوحدته. لو كان



يعقوب لي لعلّمته كي يتزحلق على إفريز الدرج، وكيف يضع قدميه على عارضتي الباب الخشبيّ ويتسلّق إلى فوق، وكيف يقف تحت مياه النافورة من غير أن يتبلّل برذاذها، ولحكيت له حكايات عن البلاد البعيدة، حكايات لا تعرفها نبيلة ولا هانية، عن "جمل غيدا الحزين"، وعن "مرعي الخيّال"، وعن "برج عليا"!

بدأت فرقة مكوّنة من خمسة رجال وامرأتين، بالعزف على الغيتارات والساكس، والخشاخيش، وطبول صغيرة، وبدأ عالم السالسا يشرع أبوابه للراقصين، بإيقاعات مهجّنة بين إفريقيّة مغنّية، ولاتينيّة مندفعة. كان الاستهلال هادئاً بكلاسيك سالسا، وحركات الثنائيّات القليلة التي تمادت على الحلبة كانت رزينة وواضحة التقاسيم. ثمّة مغن ومغنية يتبادلان الأدوار، من غير أن تتوقّف الوصلة، يدخل كلّ منهما من حيث يخرج الآخر، مع صيحات تعلن الحماسة. بدا الراقصون وقد اعتادوا على بعضهم، تتحاور أجسادهم بوئام، والسعادة على وجوههم. كان عجوزان في السبعين يستمتعان بتحوّلات اللّحن، أمّا أنا فحننت إلى ناصر، غاب في وقت الفرح الذي يستحقّ، وغبت مع الموسيقى الكوبيّة في بيوت القصب المستلقية على شواطئ الكاريبي، حيث يعيش الأفارقة الذين استعبدهم إسبانية، يعودون منهكين من المزارع القريبة حيث يستنبتون البنّ والتوابل، وبدلاً من أن يغرقوا بالنوم، يشعلون الشواطئ بأغاني الحنين إلى الوطن، والحريّة، فتلتحم الأجساد في رغبات محمومة، تقوم الإيقاعات مقام فحيحها



المتعالي. إنّها الطريقة الوحيدة التي تشعر أصحابها بآدميّتهم في المستعمرات البعيدة.

يأتي أكرم شريك هانية في الرقص، يستأذن يعقوب، وتقوم هانية مستسلمة لموسيقى سولو بصوت ذكوريّ له رائحة تبغ محترق. جذعها ثابت في مواجهة رفيقها، يقتربان خطوة بحركة القدم، ويتراجعان خطوتين بحركة الورك. جسداهما في استسلام مطلق إلى الموسيقى، والنشوة تفيض من العينين والشفتين كلّما أوغل الإيقاع في جنونه. اشتدّت الحركة، وصارت دائريّة، موقّعة، وتخلّت هانية عن ثبات جذعها مع موسيقى مطوّرة لـ "بوبي كروز"، وبدا كتفاها وقد تخلّيا عنها، يرقصان وحدهما، تدخل في جسد أكرم ثمّ تنطوي لتمرق من بين ساقيه، ثمّ تنتصب، فتظهر عروق رقبتها الزرقاء وقد لمعت فوقها قطرات العرق. أحبّ ذلك الوريد الذي ينفر من يسار رقبتها، حينما ترفع رأسها، أو تضحك، إنّه يغري بالذبح.

نسيتنا هانية وسرحت في الحلبة مثل حصان موستانغ عَزَّ ترويضه. كان أكرم يحيطها بجسده، فتلتصق به ثمّ تبتعد بحركة عنيفة، تحرقه بها من جديد. الأضواء المتناوبة بين العتمة والظلال تربك المشهد، وتقرّبه من اللايقين. مع ضربة النهاية وصياح الراقصين والجمهور غطّى أكرم بجذعه جسد هانية الذي اقترب من ملامسة الأرض، كانت مستلقية فوق ذراعيه، وقد منحها قبلة محمومة في عنقها، إشارة إلى الشكر على تشارك المتعة.



نظرتُ لحظتها إلى يعقوب الذي كان مستغرقاً في المشهد، يبحث عن الثنائيّ المحترف الذي اختفى بين الأجساد الهاوية. كان الجفن تحت عينه اليمنى ينبض بحركة سريعة، ووجهه بدا موحشاً مثل بيت بلا أمّ.

قالت هانية إنّه عاد معها إلى الاستوديو. كان هادئاً، لكنّه لوى ذراعيها بعنف مؤلم، وقال إنّ عليها أن تكسب بضعة كيلو غرامات، فقد بدت هزيلة وهي ترقص.

- امممممم، وماذا قال أيضاً؟
- قال إنّه يحبّ الأشياء التي تمكّنه من أن يمسكها بيديه.
- وهو يرتدي قفّازيه المخيفين؟!
- بل بلا أيّة حواجز معيقة.

ضحكت ضحكتها الرنّانة كأنّها جنديّ هارب من الحرب العالميّة الثانية! لا تعطيني هانية الإجابات التي أنتظرها، فتحفّزني على أن أصغي تماماً، من غير أن أجرؤ على مقاطعتها:

- صفات عديدة تجمع بين الرجل والحصان، كلاهما يملك غريزة الحرب، وشغف الطراد، وجموح البدايات، إلى أن يأنس الحصان لفارسه، والرجل لامرأته، عندئذ يتشابهان ببسط سطوهما، فالحصان يحمي فارسه، والرجل يقود امرأته إلى حيث يظنّ أنّه الأمان، ومع ذلك تستطيعين المراهنة على جواد، لكنّك لا تستطيعين المراهنة على رجل. فالجواد يمنح فارسه إشارات تدلّ على تعبه، أو



على رغبته باللعب، أو على ألمه، أمّا الرجل فيجمح بلا سابق إنذار!

- تعتقدين أنّه سيذهب؟
- ممكن.

أخافتني!

- كيف سيذهب ويتركنا؟ كيف سيتخلّى عن كلّ هؤلاء المرضى البائسين! أنا ممكن أن أموت لو لم أجده في المستشفى.
- لا تقلقي، سيذهب منّي، لا منكِ! عموماً أنا سأغادر.
- إلى أين ستذهبين أنت الأخرى؟

رفعت حاجبيها، كما تفعل طفلة تحاول إغاظة صديقتها بحصولها على ما لا تملكه:

- تواعدت مع ماما على أن نلتقي في كوالالمبور. أنا متعبة، لم أسافر منذ سنتين، موسم التدريب المقبل سيبدأ في نيسان، وأوّل عرض سيكون في تريدر فيكس، ليلة الجمعة الأولى من آيّار. ربّما عليّ أيضاً أن أبتعد قليلاً عن يعقوب، لا أريد أن تطغى على علاقتنا صبغة الاعتياد. ستحضرين العرض طبعاً. أكلّمك عند عودتي.
- إن شا الله...

مدّت قدمها العارية على الطاولة المرتفعة أمامنا، فانحسرت تنورتها الرياضيّة الرماديّة لمسافة بعيدة، وبدا أنّها تستعيد ألوانها



الطبيعيّة بسرعة شديدة، ضربت على فخذها، فسمع صوت رنّان للصفعة، واحمرّ المكان فوراً فوق الجلد الأبيض الصقيل. طوت ساقها إلى الخلف، بحيث صار كعب قدمها في وجهي:

- انظري، بشرتي ناشفة، وجلد كعبيّ صار سميكاً، الكيماوي يحرق الجلد حرقاً. هل ذهبت قبلاً إلى (الفيش سبا)!
- آه، سمعت عنه، لكن لم أذهب. هو السمك الذي يتغذّى على الفطريّات وجلد القدمين الميّت!
- تماماً. سمكة جارا روفا التي تلقّب بالدكتورة سمكة. هيّا تعالي معنا.
- حينما يصير وضعي أفضل، سأخطط لرحلة، سأذهب لأرى أهلي أنا أيضاً.
- وضعك ممتاز، تعالي معنا، سأعرّفك إلى (ماي مام)، سنقضي وقتاً رائعاً، ونذهب في جولة ساحرة، كوالالمبور، ثمّ بكين.
- أووووو، بكّين! لا أعرف أحداً ذهب إلى هناك.
- هه، ماذا أحضر لك معي إذن؟
- مايوه بكّيني بالتأكيد.
- هههههههه... قد نعود بعدها إلى فيتنام، لم نقرّر بعد، لكنّني مشتاقة لجدّي، أفتقده كثيراً. يملك مطعماً في (هوان كيم)، يطلّ على البحيرة، وعلى مقربة من



الأوبرا هاوس.

- يحمل اسم نورينكو أيضاً؟!

- هههههههه، بل (كاميكازي)، تحيّة للانتحاريّين اليابانيين في مواجهة الحلفاء.

غرقنا بالضحك... أضحكتنا مفارقات الحروب التي لا تنتهي، تقتل الناس، ثمّ يتمسّكون بذكرياتها الموجعة في كلّ مكان من العالم، عبر أسماء، وأزياء، وموسيقى، ومشروبات روحيّة، حتّى العجوز الثمانينيّ، القابع في فيتنام، لم ينج من نوستالجيا الألم.

* * *

كان جدّ هانية يجلس وحيداً على طاولته المعتادة، فوق رصيف شارع البحيرة، وكانت أذناه العتيقتان تعجزان عن تمييز نغمات موسيقى قادمة من دار الأوبرا، والتي تستقبل فرقة صينيّة تؤدّي عرضاً لأوبرا كارل أورف الشهيرة "كارمينا بورانا"، حيث لا أحد يقف في وجه آلهة القدر (O Fortuna)، هادمة اللذّات:

وانصيباه! مثل القمر أنتَ متقلّب،
أحياناً تمنح وتزيد، ودائماً تمنع وتنقص،
الحياة البشعة، أوَلا تقهر؟!
المصير موحش وفارغ،



يا عجلة القدر الدائرة،

إنّك لحاسدة حاقدة...

عند منتصف اللّيل خرج الموسيقيّون، انتشروا في الساحة الممتدّة بين المبنى الكبير والسوق المجاور، الرجال ببدلاتهم السموكينغ، والسيّدات بفساتينهنّ السوداء السواريه، يحملون آلاتهم، وحقائب مستلزماتهم الأخرى. المايسترو، والمغنّون الثلاثة: التينور الصادح، والباريتون صوت الجهير الأوّل، والسبرانو الصوت النديّ، تلقّوا باقات من الزهور الزرقاء الباذخة، يتبعهم المعجبون، ويستوقفونهم لالتقاط الصور. وصلوا إلى مطعم الجدّ القريب، وملؤوا الصالة الداخليّة، والرصيف، وبعضهم جلس إلى البار، وطلب "البلو كاميكازي"، المشروب الرسميّ للمحلّ، مع الأرزّ بثمار البحر.

في ذلك الوقت كانت (يان) تحتضن ابنتها هانية، التي استجابت لإعلان مساعد قائد الطائرة، حينما حدّث الركّاب من قمرة القيادة قائلاً: "حسناً، تصبحون على خير..."!

بعد أقلّ من ساعة كانت طائرة البوينغ 777 الماليزيّة، في رحلتها رقم إم إتش 370، والمتّجهة من كوالالمبور إلى بكّين، قد اختفت من على شاشة الرادار، جنوب المحيط الهندي، قرب السواحل الفيتناميّة.





التقيت بالدكتور يعقوب في "تريدر" يوم العرض المحدّد، كانت هانية بالنسبة لكلينا ما تزال احتمالاً قائماً. لم يكن هناك أيّة إشارة لـ "سالسا نايت" في النادي. الدي جي كان يلفّق أغنيات دارجة إلى أخرى قديمة بإيقاعات محدّثة. جلست إلى جواره، تناول منديلاً ورقيّاً، وكتب عليه شيئاً، وأرسله مع النادل إلى الدي جي. لم تظهر هانية، حاولت الاتصال بها مراراً، كان هاتفها مغلقاً. الأغنية التالية كانت:

(I found my love in Portofino)

نظر في عينيّ من تحت عدستيه المدوّرتين، وسألني بلهجة حياديّة:

- هل تعرفين هذه الأغنية؟

أجبته بتأكيد قاطع:

- لا.

اعتذرت منه لرغبتي في الخروج، متعلّلة بغياب هانية، فسألني إن كنت بحاجة إلى أن يوصلني، شكرته، وانطلقت بسيّارتي، وأنا أسأل نفسي ما الذي أتى بي إلى هنا أصلاً! لقد ولدت مؤخّراً، والمواليد الجدد شديدو الهشاشة، ويجب حمايتهم من عنف التقلّبات! أشرفت على جسر المدينة الرياضيّة، وبدلاً من أن أنزل تحته، لأتوجّه باتجاه الرابية، صعدت نحو تلاع العلي.

عمّان نائمة، الحركة في الشوارع الكبرى قليلة جدًّا، والمدى مفتوح، والهواء الذي أعقب زخّات مطر مسائيّة ما زال بارداً،



رغم أنّنا نستقبل الصيف. ناصر ما زال في (كاليفورنيا)، ذهب لحضور زفاف ولده، وسيعود، كما وعد، بعد أيّام.

وجدت نفسي وحيدة في مكان غريب. المكان الوحيد الذي أنتمي إليه هو هذا المبنى الذي يقف إلى يساري. بعض الغرف مضاءة بأضواء بيضاء، وأخرى معتمة. لا أحد يقف على الرصيف أمام الحديقة الصغيرة، بائع القهوة أغلق كشكه، وسيّارة دفن الموتى غادرت. جلست على المقعد المثبّت بالأرض، مواجهة البوّابة الرئيسة. ثمّة مرضى يخرجون من غرفة الطوارئ، متّكئين على مرافقيهم، لا بدّ من أن تكون آلام الكيماوي قد منعتهم من إكمال الليلة في أسرّتهم، فجاؤوا يبحثون عن المسكّنات. معظمهم بلباس النوم، وآخرون ببدلات رياضيّة، وقد ناءت أرجلهم بالأحذية، فاكتفوا بصنادل أو أخفاف منزليّة. في تلك الغرف المتراكبة، أجساد تئنّ من الوجع، وأخرى تفارق أرواحها، وهناك في الثلاّجات موتى، ينتظرون الصباح ليستقرّوا في باطن الأرض. كنت قبل أشهر واحدة من هؤلاء جميعاً، والآن أجلس على الرصيف المقابل، وربّما أعود إليهم قريباً، أو بعد حين. مهما ابتعدت عن هذا المكان، سأظلّ أحمل احتمال عودتي إليه بين خلايا جسدي، أهرب منه إلى ناصر، أو إلى يعقوب، أو إلى هانية، أو إلى بابا، مثل سمكة تقطع المحيط هرباً من ذيلها.

شيء ما في موت هانية حمل إليّ سكينة عميقة، شعرت بأنّني تحرّرت من سطوتها، وارتحت إلى أنّها ماتت بحادث مفجع لا



بالسرطان! أغصان الصفصاف انثنت من شدّة الهواء حتّى لامست رأسي، ثمّ انفرجت، ففاجأتني قبّة السماء وقد انجلت لعينيّ شيئاً فشيئاً، وحين انطفأ صفّ من الأضواء في أحد طوابق المركز، صارت النجوم أكثر لمعاناً، وبدا كلّ شيء محتوماً، الألم، والموت، والشفاء. السماء هنا قريبة، قريبة جدًّا، ولا تحتاج إلى سلالم أو حبال.

تمّت

عمّان في 18-6-2015



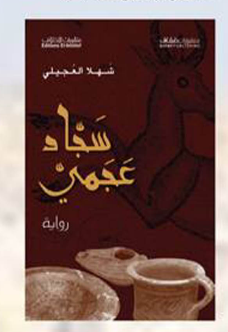
سَماءُ قريبة من بيتِنا

جاءني خاطر في تلك الجلسة أنّه كان عليّ أن أدرس الجغرافيا، لقد اكتشفت معه أنّني أحبّها حقّاً، وأنّها ربّما كانت شغفي المغيّب الذي لم ينتبه أحد إليه، حتّى أنا، وربّما لهذا السبب تخصّصت في مجال قريب من الجغرافيا البشريّة تحديداً، وهو الأنثروبولوجيا الثقافيّة. لو قام ناصر بتدريسي هذه المادّة في سنواتي المدرسيّة المبكّرة، لكنت أعددت معه خرائط بديلة لهذا العالم الرديء، ولو أنّ بابا اشترى لي تلك الكرة الأرضيّة التي رأيتها في واجهة مكتبة في شارع جان دارك في منطقة الحمراء ببيروت، لكنت ذهبت باتجاه الجغرافيا بلا شكّ، ولكتبنا أبحاثنا معاً، أنا وناصر، حول الفخاخ السياسيّة التي تصنعها التضاريس مثلاً. كنت في الرابعة من عمري، ووقفت أشير إلى تلك الكرة وراء الزجاج، وقد غطّى الأزرق اللامع المخطّط بخطوط الذهب جلّ مساحتها، وأصرخ: الدنيا، الدنيا، أريد الدنيا... يسحبني بابا من يدي، ويقول: سنشتري «الدنيا» من الشام، من الشام!

شَهلا العُجيلي

- روائية من سورية.

- صدر لها عن ضفاف:





ISBN: 978-614-02-1321-0
9786140213210





منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com